أنشودة الخلود
رياض الجرعي

مشكلة الإنسان الأزلية هي وعيه الحتمي بحقيقة الموت، فهو قادر على أن يعي أنه كائن متناهٍ، وأنه يحمل في جسده مؤقت فنائه، وأنه رغم كل تلك التجاهلات واللامبالاة وعدم الاكتراث بالموت، إلا أنه يعي حقيقة قدومه إليه. وعندما يبرز الموت أمامنا بأنيابه وأظافره، ويلتهم أجمل لحظات حياتنا، ويفتت السعادة وينخر في جماليات الحياة، ندرك لحظتها أنه عازم على التحديق بنظراته إلينا، كما فعل مع غيرنا. فمنذ ولادتنا ونحن في طريقنا إلى الموت ولا ننشغل بذلك، ولا نتعامل مع الموت بجدية، ونمارس فن تجاهله وفن نسيانه! وتجاهل الموت أو ما بعد الموت أو نسيان الموت يعني في الحقيقة نسيان الحياة أيضًا. لأن الموت في الحقيقة لا يعني غياب الحياة، بل يعني إقرار الروح بالخلود وشعورها العميق بالسرمدية والّاتناهي؟ أليس فهم الحياة من خلال الموت هو طريق الفهم الصادق والجاد للحياة؟ أليس موقف الأنبياء والحكماء وكبار المفكرين والفلاسفة والعلماء من الحياة يتحدد من خلال موقفهم من الموت وما بعد الموت ...؟ هذه تأملات في فلسفة الموت والحياة كتبتها لنفسي ابتداءً بعد طول تأمل وتفكير ثم وجدت أنني أتقاطع مع الآخرين في مانفكر فيه سوياً فقررت طباعتها ، فكل فرد في هذه الحياة يسأل نفسه مجموعة من الأسئلة سواءً صرح بذلك أم أضمرها في نفسه وهي أسئلة عن فاعلية وجوده في هذا الوجود: ما هي الحياة ؟ و ما قيمة الحياة بكاملها بالنسبة له ؟ وفي ماذا تتحقق ؟ وإذا كان الموت حتميًا، فكيف يجب عليّ أن أعيش؟ أليس الموت يعيد الإنسان إلى أغوار نفسه، ولمساءلتها عن مسؤولية وجوده في هذا الوجود. أليس في الموت يكف الإنسان عن الكذب والمراوغة ويبرز الإيمان الصادق بعالم مفارق لعالم الطبيعة؟ وإذا كان الموت حتميًا، فما هو الدافع الذي يدفعنا للعمل والإنجاز قبل الرحيل عن هذه الحياة؟

رياض الجرعي

أنشودة الخلود

تأملات في الموت والحياة

أنشودة الخلود

رياض الجرعي (السعودية)

Riyadaljarei

تصنيف الكتاب : فلسفة

عدد الصفحات : ٢٥٥

القياس : ١٤ X ٢١ سم

تصميم الغلاف والإشراف الفني : رياض الجرعي

الناشر : نشر ذاتي

تاريخ الإصدار :٢٠٢٤م

لغة الكتاب : العربية

جميع الحقوق محفوظة

رقم التسجيل : 202607149880147

تاريخ التسجيل :١٤-٠٧-٢٠٢٦

ردمك :

٩٧٨-٦٠٣-٠٦-٨٢٣١-٧

عنوان الكاتب

riyadaljarei@gmail.com

riyadaljarei@

الإهداء

إلى تلك الأرواح الطاهرة التي غادرت الحياة ، وبقيت ذكراهم في دواخلنا إلى الأبد ...

الفهرس

- مقدمة
- أنشودة الخلود ١٢
- كيف نتعامل مع حقيقة الموت ٧٩
- الموت وضرورة المرجعية الصلبة ١١٢
- الموت والفراغ الوجودي ١٦٤
- شقاء الوعي ٢٢٧
- الإيمان والحضارة ٢٣٩
- الإنسان شهوة الخلود من الصورة إلى السرير الطبي . ٢٤٤

مقدمة :

مشكلة الإنسان الأزلية هي وعيه الحتمي بحقيقة الموت، فهو قادر على أن يعي أنه كائن متناهٍ وأنه يحمل في جسده مؤقت فنائه. رغم كل تلك التجاهلات واللّامبالاة وعدم الاكتراث بالموت، إلّا أنه يعي حقيقة قدومه إليه. وعندما يبرز الموت أمامنا بأنيابه وأظافره، ويلتهم أجمل لحظات حياتنا، ويفتت السعادة وينخر في جماليات الحياة، ندرك لحظتها أنه عازم على التحديق بنظراته إلينا، كما فعل مع غيرنا. فمنذ ولادتنا ونحن في طريقنا إلى الموت ولا ننشغل بذلك، ولا نتعامل مع الموت بجدية، ونمارس فن تجاهله وفن نسيانه! إننا في حياتنا اليومية، ورغم كل الأحداث! ورغم كل صعقات الموت! إلا أننا مع مرور الزمن نمارس اللّامبالاة تجاهه، وهذا هو المربك! إنّ عدم المبالاة لا يعني غياب الموت! بل يعني غياب معنى الحياة وتجاهل ما بعد الموت معًا، ونسيان الموت يعني نسيان الحياة أيضًا، إن الموت جعلني أعيد التفكير في كل شيء، ليس لأن فلسفة الأخلاق والفن والجمال وكل مواضع الفلسفة الأخرى غير ذي أهمية بل لأن الموت هو في الحقيقة بداية التفلسف الحقيقي بداية فهم العالم والحياة والذات وهذه الأوراق والأفكار المتناثرة تأثر شيئاً من الوجدان ومنفلته عن قبضة المنهج والموضوعية ولا أزعم بأنها تتحدث عن موضوع

واحد فهي في نهاية المطاف خطاب وجداني للذات قبل أن يكون للآخرين وتأملات تردد في طباعتها لأكثر من أربعة أعوام ، وها أنا ذا أقوم بطباعتها لأشارك الآخرين في ذلك عل ذلك من باب العلم النافع.

هل لأن الموت في الحقيقة لا يعني غياب الحياة، بل يعني إقرار الروح بالخلود وشعورها العميق بالسرمدية والّاتناهي؟ أليس فهم الحياة من خلال الموت هو طريق ومنهج الأنبياء والحكماء وكبار المفكرين والفلاسفة والعلماء؟

وعندما يقترب منا أشد الاقتراب، فيلامس من لم نظن يومًا أننا سوف نفارقهم، ينفجر في جوهرنا مجموعة من الأسئلة مثل: ما هي الغاية من وجودي في هذه الحياة؟ ماذا يعني أن أكون هنا وليس هناك؟ وماذا بعد الموت؟ وإذا كان الموت حتميًا، فكيف يجب عليَّ أن أعيش؟ إن الموت يرد الإنسان إلى أغوار نفسه ولمساءلته عن مسؤولية وجوده في هذا الوجود. أليس في الموت عظة وعبرة تكف الإنسان عن الكذب والمراوغة، ويبرز الإيمان الصادق بعالم مفارق لعالم الطبيعة؟ وإذا كان الموت حتميًا، فما هو الدافع الذي يدفعنا للعمل والإنجاز قبل الرحيل عن هذه الحياة؟

لقد حاولت في هذه التأملات البسيطة أن أجيب عن أسئلة عاشت في داخلي دهرًا من الزمن، ووضعت إجاباتها

كمنهج أسير وفق تصوراته ومفاهيمه. المهم أنني كنت فيه صادقًا مع نفسي، فقد تأملت كثيرًا جدًا بعض تلك الأحداث التي مرت بي، وكنت أعتقد بسذاجة أن الإنسان قد يتاح له أن يفسر العالم تفسيرًا ماديًا حلوليًا فقط وينتهي كل شيء، ويثرثر كما يحلو له... ويصنع الكلمات المزخرفة والأنيقة كما يريد... ويمارس الكذب المتقن ويروج وهم الحقيقة.

يُصاب (صانع الكلام) ممن يعتبر التفسير المادي للوجود قادرًا على تفسير كل شيء بالخرس عندما يحدق في وجهه الموت ويدركه بتأمل و بوعي صادق .

هناك فقط يعيد التفكير في كل شيء في الحياة بشكل جدي وصادق. وقد حاولت أن أبين في هذه التأملات حقيقة خلود الروح ومسؤولية الفرد تجاه نفسه، وكيف نقاوم (صناع الكلام) عندما يزعزعون كل الحقائق الأزلية التي وثق بها البشر على مر تاريخهم، وكيف نقاوم واقع (جلد الفاجر وعجز الثقة). لأن من يمتلك ناصية اللغة قد يكون ذا بيان وبلاغة ويقول بزخرف القول ما يغري الغير ... ويبتلى من يكون الحق معه بعيٍّ في اللسان وحصرٍ في القول وعجزٍ في النطق والإبانة، وهذا حدث مع موسى عليه السلام عندما وصفه الفاجر فرعون مستهترًا به {ولا يكاد يبين}1. فناجى الله متألماً من حبسة الكلمات في صدره

1 الزخرف (آية ٥٢).

وعجز لسانه عن قولها ، فقال لله بأنين وألم نفسي: {ويضيق صدري ولا ينطق لساني} الزخرف آية ٥٢.

وزخرفة القول من مواهب أعداء الحق، يقول الله تعالى: {كَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}.سورة الأنعام الآية ١١٢. وهم يتفنّنون في تفتيت الإيمان بالنسبية وتفتيت المعنى من الحياة بالعبثية وإلغاء الغاية من الوجود بالصدفة! ويبشرون2 بنسبية كل شيء في هذا الوجود، ويحطمون المرجعية الفكرية ويفككونها ، فنسبح في محيط من الأفكار لا سواحل له ، ويكون الغرق في قاع العدم حتميًا ومهينًا.

ولقد بينت في هذه الأوراق كم ستكون مرجعية الفرد الصلبة المفارقة للطبيعة مهمة جدًا لإدارة بوصلة حياته بشكل واضح ، و يدرك من خلالها انشراح صدره والإقدام على الإنجاز و التفاؤل والأمل في هذه الحياة.

و من خلاله (هذه المرجعية الصلبة) يرى العالم (عالم الأفكار) بطريقة واعية، ويساعده هذا على تحديد موقفه بوضوح من كل فكرة ويأخذ بيده ليكون منتجاً وفاعلاً.

2 محاكاة للتبشير المسيحي ...

إن التسليم لله تعالى يعني قضية مهمة جداً هي أن هناك ذات مطلقة القوة والإرادة قادرة على تدبير كل شيء إن هذا يعني حالة من الطمأنينة الصادقة والنابعة من شغاف القلب وهذا كله يكون عندما يسلم تسليمًا صادقًا في حياته و بعدها (بوعد الله) له في حياة مابعد الموت، وهذا الوعد الحق هو ما سوف ينقذ الإنسان من قلق الحياة وآلامها المستمرة وضجرها الذي لا ينتهي. وأخيرًا، لا أزعم أن هذه الصفحات أخذت طريقها للضوء وفق منهجية محددة ومنضبطة، إلا أنها مواضيع متفرقة ووجدانيات صادقة تأملت فيها كل قضايا الإنسان المصيرية، وحاولت أن أجيب عن سؤال: كيف أعيش الحياة ؟ ولم أكتب فيها إلا ما أنا مؤمن به ومطمئن له ومُسلّم له أصدق تسليم، والحمد لله من قبل ومن بعد...

أنشودة الخلود

إن الموت في الحقيقة لا يعني غياب الحياة، بل يعني إقرار الروح بالخلود وشعورها العميق بالتجاوز من هذا العالم المادي إلى ما وراء المادة. وفهم الحياة من خلال الموت هو الفهم الصادق لها، لأن الذات تعيد مساءلة نفسها تجاه الغاية من وجودها في هذا الوجود. وبهذا الوعي يكف الإنسان عن الكذب والمراوغة في عالم الفكر، لأن الموت يجعله يعيد مسائلة نفسه (بشكل باطني)، وهذا هو الدافع الصادق الذي يدفعنا قُدمًا في الوصول للحق والحقيقة. 3، ونحن كبشر ندرك أن محك الموت هو المرتقى الصعب، ولهذا تجد أن مواجهة الموت من قبل الأبطال والفرسان والشجعان على مر التاريخ يعني المعيار الأمثل للشجاعة الإنسانية، لأن الموت ليس بالأمر الهين! الذي يمكن الاستهزاء والاستخفاف به، بل إن من يجازف بروحه من أجل مبادئ وقيم محددة يكون عند عامة الناس هو أعلى النماذج الأخلاقية في الصدق مع النفس وفي الشجاعة في الموقف وفي مروءة الطبع، ويحظى هذا الفعل بالاحترام والإعجاب التاريخي بين البشر... والحياة المطلقة شيء اختص به الله تعالى لنفسه. ويكفي أن نلاحظ أن كل موجود

3 الحق بالمفهوم الإسلامي ، والحقيقة بالمفهوم الفلسفي .

في الحياة الدنيا يتأرجح بين أمرين اثنين فقط، ولادة وموت، أي أنها عبارة عن صيرورة مستمرة، فهي ولادة يتبعها موت وموت يتبعه حياة، أي أن الموت دائم ومتكرر رغم كل هذه الحياة المحيطة بنا ولكل الموجودات في هذا الوجود لا تخرج عن كماشة (الموت والحياة!) أي أن الموت هو حياة من جانب آخر ... لا شيء يبقى على حاله ولا شيء يستطيع النجاة من (الموت) أو يجرؤ على أن يقف في وجهه، إن هذه الصيرورة المستمرة لا تستثني أحدًا من الكائنات الحية، يكفي أن تتأمل أثناء التجوال في أحضان الطبيعة رؤيتك لتلك الأشجار التي أسقطها الدهر وعوامل الطبيعة التي تؤثر فيها فتجعلها تذبل وتسقط ميتة، وأحيانًا تجد في أطرافها أغصانًا جديدة لم يكن يظن أنها قد تنبت من جديد، وهكذا دواليك... في ذات الوقت، يولد الأطفال ويخرجون للحياة ومنذ اللحظة الأولى في حياتهم يبدأ العد التنازلي لأرواحهم وتبدأ لحظة الموت بالاقتراب منهم يومًا بعد يوم... إن حقيقة الموت تهيمن على كل هذا الوجود الذي نراه وندركه من أصغر حبات الكروموسوم إلى أكبر النجوم والكواكب في هذا الكون الفسيح... وكل ما هو موجود وحسي مصيره الحتمي والنهائي للأفول والغياب وسينتهي به الأمر في نهاية المطاف إلى الموت، الموت يأكل ولا يشبع ويلتهم بلا تردد، والبقاء الحتمي لله وحده، فهو الذات المطلقة المهيمنة على كل شيء، وهو

جوهر هذا الوجود وبقاؤه مطلق ولا نهائي وسرمدي، وقد قرر على كل الكائنات الأخرى الفناء والنهاية، إن هذه الحقيقة ترددها الأديان السماوية والإبراهيمية، وأيضًا الفلسفة كان شغلها الشاغل هو التأمل في الموت وفهم الحياة من خلال الموت وليس التأمل في الحياة من خلال الحياة ذاتها بل تأمل الحياة من خلال الموت ، وكان أفلاطون صادقًا عندما عرف الفلسفة في حواره مع فيدون قائلاً: "الفلسفة هي دراسة الموت"4جعل الموت في متن التفكير الفلسفي بل إن " الفيلسوف الحق هو الذي يطلب الموت ويتعلمه أي يبحث في السبيل الذي يؤدي إلى فصل النفس عن البدن "5 وكذلك فعل الغزالي وكل فلاسفة الإسلام و بعض فلاسفة الغرب المحدثين والمعتبرين كديكارت وبرغسون وكيكيغارد والعديد من الفلاسفة الآخرين وهو تأمل باطني ذاتي يجعل الإنسان يفكر في لحظة الموت و يفكر في فنائه وماذا يعني الموت له .. ويكون في مواجهة مصيره الحتمي أي تجربته الخاصة في ذلك، ولأننا نستطيع أن نفكر فيه فإننا خائفون فعلاً من ذلك، وهذا الخوف عند البعض نابع من المجهول .! يقول أحد الفلاسفة : (لقد حصل الإنسان ـ على ـ الوعي المعرفي،و انسلخ

4 من جلجامش إلى نيتشه .. مصطفى صمودي . ص ٢١.

5 أفلاطون . تأليف د . أحمد فؤاد الأهواني . ص ٨٣

على الفور من الطّبيعة، التي لم يُغادرها أيّ نوع من الكائنات الحيّة الأخرى . لقد خرج الإنسان من الحالة الطّبيعيّة وجعل العالم «شيئًا» يتفحّصه، وبدأت منذ ذلك الحين متاعبه كلّها. كان الموتُ العقوبة الكبرى التي هدّدهم الإله بها، لذلك فإنّ وعينا المعرفي يجعلنا نُدرك الموت ويُنشئ فينا الأسى والألم"6 ولكن الفلسفة، منذ ذلك العصر اليوناني، وهي تقدم الحلول الساذجة في التنظير لما بعد الموت، فهذا بروديكوس القائل "عندما نكون نحن، لا يوجد الموت، وعندما يوجد الموت، لا نكون نحن؛ لذلك لا يوجد للموت علاقة بنا، لا الآن ولا بعد ذلك" أي أن الخوف من الموت أمر غير معقول طالما أن الموت لا يهم إلا الأحياء لا الأموات"7 ويستفيد من ذلك أبيقور فيشرع للامبالاة تجاهه، والتي تريد أن تبين عدم الاكتراث به وعدم الاهتمام له ، بل يكون كل الانشغال بممارسة اللذة والمتعة و نسيان الموت تماماً ! ولا تخلو هذه الفكرة من سذاجة في قوله: "حيث نكون لا يكون الموت، وعندما يكون الموت لا نكون نحن" 8 لكن هذا ليس كل شيء .! والفلسفة في جانبها المادي تهتم بالتعامل مع الجسد، لكنّ الجسد ليس كل شيء، وهذا ما يقر به غالب جهابذة الفلسفة

6 تأملات في فلسفة الموت مختارات من محاضرة ديميتريس ليانتينيس في مدرسة الصحة العسكرية سنه ١٩٩٧م

7 نقلها عنه ابيقور عن بروديكوس في رسالته الشهيرة إلى مينيوس ...

8 السوفسطائية وأثر مابعد الحداثة . ديفيد ج . كوج ص 34

ذاتها ، و الجسد ليس أكثر من وعاء للروح وهذا الجسد يضطرنا للضرورات التي تجعلنا نعمل وننتج ونتكاثر ... إلخ . ونعيش الحياة بكفاح من أجل إمداد هذا الجسد بمقومات الحياة، لكن أمدادها شيء وغذاء الروح وسرمديتها شيء آخر فهي مفارقة في حقيقتها للطبيعة وشعورنا الدائم (في دواخلنا) بالديمومة والثبات والخلود رغم كل هذه المتغيرات حولنا .

ألسنا نسأل دائماً لماذا تعاني هذه الروح من اغتراب خانق رغم كل هذا الثراء المادي الذي نعيشه اليوم و نجد أثره في كل ميادين الفكر الحديثة رغم ما تعدنا به الحداثة من السعادة والحضارة والتطور ... ألسنا نجد أن لهذه الروح وحشة في هذا العالم الأرضي .! أليس التحام الإنسان بالمادة فقط هو جوهر ولب الاغتراب الذي يعيشه الإنسان دائماً ، ألم تنتقد أشهر الفلسفات المادية كالمارسكية مثلاً تشيء الإنسان ! أي تحويل الإنسان إلى شيء من ضمن الأشياء !وهو أنه يشعر مثلاً بجماليات الحياة من حوله كجزء من هذا التطور الحضاري والجمالي وأيضا تذوق الإنسان لجمال الطبيعة، لكنه في كل مره يأتيه شعور غائر وعميق بأنه مفارق ومتجاوز لهذه الأشياء ، كذلك ويداهمه

ذلك (القلق الوجودي 9) باستمرار وهذا القلق يعيش في داخل الإنسان دائما وأبداً.

و عندما تتوق روحه للخلود فذلك بسبب شيء واحد وهو لأنه هذه الروحي ـ التي لا نعرف ماهيتها حتى الآن ـ و هي شيء عجز الإنسان عن فهمه ولم تجيب عنه الأديان قال سعيد بن جبير " لم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح ... إن الله لم يطلع على الروح ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً"10 للروح الإنسانية جلال وعظمة يقول الله تعالى عن آدم : "فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا" 11 وهذا لا يعني

أن الروح جزء من الله تبارك وتعالى بل هي تدل على التشريف لا الانتماء الجزئي (مثل "ناقة الله" أو "بيت الله") وهي عند جمهور علماء المسلمين تعني (إضافة تخصيص وتشريف " فالروح هنا مخلوقة من الله ، وهي من أمره، و رغم غموضها وجهلنا بها يجد الإنسان نفسه أمام لغز كبير جداً و يبقى هذا اللغز بلا جواب ! ويبقى هذا السؤال عالقاً في وجدانه لا يفارقه ولا يتركه عن ماهية هذه الروح

.

9 كيكاغورد يعبر عن قلق الوجود في كتبة الموت والرعشة ...إلخ وهو قلقل تجاة الوجود فطري في الإنسان ، هذا المفهوم أفسده الفيلسوف الفرنسي سارتر وغير ملامحه وكتب في ذلك د عبدالرحمن بدوي كتاباً كاملاً يبين فيه أثر سارتر الأديب على الفلسفة وإفساد مفاهيمها ...

10 تفسير الخازن البغوي ج ٤ سورة الإسراء . ص ١٣٣ . دار الكتب العلمية . تحقيق عبدالسلام شاهين .

11 سورة التحريم الآية 12

وفضول الإنسان ـ الذي لم يسعفه صبره لينتظر أن تتكشف حقيقة كل هذه الأسرار في ما بعد الموت ـ فتجده يسعى في حياته ليحقق رغبة زائدة في كشف هذه الروح حتى وإن كان هذا الكشف كذباً وإدعاءً فتارة يفسرها (بطاقة كما فعل علماء وفلاسفة القرن الثامن و التاسع عشر وتارة يفسرها بإنتخاب طبيعي وتطور جيني كما فعل فلاسفة وعلماء القرن التاسع عشر وتارة يأله اللغة في ذاتها وجعلها هي ماتستحق البحث كما فعل علما وفلاسفة القرن العشرين ...إلخ) ومحاولة الإنسان تجسيد الخلود في دنياه ليس جديداً فهذا سلوك وثني قديم فعلته الكثير من الحضارات وأبرزها الحضارة المصرية القديمة ، و كل محاولات الخلود التي مورست لهذا الجسد البشري البائس تنتهي للفشل، منذ عصر الفراعنة وتحينطهم للأجساد حتى ولادة السرير الطبي الحديث وعمليات التجميل وتجديد الجسد ...12 وصولاً للأبحاث الجينية عن فهم آليات الشيخوخة (وجينات السيرتوينات) وكل ما يفعله الفلاسفة والفنانون والشعراء والأدباء... من إبداعاتهم هو رغبة غائرة في نفوسهم للخلود لأعمالهم على الأرض، سواء كانت لأفكارهم أو قصائدهم أو لوحاتهم أو فلسفاتهم. ألم يقل أحدهم بعد أن سُئل: لماذا تكتب وأنت منعزل عن العالم

12 تحدثت عن شهوة الخلود من الصورة للسرير الطبي في الجزء الأخير من الكتاب

في هذه الجبال ...؟ فأجاب قائلاً: (أكتب لجيل لم يولد بعد)...

إن الإنسان العاقل والفاضل، عندما يدرك هذه الحقيقة الحتمية (الموت)، فإنه يرغب في أن يعيش وفق قيم، وليس وفق نزوات الجسد. وهذا ما يفعله من أوتي النبوة والحكمة من كبار العقول أو من أوتي موهبة فكرية وعقلية، أو كان أبسط من ذلك لكنه ذو فهم وعقل وتواضع وله وحظ من الذكاء قليل كان أو كثيراً .

وعندما نقول أن يعيش وفق قيم أي أن حياته ليست عبثاً وطيشاً (وكان أمره فرطاً)... ولهذا يضيق من لا يعرف القيم بصاحب القيم، فيدفع هذا السلوك صاحب القيم إلى الهروب ـأحياناًـ للعزلة مع سلاح المعرفة، فيحصن نفسه من غوغاء العامة، والحياة التي تشطب عنه حدة النظر وذكاء الفهم وصدق الإيمان. وليس أمامه (هذا الإنسان) بعد العزلة إلا الهروب من هذا العالم الخارجي (عالم العلاقات) إلى عالمه الداخلي الباطني (التأمل والتفكير الذاتي الباطني)، وبهذا يدرك بوعي أهمية التحكم في الذات وضبط المشاعر وفهم المراد من الحياة ومواجهة شقاء الحياة بترسانة من الإيمان والصبر والتحمل والحكمة.

إن التصديق والإيمان بالله وبحقيقة العالم الآخر، أقوى سلاح في مواجهة الموت. وإن هذا هو ما يدفع الإنسان لتحمل الحياة، وأن يفكر فيما بعد الموت كما يفكر فيما قبل الموت، وأن يدرك أن هناك عدالة مطلقة عندما تستحيل في الأرض تلك العدالة، حتى في أقوى الأنظمة الديمقراطية المدنية الحديثة! وأن يقرأ عن ما بعد الموت كما يقرأ لما قبل الموت، وأن يبحث عن الخلاص لروحه في ذلك العالم الآخر الأبدي. وهذا ما لا يجده في نفسه من لا يسلم بحقيقة العالم الآخر، لأن ذلك يجلب له أشد أنواع الألم النفسي لحظة الفراق، ولا يجد العزاء في ذلك، فيكون الموت أقسى عليه من أي شيء. وكيف أصلاً تقدم له (نظرية الانتخاب الطبيعي) العزاء؟ .!13 إن الإنسان الفاضل منذ القديم يقاوم عبودية الجسد وعبودية النفس وعبودية الشهوة وعبودية الرغبة، وهي التي تجعل الإنسان الضعيف عبدًا وخاضعًا لها، فالحكيم يدبر جسده بحكمة ويفهم كيف يقاوم ويرفع نفسه من عبوديتها إلى عبودية الله وحده، وتكون حياته لله منذ ولادته حتى موته لله، ولا تكون الغرائز والشهوات سيدة عليه مهيمنة على عقله ومستعبدة عمره، وهذا هو المحك، لأن الإنسان في هذه الحياة وُلد حرًا، وله إرادة وقدرة على الاختيار، هذا

13 نظرية داروين التطورية ...

يعني أن يكون مسؤولًا عن كل أفعاله وتصرفاته وسلوكه مسؤولية تامة، وأن كل قول أو عمل أو فعل لا يعني أفعالًا لا معنى لها ولا غاية من ورائها، بل هذا يعني أن هناك حجمًا هائلًا من المسؤولية ملقاة على كاهلنا، وهذا قدرنا في هذه الأرض، وتهديد الموت بالاقتراب ممّا يعيد في دواخلنا إحياء هذه المسؤولية، ولأننا أحرار في فعل ما نريد ومقدر علينا أن نكون أحرارًا في اختياراتنا، فإن المسؤولية علينا تكون أكبر من تلك الكائنات التي تحكمها قوانين غريزية محددة، وهنا يكون الإنسان حرًا حتى وإن مارس النفاق مع الآخرين للتماهي معهم وجعجع بأنهم (سرقوا حريته)، إلا أنه في الحقيقة حر من داخله وفيما يؤمن به ويعتقده، وهذا يعني (أن الحرية) في اختياراتك التي تؤمن بها متاحة لك تمامًا، وأنت في نهاية المطاف من يحمل وزرها وحجم مسؤوليتها.

وهذا يدفعنا دائمًا للقلق من الحياة وفهم مسؤولية وجودنا، وهذا يجعل الحياة ثقيلة على نفوسنا منذ ولادتنا حتى موتنا. كيف نعيش بفضيلة منذ ولادتنا حتى موتنا؟ أليس هذا شأنًا عظيمًا لا يقدر عليه إلا الصابرون الصادقون العابدون... ثم ماذا عن التقدم في العمر؟ هل يجلب لنا الهدوء والسكينة والعقل والفضيلة؟ أم أن التقدم في العمر مع الانعكاف والزهد تأتي محمّلة بأثقل حملين في الحياة، كما يصفها

شيشرون "الفقر والشيخوخة ـ أليست الشيخوخة تبعدنا عن ممارسة النشاط... وتضعف أجسامنا... وتحرمنا تقريبًا من ملذاتنا الحسية... وليست بعيدة عن الموت..."؟14 هذا مايأتي في أذهاننا عن الشيخوخة أي أن كل شيخ أو كل عجوز هم أقرب من غيرهم للموت .! وهذا ماليس صحيحاً دائماً ، **نعم لايجب أن يفكر الشباب بهذه الطريقة فهذه مصيدة للعقول الحمقاء .**

فالموت يتصيد الأطفال كما يتصيد الشيوخ ، و الموت يقف لنا بالمرصاد في كل لحظات أعمارنا وهو في طريقه لنا في كل لحظة وفي كل وقت ، الشيخوخة التي يحزن منها البعض، ومن الشيب الذي يغزو ويغير لون الشعر، هي في الحقيقة من ملذات تتويج سن الشباب، ففي ظني أن من يعيش مراحل الحياة كاملة من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى سن الأشد وأخيرًا الشيخوخة، فقد عاش الحياة كاملة، لأن الشيخوخة لا تحرمنا من ممارسة النشاط العقلي وهو أسمى، وفقًا للحكماء، من النشاط البدني. والشيخوخة لا تقدر بالضرورة على أجسامنا بالوهن والمرض، لأننا قد نشيخ وأجسادنا تعمل أكثر بكثير من الشباب، وهي، كما يظن البعض، قد تحرمنا من ملذاتنا الحسية، وهي ليست بتلك الأهمية، فمع الوعي يتجاوز الإنسان اللذة الحسية

14 في مديح الشيخوخة . شيشرون ص ٤١

ويذهب إلى اللذة العقلية. يصف شيشرون الشباب في العصر اليوناني كما هو الحال في عصرنا تمامًا، لا فرق، بقول:

"كان يقول بعض السذج من الشباب في العصر اليوناني إن كل شيء نفعله ينبغي أن يقاس بقدر ما يحققه لنا من متعة! لكن أحد الحكماء رد على هذا بقول: ليس أيسر من هزيمة الشعب الذي يستسلم للمتعة." 15ـ وهذا يأخذنا إلى أن ــ إن انعدام الرغبة مدعاة للسرور الكامل16ـ ويضيف عن الشيخوخه بقول ـ **ليس هنا رضى يمكن أن يحصل عليه المرء في الحياة أعظم من شيخوخة هادئة يكرسها للمعرفة والتعليم"17** ــ وشيشرون يستهتر بذلك الشاب الذي يظن بوثوقية أنه في طريقه **للشيخوخه و يقول ـ تبلغ به الحماقة حداً يجعلة واثقاً تماماً من أنه سيظل على قيد الحياة عند حلول المساء.!؟ ...إن عدداً قليلاً من الشباب هم الذين يصلون إلى سن الشيخوخة...**مثل هذا الأمل تعوزه الحكمة فما هو أكثر حماقة من أن تخلط بين ماهو أمر مؤكد وماهو غير مؤكد...الشباب يتمنى طول العمر ، وهو ما يتمتع به الشخص المسن بالفعل...والربيع هو مثل

15 في مديح الشيخوخة ٦٩

16 في مديح الشيخوخة . شيشرون ص ٧٣

17 ٧٤

الشباب الذي يحمل وعد الثمار المقبلة، أما سنواتنا الأخيرة فهي فصول للحصاد أو تخزين المحاصيل... إن مايحلم به الشباب دائماً هي الشيخوة وهذا صحيح إن وهم البقاء هو أكبر خدعة قد يخدع بها الشباب ...و الموت يباغت الشباب بقوة لكنه يواجه المسنين في الوقت الصحيح...**ولايمكن أن يقتعني شيء بأن الروح التي تسكن أجساد البشر تفنى حينما تغادر هذه الأجساد...أدركت أن الحياة الحقيقية لن تبدأ إلا بعد موتي .وما لم يكن الخلود إلا للروح فلماذا يسعى أنبل رجالنا بكل قوة إلى تحقيق أمجادهم ...لماذا يموت أكثرنا حكمة في هدوء بينما الحمقى يواجهون الموت بالحزن الشديد ؟ أليست هي روح الحكيم ذات الرؤية الثاقبة والصافية التي ترى أنها تتهيأ للمضي نحو عالم أفضل؟**...أحب أن أفكر دائماً في أنني جئت إلى هذه الدنيا لغرض معين ...ما أجمل ذلك اليوم الذي سأتهيأ فيه للانضمام إلى هذه الصحبة المقدسة من الأرواح مخلفاً ورائي عالماً يسوده الآلم والتلوث "18

هذه عبارات شيشرون وكان ذلك قبل مايتجاوز 2100 عام من الآن تقريباً، يصف حال عصره وكأنه يصف حال عصرنا أيضاً و نجد أن الشعور بالخلود يسكننا جميعاً قديماً كان أم حديثاً ، وليس هذا الاغتراب من أعراض الحداثة

18 شيشرون في مديح الشيخوخة ص ٩٥ – ٩٧-1-103– 105

كما يروجه البعض ، بل هو شعور كامن في النفس الإنسانية ، فنحن نشاهد كل مايحيط بنا يموت ويفنى ، ويخلق الله الحياة من رحم الموت... كل شيء حتى خلايا الانسان تتجدد بالموت والحياة ، يقول العلماء بأننا بأيلوجياً (جسدياً) نتغير كلياً بعد كل عشرة أعوام من خلال تغير كل تلك الخلايا التي في أجسادنا ، وهذا ينطبق على كل ماهو محيط بنا في هذه الحياة.

ثم أليس ذلك يشبه قارب صيد السمك الذي يقوم صاحبه بتغيير قطعة منه في كل مرة حتى يتغير كاملاً ومع هذا يبقى القارب هو قاربه رغم تغير كل القطع التي فيه على مرور الوقت .! و لا نقول أن القارب قد تغير رغم ان صاحب القارب قد قام بتغيير كل قطعة منه على مرور الأعوام لأن (هوية) هذا القارب في عقولنا أكثر من هويته المادية و الحسية ، لقد بقي ذلك القارب بتلك الهوية رغم أن الهوية ليست أكثر من أفكار ومقولات عقلية كما تقول الفلسفة ، و الروح وإن كنا لانعرف عنها شيء إلا أنها وعي بالحياة و هي الشيء الخالدة للأبد لأنها شرف من الله للإنسان وهي سرمدية الوجود و لامتناهيه و مطلقه.؟ أي أن موتها هو موت مؤقت لكن خلودها بعد الموت أما في عذاب خالد أو في سعادة ونعيم دائم و خالدة حق يقر به الإسلام وكل الأديان الإبراهيمية، وهذا الأمر

للروح و لسنا متأكدين من الأجساد البشرية . "هل عذاب البرزخ يكون على الروح أو الروح و الجسد يقول ابن حزم ويقول بذلك أيضاَ طائفة من أهل العلم أن النعيم أو العذاب لا يكون إلا على الروح، ويستدل بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم: (روح المؤمن طائر يطير في رياض الجنة) وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (أرواح الشهداء كحواصل طير خضر تعلق من شجر الجنة)19... وأيضاً ورد في تفسير قول الله تعالى: {وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار:١٤] قال ابن مسعود: "(الفجار) أي الكفار أرواحهم في حواصل طير سود تطير بهم في الجحيم في سابع أرض في سجين، في الأرض السابعة "20 . 21

فقد تفارق الروح الجسد ويبقى الجسد يعمل ويسمي ذلك الأطباء (موتاً دماغياً) إنني أعتبر الروح لاتفارق الوعي أبداً فالروح مرتبطة بهذا الوعي وهي لا تعني النفس كما يعبر بها ابن حزم ،(أي أن الروح والنفس هما شيء واحد) وأما الجسد فهو دون ذلك بكثير هو فقط (وعاء الروح) والروح فيه كالضيف ، لأبد أن نتعامل مع كل هذا المنزل بأدب وبحياء وبأمانة شديدة وهذه الروح منذ أودعت في

19 شروح أصول أعتقاد أهل السنة للالكائي محمد حسن عبدالغفار ص ١١

20 نفس المرجع السابق.

21 عند الأمام أحمد العذاب على البدن فقط ... ويرى أبن تيمية أن العذاب على البدن والروح وهذا يلزم خلود الروح والبدن وفي هذا الباب كلام كثير ...

هذا الجسد أي منذ طفولتنا حتى كهولتنا تتوق وتشتاق لذلك العالم المطلق و الأبدي خرجت منه والتي تكونت في الأَصل فيه ، ولأنها كذلك ـ أي الروح ـ فهي تشعر دائماً بذلك الخلود الذي يستوطن أعماق النفس وتشعر باستمرار بذلك الاغتراب الوجودي لأن الإنسان هنا قد نسي لماذا خلق فهو كما يقول طه عبدالرحمن 22 " استعادة ميثاق الإنسان مع الله " والموت يعني عند طه عبدالرحمن غياب البعد الروحي والأخلاقي في الحياة المعاصرة .أو كما يفسر ذلك طه عبدالرحمن كامن في هذا " الاشعور الديني" الذي يعتري الإنسان بشكل عام وهنا نتيقن أن الموت البايلوجي هو مرحلة انتقال فقط وهنا يذكرنا الموت بهذه الدهشة والفزع من مرحلة الإنتقال... ويجعلنا الموت نعتبر أجسادنا مثل قارب ثيسيوس...23 تبلى وتنتهي و تتلاشى مع الزمن...و هذا الشعور بالخلود في أعماق النفس والديمومة والإستمرار يرافق الإنسان منذ ولادته حتى موته ، ويمكننا أن نلاحظ أن الموت في القرآن الكريم يشير إلى موت النفس وليس الروح ، ولن نجد في القرآن آية تشير لموت الروح وهي تُوصف كأمر إلهي غامض،

22 فيلسوف مغربي .

23 معضلة فلسفية شهيرة تقول " افترض ثيسيوس أنه قد أبحر وبرفقته جميع قطع الغيار . وبينما كان في البحر استبدل الأجزاء الجديدة بالقديمة . هل السفينة التي عاد فيها هي تلك التي غادر فيها ...! " نهاية كل شي: من الإنسان إلى الكون . كريس إمبي . ص ٣٤

والموت للروح يعبر به عن (القبض) ومعلوماتنا عنها محدودة كما في قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (سورة الإسراء: 85) و دائما يكون الموت للنفس وأما الروح فهي خالدة باقية تنتقل من مرحلة لمرحلة أخرى أي أن الموت للنفس عند النوم وعند الموت ، إلا عندما نعتبر الروح هي النفس والنفس هي الروح ولا فرق كما هو عند أبي محمد ابن حزم وجمع كبير من جمهور علماء الإسلام ... لكن الفرق بين الروح والنفس لازال غامضاً عندي حقيقة، فالله يصف الروح في آيات والنفس في آيات ثانية ولم أحسم أمري في ذلك هل هي واحدة أم مختلفة . ينقل القرطبي عن ابن عباس قوله: (في ابن آدم نفسٌ وروحٌ ... فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه "24 أي إن الروح تُحبس كما تُحبس في النوم حتى يأتي يوم القيامة... والله أعلم فلم أوتينا من العلم بالروح إلا قليلًا...والقرطبي في تفسيره لآية { الله يتوفى الأنفس حين موتها ...} آية ٤٢ سورة الزمر يقسم تفسيرها لأربعة مسائل ذكرها أهل العلم ويقول في المسألة الثالثة " والصحيح فيه أنه جسم لطيف (...) يجذب ويخرج وفي

24 تفسير القرطبي – الجامع لاحكام القرآن . ١- ١١ . تحقيق سالم مصطفى البدري. ج ٨ . صورة الزمر ص ١٧٠

أكفانه ويلف ويدرج ، وبه إلى السماء يعرج ، لا يموت ولا يفنى، وهو مما له أول وليس له آخر ..."25 .

هناك أشياء غريبة في هذه الحياة... لا يفهمها الإنسان ولا يتاح له فهمها مهما تجول في كتب العلم والفقه والفلسفة والدين والأدب... وتبقى كل تلك الأقوال تأويلات وليست حقائق، كما هو موضوع الروح الذي لم يُقدَّر لنا حتى الاقتراب من فهمه. وقد كنت منذ مدة أفكر في كل شيء يمكن للإنسان التفكير فيه مثل الدين والفقه وفلسفة الأخلاق وفلسفة الفن والجمال والوجود وما وراء الطبيعة وانشغل بالقيم وأفكار الخير والشر والجمال والقبح وكل ما يجعل الإنسان أو يساعده على أن يعيش حياة فاضلة يسودها الخير والإيمان و الحق والعدل... إلخ، وكيف يسيطر على نفسه ويكبح جماح شهواته وجشعه رغم صعوبة ذلك في هذا العصر، وما هو السبيل والطريق لذلك، كيف يمكن لنا أن نقول ما نفعل...ونفعل مانقول وتكون أقوالنا مطابقة لأفعالنا تماماً، أي أن نجعل هذه الحياة الرائعة والحكيمة مثل اللباس على الجسد... فأقرأ في التراث الإسلامي بشكل عام والتراث العالمي كذلك ، وأتجول بين كتب الفقه والفقهاء وكيف يعالجون المسائل ويفكرون بالحلول ويزيلون الإشكالات التي تجعل من حياة الإنسان بشكل عام

25 نفس المصدر السابق.

و الإنسان المسلم بشكل خاص متوافقة ومنسجمة مع زمنه وعصره الذي يعيش فيه وكيف تكون مقاصد الشريعة وسيلة لغاية كبرى وهي حياة كريمة للمسلم في دنياه وآخرته كما يعتبر إمام المربين، و الأمام الفاضل الشاطبي أن الشريعة " شرعت لمصالح العباد؛ فالتكليف كلُّه إما لدرء مفسدة، وإما لجلب مصلحة، أو لهما معًا؛ فالداخل تحته مقتض لما وضعت له" 26 ، و لا يجب أن يغفل عنها أهل الاختصاص، ولا يجب أن يجهلها الإنسان المسلم بشكل خاص، ولهذا كان المسلم الذي يفهم شريعة الله دون غيره لا يعاني من هذا الفراغ الوجودي الخانق التي تعاني منه البشرية اليوم ولأن الموت كما يقول أحد الفلاسفة " يجعل حياتنا التي نتلذذ بها تذروها الرياح 27... ومن خلال الموت ينبع سؤال الغاية من الوجود بشكل صادق وأن يوطن نفسه لنهاية حياته لانه يجعلك تشعر بأن لحظة من لحظات حياتك محدوده ومعدوده وقد يداهمك في أي لحظة وفي وقت قد لا تتوقعه ، ففي الأعوام الأخيرة حدث أمر لم أتوقع حدوثه (زار عائلتنا الموت) و الذي لم أعتد عليه يقترب مني بهذا الشكل، رغم علمي بوقوعه الدائم والمتكرر عند الآخرين (خارج العائلة) ولكنه كان مربكاً

26 التحفة المكية في توضيح أهم القواعد الفقهية ، القاعدة السادسة الشريعة وضعت لجلب المصالح ... ص ٩٩

27 في الإسلام يسمى الموت (هادم اللذات ...)

جداً عندما طاف على عائلتنا من الداخل ، واختار منا من لم نكن نتوقع اختياره ووفاته.

لقد شعرت بأنه يحدق فيني من بعيد. ويا لرهبته وجلاله وهيبته ، إنه مخيف حد الثمالة ، فقد جعلني أهتز وأرتبك وأرتعش حزنًا وخوفًا وهماً وقلقاً ، فلم أشعر بقربه من قبل بهذا الشكل ، مات أخي الأول وتبعه الثاني في غضون سنتين فقط ، كان الموت قاسيًا جدًا، عندما يقترب منك بشكل كبير تشعر بأن إحدى قدميك قد وُضعت في القبر، لقد أعدت التفكير في الحياة كاملة وأدركت فهمًا مختلفًا لها، لقد فهمت أن الإيمان بالله تعالى أثمن شيء قد يُرزق به الإنسان، وهنا فهمت لماذا يعيش الإنسان الصناعي المادي بشكل عام في تمزق روحي (الذي يفسر الوجود تفسيرًا ماديًا فقط) لماذا في هذه الحياة يعيش حالة إحباط خانق وينتشر في وجدانه الكآبة والعبثية وسلوك اللامبالاة بخلاف الإنسان المؤمن والمسلم تحديدًا، إن الجواب على سؤال: ماذا بعد الموت؟ في حياة الإنسان بشكل عام في غاية الأهمية. بل هو أهم سؤال يسأله الإنسان لنفسه، وهذا الظمأ الوجودي في عمق الإنسان لا يجيب عنه ولا يفسر حياته إلا دين صادق دين يربط الدنيا بالآخرة ، ويربط صلاح الدنيا وخيرها بجنة الآخرة وخيرها ويربط جرائم الأرض وكبرياء فجارها بجحيم الآخرة وبشاعتها، وهنا يختار

الإنسان طريقه (بوعي تام) ولهذا يشعر المؤمن جانب الطمأنينة28 وجانب الاغتراب عن الحياة الذي يتسرب إليه في كل لحظة.

هذا الاغتراب هو شعور (غربه عن الحياة) يزداد بسبب الهوة والمسافة والبون الشاسع بين عالمه الروحي وعالمه المادي 29، و تمدد ثقافة الإنتاج الصناعي وحياة العمل اليومي والإنتاج الصناعي وعالم السرعة يزيد هذه الهوة. وهذا الاغتراب يعم كل أرجاء المعمورة من البشر ، ويلازم الإنسان ويرافقه فيغلبه مشاعر الاغتراب30 كالبكاء والألم والحنين طيلة يومه وفي كل حياته، ورغم تفكيره العميق في سبب ذلك إلا أنه لا يوجد سبب وحيد يشعره بأن ذلك الدافع أو السبب هو من جعله يشعر بهذا الشعور، وقد ربط الفيلسوف المغربي طه عبدالرحمن حالة الاغتراب بحالة فقدان المعنى عندما انفصل الإنسان عن أصل وجوده الغيبي ومسؤليته الأخلاقية تجاه الخالق... وقد ينتشر شعور غياب المعنى والذي قد لا يفهم سببه ودافعه عن عامة البشر لكن هذا الشعور عند الخاصة من أهل الإيمان و العرفان يعني شوق تلك الروح لخالقها و لذلك

28 مفهوم الطمأنينة في الإسلام يعني (سكون النفس وصفاء القلب وراحة البال، وتتحقق الاتصال بالله ...)

29 قام بالتلاعب بهذا المفهوم اكثر فلاسفة الألحاد الغربي وهم فيورباخ و ماركس ونيتشه و شوبنهاور. وتطور الامر في الفلسفة الوجودية في القرن العشرين على يد سارتر و ألبير كامو...

30 الاغتراب في جذرها اللغوي (غ ر ب) ... و هو شعور يلازم الفرد ويجعله غريب عن عالمه الذي يعيش فيه .

العالم الآخر الذي انفصلت عنه وحنينها الدائم إليه وتعلقها به، وقد يُعبر عنه بعشرات الطرق والقصائد والوجدانيات والمشاعر المختلفة... يقول ابن تيمية " فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية وحرية عما سواه... ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصودة...(و)..المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد التام ، سواءً أقر المقر بذلك أو أنكره ... وليس عند القلب السليم لا أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أيسر ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله تعالى ومحبته له وإخلاص الدين له. وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله ... والقلب الذي لم يخلص لله فإن فيه طلباً وإرادة وحباً مطلقاً فيه ما يسنح له ويتشبث بما يهواه كالغصن أي نسيم مر به عطفه وأماله ... " 31
هنا يأخذنا أبن تيمية رحمه الله على مفهوم حب العبد لله وحب الله للعبد في تسخيره لتحقيق تلك العبودية (لله تعالى) وهذا نوع من التحرر عن كل شيء سوى الله تعالى بل هذا هو أعلى مراحل الحرية هو أن تتحر من رغبتك في تملك الأشياء حتى لا تستعبدك هي وتكون عبداً لها وفي خدمتها ، و هذا الحب يزيد شوق المؤمن في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة ، وهذا العالم الآخر عالم أجمل

31 العبودية . ١٦٧ . ص ١٧٨ . ١٧٩ ص . ص ٢٠١ . ٢٠٢

وأفضل وأكمل، وهذا الاغتراب الروحي يتلاشى عند المؤمن (بعلاقته بالله) وبحبه له وإقراره بوجوده وتدبيره وتيسيره ، و يزداد توحشاً بازدياد انغماس هذا الإنسان الدهراني بتعبير طه عبد الرحمن أو الإنسان الأداتي32 بتعتبير هابرماس الذي يوظف كل إمكاناته وقدراته في عالمه الدنيوي فقط. ويسميه هذا العقل ابن القيم (العقل المعيشي) ويعلق محمد عبده على كلام ابن القيم بقول " الذين يقلقهم دائماً التفكير بكيفية رفع مستواهم المعيشي، أو كيفية المحافظة على هذا المستوى. ترى أحدهم يفكر ليل نهار في هذه الأمور، ويتعب نفسه ليل نهار بغية الوصول إلى مستوى يضاهي أصدقاءه وجيرانه، فالأحاديث دائماً عن المسكن والملبس، وعن السيارة و الأثاث والراتب..."33 وهذا العقل اليوم تحيط به التقنية وثوراتها التكنولوجية، و يتحول الإنسان فيه كما يقول ماركوزه إلى إنسان ذو بعد واحد تمامًا 34، وأن هناك أبعاداً أخرى للإنسان يتم تسطيحها و إقصائها بطريقة راديكالية بشعة، وأن الإنتاج المادي الصناعي وجشع الرأسمالية المتزايد والتي توظف (الاستهلاك والجنس

32 يقصد به الانسان ذو العقل الأداتي كما شرحه هابرماس وهو إنسان يركز على تحقيق الأهداف بفاعليه وكفاءة دون الاهتمام باي قيم أخلاقية واجتماعية ، وهو نتاج للتطور التكنلوجي والصناعي .

33 مجلة البيان - المجلد 65 - الصفحة 28 - جامع الكتب الإسلامية

34 انظر كتاب هربارت ماركوزه الإنسان ذا البعد الواحد. ترجة جورج طرابيشي.

والمعرفة وهيمنة التكنلوجيا) هي الأفق الإنساني الوحيد ـ في واقع اليوم ـ المتاح للتفكير...! لكن هناك صوتًا داخليًا لا يكف عن مناجاته، يسميه بعض الفلاسفة (القلق الوجودي) يشعره بالضيق والهم والغربة النفسية ويشعر أن جواب ماهو معنى الحياة والغاية منها يقلقه ويلح عليه أن يجيب ؟ بل وأن يسأل نفسه (من أنا ؟ ما هي الغاية من وجودي ؟ وإلى أين ستذهب بعد الموت؟ بل هناك صوت داخلي يذكره بأنه ليس من طبيعة هذه الأرض! وروحه مفارقة لها! فعلى الرغم من أن الجسد جزء من هذه الأرض، فإن الروح ليست كذلك. وهناك مقولة قديمة في هذا الشأن بأن (الجسد) وعاء الروح.

وحاول بعض الفلاسفة والعلماء الطبيعيين (الملحدين) السيطرة على ظاهرة الروح في القرن الثامن عشر، وحاول البعض أن يثبت بأنها ليست أكثر من طاقة! وكان البعض يظن أنه قادر على إلغائها، لكن الطريقة الظاهرة والجلية في كل ميادين العلوم، سواء كانت شرعية أم علمية إنسانية أم فلسفية أم طبيعية، تقف اليوم على مفهوم يجعل الإنسان مفارقًا بشكل جلي وواضح لعالم الطبيعة، ويمكن أن تتجلى هذه الروح بشكل ظاهر وقوي من خلال اللغة. وجود اللغة يعني وجود الإنسان، وغياب اللغة يعني غياب الإنسان. يقول عنها أحد الفلاسفة: (بيت الوجود). واللغة

الإنسانية، التي يكون بها (حضور الإنسان الفعلي) أي أن النفس قد تكون في الإنسان لكن حضور اللغة يعني ارتقاء الإنسان من مستوى الجسد الحيواني إلى عالمه المتسامي الإنساني، و هي في غاية التعقيد والتشعب والغرابة والدهشة، يجعلها البعض غريزية، ويحاول بعض الداروينيين الملحدين أن يجعلوها تطورية... ويحاول بعض الفلاسفة أن يألهها كهايدغر وغيره. لكن في نهاية المطاف، تبقى اللغة هي حقيقة الوعي، وهي بوابة المعرفة، وهي بيت الوجود... هذا الوجود الذي يتشكل فيه وعي الإنسان ورغم كل ما يحاول الإنسان التعبير به وعنه عن مكنونات نفسه فإنه لا ينجح غالباً والسبب في ظني بسيط هو أن اللغة لها مستويات ومستوى اللغة البسيط هو في اللغة التداولية وكأداة للإتصال بين البشر ونقل المعلومات ، ومستواها الأعمق هو في فهم بينة علمها وطريقتها الحوسبية في الدماغ، ومستواها الأعمق من كل ذلك هو في الشعر الذي يعجل مستوى اللغة أعمق بكثير لأن المعنى ينتقل من خلاله بطرق لا نفهمها ونعجز حتى عن تفسيرها .

وبهذا يكون الشعر أعمق مستويات اللغة عند الإنسان كما عبر عنه العديد من فلاسفة اللغة في القرن العشرين وعلى رأسهم رتشارد روتي وغيره ...بل وذهبت الفلسفة لتفسير

نفسها على أنها فن إبداع المفاهيم35 وحديثنا عن اللغة قد يطول لكنها في نهاية المطاف هي (شرف آدم) الذي من خلاله يستطيع أو يحاول أن يعبر عن نفسه في هذا الوجود ويمثل تلك الغربة الوجودية التي تستوطن ذاته في هذا العالم، ونجد هذا عند الإمام الغزالي الذي يعبر عن والشوق للقاء (الله تبارك وتعالى) فينظر للموت على أنه مفارقة الروح للجسد المقيد والمكبل بالقيود والأغلال و تحرير الروح منه لعالم لا متناهي أزلي تتحول الروح فيه لأنشودة خلود في عالم مطلق، عبر عن ذلك بطريقة إيمانية صادقة كما قال أبي حامد الغزالي :

لا تظنوا الموت موتا إنه لحياة وهو غايات المنى

حي ذي الدار نؤوم مغرق فإذا مات أطار الوسنا

لا ترعكم هجمة الموت فما هو إلا إنتقال من هنا

اخلعوا الأجساد من أنفسكم تبصروا الحق عيانا بينا.

.....

35 يمكن العودة لكتاب "ماهي الفلسفة " تأليف جيل دولوز و فليكس غتاري .

كان الغزالي يعتبر روحه كالطائر المحبوس في قفص الجسد " هذا قفص يصفه بقول : كنت فيه وأنا الآن طائر يحلق في فضاء الحق... وهذه قصيدة كتبها قبل وفاته شوقاً لله ورغبة في لقائه وسعادة برؤيته ومبتهجاً لمصير نفسه ويعزي من بعده من يضنون أنه مات ! أولائك الذين يبكون على جسده بعد وفاته وكتب لهم ورقه فوجدوها عند رأسه تقول :

قل لأخوان رأوني ميتاً

فبكوني ورثوا لي حزناً

لاتظنوني بأني ميت

ليس ذاك الميت والله أنا

أنا عصفور وهذا قفصي
كان سجني فتركت السجنا
أشكر الله الذي خلصني
وبنا لي في المعالي وطنا
كنت قبل اليوم ميتا بينكم
فحييت وخلعت الكفنا...
وأنا اليوم أناجي ملكا
وأرى الحق جهارا علنا... 36

36 مفتاح السعادة . ج ٣ . ص ٢٠٥ و ٢٠٦

و الشوق لله يصفه ابن القيم وصفاً لذيذاً بقول : " ثم الشوق، وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر، وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى :من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت} العنكبوت: 5: لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأن قلوبهم لا تهدأ دون لقائه، ضرب لهم أجلا وموعدا للقاء تسكن نفوسهم به "37 وابن القيم أخذ هذا المعنى في شوق المسلم لله من حديث " مَن أحَبَّ لقاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لقاءَه ومَن كرِه لقاءَ اللهِ كرِه اللهُ لقاءَه قالت: فقُلْتُ: يا نبيَّ اللهِ كراهيةَ الموتِ ؟ فكلُّنا نكرَهُ الموتَ قال: ليس كذلك ولكنَّ **المؤمنَ إذا بُشِّر برحمةِ اللهِ ورضوانِه وجنَّتِه أحَبَّ لقاءَ اللهِ** وأحَبَّ اللهُ لقاءَه وإنَّ الكافرَ إذا بُشِّر بعذابِ اللهِ وسَخطِه كرِه لقاءَ اللهِ وكرِه اللهُ لقاءَه"38 ويصف هذا الشعور أجمل وصف بقول " أعظمُ نعيم الآخرة ولذّاتها: النظرُ إلى وجه الربّ جلّ جلاله، وسماعُ كلامه منه، والقربُ منه؛ كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: "فوالله ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه39." في حديث آخر" إنّه إذا تجلّى لهم ورأوه نسُوا ما هم فيه من

37 مدارج السالكين ... ابن القيم ص 429

38 **التخريج : أخرجه مسلم (2684) بلفظه، وأخرجه البخاري معلقا بصيغة الجزم إثر حديث (6507) بلفظ مقارب ابن حبان**

39 التخريج : أخرجه الترمذي (2552)، وابن ماجه (187)، وأحمد (18941)، وابن حبان (7441)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (756) واللفظ لهم جميعا.

النعيم40" و أليس يقول الله تعالى {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } سورة القيامة (آية٢٣) و قال في موضع آخر ﴿وَلَقّاهم نَضْرَةً وسُرُورًا﴾سورة الإنسان (آية ١١) وأليس الرسول ﷺ يدعوا بقول» :وَأسْأَلُكَ اللَّهُمَّ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وجْهِكَ الكَرِيمِ، والشَّوْقَ إلى لِقائِكَ "41 و قال لنا أيضاً ﷺ: أمَا إنَّكم سَتَرَونَ رَبَّكم كَما تَرَونَ هذا القَمَرَ، لا تُضامُونَ في رُؤيَتِه ..."42 ويعلق على هذا الحديث وعلى صحته ابنُ تيميَّةَ تعليقاً يعجبني جداً يقول فيه " هذا الحَديثُ مِن أصَحِّ الأحاديثِ على وَجهِ الأرضِ المُتَلَقَّاةِ بالقَبُولِ المُجْمَعِ عليها عِندَ العُلَماءِ بالحَديثِ وسائِرِ أهلِ السُّنَّةِ"43 إذن فالمؤمن موعود برؤية الله تعالى ذلك الذي أخلص له الحب وطهر قلبه من كل شيء وأخلص حبه لله وجعله حاضراً في حياتك وفي قلبه ،، ولابد أن يكون هدف المؤمن هو الحب والخضوع له والشوق للقائه والحنين لمرضاته والرغبة في رحمته وعفوه ولطفه .

أي أن يكون الله حاضراً في قلبي وفي قلبك دائماً وأبداً، في كل لحظة وكل وقت ، فالبعض ينساه تماماً وأعوذ بالله

40 ذكر بعضهم أن هذا الحديث ضعيف

41 التخريج : أخرجه النسائي (1305)، وأحمد (18351) باختلاف يسير.

42 الراوي : جرير بن عبدالله | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم : 7436

43 مجموع الفتاوي م ٣ ص ٥٩٤

من ذلك ، وعندما ينسى الإنسان الله ينسى نفسه كذلك ويتلاشى في هذا العالم المادي الإنتاجي ويتحول إلى شيء من ضمن الأشياء ويتفرغ من الداخل تماماً وتتبخر منه كل اسألة الوجود والغاية من وجوده ، وهذا هو أسوأ فعل يسلكه الإنسان في حياته كلها يقول الله { نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }سورة الحشر . (آية ١٩) وعندما يكون المرء منشغلاً بما وراء المادة (العالم الآخروي) فإنه يقيم حياته على الإيمان و (يتعامل مع القيم بجدية) كالخير والحق والفضيلة والتقوى، والإيمان الصادق دائماً (مع الله) و يوفق المرء للخير، وأنا هنا لا أقول أن يتجاهل الإنسان واقعه المادي ويتصوف كما يفعل السذج .! بل أقول أن يجعل تلك القيم الخالدة والتي أودعها الله فيه وتكونت في أغوار النفس الإنسانية والتي نسج الله معانيها في شغاف القلب ، هي من تحكم أفعالك وسلوكك وأقوالك وتقيم عالمك المادي وتضبطه وترتب علاقاتك فيه ويكون (رضا الله) هو النهاية الأخيرة من كل تلك الأفعال التي تتوق لها ، والله الذي خلق الخلق وبعث الرزق وكون الوجود أن لا شيء في هذه الحياة يستحق أن تخلص له أشد الإخلاص سوى عبودتيك لله تبارك وتعالى ، ولا تظن أنه بعيد عنك بل هو أقرب من حبل الوريد ، وعندما تقترب منه فإنه يقترب منك وهو كذلك لايحب من يبتعد عنه ولا يوفقهم للهداية له،(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ

ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) الكهف (آية ٢٨) وفرطا عند فقهاء اللغة تعني ضياعاً تجاوز الحد وأسميه في واقع اليوم بلاهه وضياع ونجد في عالمنا اليوم حالة الملحد الامبالي من أغرب حالات الإلحاد في التاريخ فهو ملحد يجمع عدم الاهتمام وعدم الإكتراث بكل اسألة الوجود ويسير فقط وفق غرائزه الحيوانية (جنس طعام مال ...) وهذا التأثير أمتد حقيقة للمجتمعات الشرقية ويتضح ذلك السعي الحثيث على المال طيلة حياتهم دون اكتراث بمصدر هذا المال خيراً كان أم شراً ، غارقين في عالمهم الحسي وقد شطب عندهم ذلك العقل الوجودي والنقدي لواقعهم ، الذي كان يفترض فيهم أن يذكرهم بحقيقة وجودهم ومسؤليتهم على الأرض ، ورحلة الحب والحنين والشوق إلى الله.

لقد كانت هذه دائماً غاية المؤمن ومنتهى رغباته تقول رابعة العدوية "إن المعرفة الحقة هي التي تتخذ موضوعها الأسمى من الذات الالهية كما أن المحبة الصادقة هي التي تتخذ غايتها القصوى من مشاهدة الحقيقة العالية ، بحيث يقيم الرب قلب العبد بين ضياء معرفته ، ويذيقه طعم محبته "44 ورابعة وهي ساجدة كانت تقول " سيدي بك تقرب المتقربون في الخلوات لعظمتك سبحت الحيتان في بحار الزفرات ولجلال قدسك تصافقت الأمواج

44 رابعة العدوية . تأليف شرقاوي محمود . ص ١١٤

المتلاطمات .. أنت الذي يسجد لك سواد الليل وضوء النهار والفلك الدوار والبحر الزخار والقمر النوار والنجم الزهار وكل شيء عندك بمقدار لأنك الله العلي القهار . لقد فنيت رابعة في غاية واحدة هي حب الله جل جلاله ... فنيت في التطلع إلى أعلى ماتنشده القلوب الكبيرة والأرواح الملهمة رؤية الله سبحانه وهي أعظم نعمة يضيفها رب الوجود على عبد من عبيده .."45 وليس لأحد في هذا الوجود أن يسمي نفسه " الله " ولن تجد أحد يفعل ذلك لأنه متفرد بذلك و يقول أيضاَ عن نفسه{ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا }سورة مريم (آية 46). والله تعالى دائماً قريب من أرواحنا ولانحتاج لندرك ذلك لجهد كبير، يكفي أن نكون في هدوء تام ونتسلح بالصمت والعزلة والإبتعاد عن ضجيج هذا العالم والجلوس في خلوه مع الله وسنجد أن الله مطلق الوجود وكل مايحيط بك يدلك عليه وهذا تدركه بقلبك الذي تتكون فيه مضغة الإيمان...

إن هناك دائماً مايدفعنا في أعماقنا للجوء إلى الله ،،أليس التحرر الكامل هو التحرر من الزمان والعقل والموت .! أي أن تتحر من الزمان فتوقن بأنك نفخة مخلوقة من روح الله وعلى هذا فلن يكون في هذا الواقع المادي (الزمان

45 المتصوفة الزهده رابعه العدوية .. رشيد سليم الجراح ص ٩٢

46 سورة مريم آية ٦٥

والمكان) الذي تعيش فيه ارتباط بروحك سوى ارتباط مؤقت تموت النفس فيه الميتة الأولى فقط وتنتقل للعالم الآخر عالم الحقيقة المطلقة الأزلية ، والتحرر الثاني هو التحرر من العقل عندما يبلغ أعلى مراتب نضوجه فإنه ـ أي العقل ـ قادراً على أن يكشف عجزه بنفسه ، أي أنه يحرر نفسه من نفسه وبنفسه ، وهذا التحرر يحررنا من العقلانية الوثنية ـ كما هي عند عباد العقل من فلاسفة فرنسا ـ على كل هذا الوجود والجزء الأخير هو التحرر هو الموت أي أن الموت لايكون في نظرك سوى مرحلة انتقال من عالم إلى عالم آخر وتنزع من صدرك كل هذا القلق والهم والحزن والارتباك ، ويكون كل همك وشغلك وغايتك هي حب و رضا الله عنك فقط وكل ماسوى ذلك لا أهمية له كما قال الحلاج .

فَلَيتَكَ تَحلو وَالحَياةُ مَريرَةٌ

وَلَيتَكَ تَرضى وَالأَنامُ غِضابُ

وَلَيتَ الَّذي بَيني وَبَينَكَ عامِرٌ

وَبَيني وَبَينَ العالَمينَ خَرابُ

إِذا نِلتُ مِنكَ الوُدَّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ

وَكُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابِ47

47 ديوان الحلاج .، ويليه أخباره وطواسينه ص ٨٢

أو كما قال الإمام الشافعي الفقيه الشاعر رحمه الله :

يا من يرى ما في الضمير ويسمع

أنت المعد لكل ما يتوق

يا من يرجى للشدائد كلها

يا من إليه المشتكى والمفزع

يا من خزائن ملكه في قول كن

امنن فإنّ الخير عندك أجمع

مالي سوى فقري إليك وسيلة

بالافتقار إليك فقري أدفع

مالي سوى قرعي لبابك حيلة

ولئن رددت فأيّ بابٍ أقرعُ ...48

وكل بواحث الحزن والهم والألم هو ابتعاد وتغرب (للروح) و حنين عميق داخل الذات لعالمها الأول ، وهذا الحنين أو الشوق كما يقول بعض المفسرين لمنزلها الأول الذي خرجت منه 49وكل ملهيات العالم لا تفعل أكثر من دور المسكن و المؤقت للروح التي هي في الحقيقة تتوق للمكان الذي خرجت منه، كما يشبه ابن الرومي روح الإنسان بالناي (المزمار) الذي قطع من الغاب ويبقى هذا الناي

48 تنسب للأمام الشافعي عند الكثير من طلبة العلم ولم أجدها في دوان الشافعي في شرح وضبط ايمان البقاعي .

49 الجنة

يأن حتى يعود للغاب الذي قطع منه ... ولهذا تجد أن لذة الحياة ... عند جهابذة العقول في كل عصر هي في داخلهم وليست في عالمهم الخارجي بل إن جنتهم الداخلية وتأملاتهم العقلية هي المكان الذي يكره الخروج منه ، وليس في العالم الخارجي الذي يتسابق عليه عامة الناس من الدهماء... يقول ابن تيمية بعد حبسه والتضييق عليه : " ماذا يصنع أعدائي بي ؟ جنتي في صدري ، لايستطيعون أن ينتزعوها مني ، فإن نفوني فنفيي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوه ، و إن قتلوني فقتلي شهادة "50 وهذه المنزلة من الطمأنينة يشعر بها من يكون قريباً من الله وهذه الجنة في قلبه عامرة ومن يكون قلبه لله تماماً لا يشعر بوحشة أبداً و أسأل الله أن يرزقنا هذا ، بل إن الابتعاد عن الله هو ابتعاد عن الحرية بمعنى أن يكون الإنسان عزيزاً عن الحاجة للآخرين و باحثاً عن الكرامة ، أي أن يكون الإنسان ذات كرامة وعزة ، وهذا هو أصل الحرية في المفهوم العربي، وليس بالمفهوم السياسي الغربي ، عزيزا حراً من الحاجة لأي أحد، و عند ابن تيمية الحرية تكون من التحرر عن ما سوى الله فهو يقول " كلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية وحرية عما سواه ، وكلما ازداد له عبودية ، ازداد له حباً وحرية ... ولن يخلص من آلام الدنيا

50 الوابل الصيب من الكلم الطيب . ابن القيم ص ٦٩

ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول وكل ما سواه إنما يحبه لأجله لا يحب شيئا لذاته إلا لله ...ولا يمكن أن يكون العبد محباً لله والله تعالى غير محب له بل بقدر محبه العبد لربه يكون حب الله له "51 لأن أمله وحبه وعمله وغاياته في هذه الحياة هي رؤية الله التي هي ذروة سعادته في الآخرة يقول ابن حزم " نجد المقر بالرؤية لله شديد الحنين إليه. عظيم النزوع نحوه"52 .

و الإنسان و حنينه للسماء لايفارقه وهذه الروح هي أنشودة الخلود التي لاتعرف الموت وهي في قلق دائم حتى تعود لعالمها الأول الذي خرجت عنه ومنه ، و هي تضيق بالجسد وتتوق لعالم آخر أجمل وأفضل وأكمل .، ونلاحظ تلك التعبيرات يتم تجسيدها بالإيمان ، و بالشعرو بالأنين و بالدموع وفي كثير من الأحيان بالصمت ، وهي مشاعر كامنة في عمق الإنسان ، فهناك شعور جامح للحرية، وتبدأ قيود الحرية بقيود الجسد ذاته من الطفوله حتى الشيخوخه ، لأن الجسد يقيد الروح عن الانطلاق ، وعندما ينظر الإنسان عالياً ويرى طائراً يحلق بحرية فإن الغبطة والحسد ينتشران فيه لان جسده يعجز عن هذا الفعل ، وعندما يرى كائناً أقوى

51 العبودية . تقي الدين احمد ابن تيمية . دار ابن حزم .ص ١٦٧ . ص ١٦٨ ص ١٩٤

52 الاخلاق والسير . أبن حزم الانزلسي . تحقيق ايفا رياض . ص ١٣٠

منه يغبطه ويحسده لأن جسده يعجز عن هذا الفعل أيضاً ، لقد كان صراع الإنسان الحداثي في سيطرته على الطبيعة وتوظيفها لصالحه لغايات نفسية ليعالج مايعجز عن فعله بجسده، فكل منتج ينتجه هو امتداد لسد عجز جسده . أليست الطيارة عبارة عن أجنحة لم تخلق للإنسان و أليست السيارة عبارة عن أقدام سريعة ليست للإنسان وأليست أدوات الحفر العملاقة هي امتداد لليد والساعد لم يرزق بها الإنسان أليست أدوات التقنية والحواسب الضخمة... ذات الذاكرة الضخمة والمساحات الكبيرة عبارة عن امتداد لعقل بشري عجز عن احتواء كل هذا الأشياء.

مع كل هذه الترسانات التقنية و الصناعية إلا أنه يبقى أسيراً حزيناً متألماً يأن ليلاً نهاراً ، وكل الملذات التي يمارسها تنتهي من الفرح للحزن وكأن الحزن هو الأصل في المشاعر ، وهو يشعر بالخلود و يشعر بالعقل الكلي المطلق لأن الروح تدرك هذا العقل الكلي المطلق[53] يشعر بقوة وقدرة كبيرة تهيمن على هذا الوجود في كل الثقافات على وجه الأرض لأن العقل البشري يسلم لهذا ، وأكثر شعور يجعله سعيداً هو مشاعر الحب ، نعم إن الحب يؤثر في سلوك الإنسان في جميع سنوات عمره ، هذا يعني أن هناك من يعتني بهذا المحبوب ويحيط به ويهتم لأمره ،

53 لا يقصد به عقل أكبر من العقل الإنساني بل يقصد به تدبير وإرادة مطلقة تتجاوز كل تصورات البشر ..

ولهذا فعلاقة الإنسان بالله تقوم في البدء على الحب **(قوم يحبهم ويحبونه)** وهذا الحب يقوم على العبادة والشوق إليه والانكسار له والحنين إليه والشكوى له والدعاء له وطلب المغفرة منه والعفو منه ،، إن الإنسان عندما تتغرب روحه على هذه الأرض يبحث عنها هو أسمى منها وأجمل وأفضل وهذا صفات الله تعالى والإنسان العاقل هو من يتمثل بصفات الله تعالى التي يحب أن يشاركه فيها عبده والإنسان الصالح يكره الظلم فيبحث عن العدل ويكره القبح فيبحث عن الجمال ويكره الباطل فيبحث عن الحق . وعندما يخطئ الإنسان ويسقطه الشيطان في الزلل والخطأ فإن هناك صوتاً يناديه من أعماقه وهو نابع من الضمير كما يحلوا تسميته عن بعض الثقافات وهو نابع من القلب كما يمكن تسميته في الثقافة الإسلامية و الذي يقول له لقد أخطأت ..! أو يقول له لقد كنت ظالماً...! أو قبيحا في هذا السلوك..! والإنسان الصالح ينصت لهذا الصوت أما الإنسان الفاسد فإنه يتجاهله و يهرب من (هذا الصوت الإلهي) بمحاولة تبرير أفعاله فيقوم بتبرير كل تلك الأفعال الحمقاء التي قام بفعلها حتى يخفف من هذا الصوت الداخلي القاسي عليه ، وهذا مايفعله كل شخص لا أخلاقي على هذه الأرض، ويمارسه حتى نخبة من صناع الكلام في كل الثقافات الذي يسمون النخبة المثقفة .! إنهم يبررون بذكاء فساد أفعالهم وسلوكهم. و ما يفعله **الإنسان الأخلاقي**

يكون مغاير لذلك فهم يهذبون أنفسهم لأنهم يعرفون أن الشيطان في الداخل .! وعندما يدركون حجم الحماقة التي ارتكبوها ويستجيبون لهذا الصوت في الداخل، صوت أفعل ولا تفعل هذا الصوت الذي يرى الفيلسوف كانط بأنه صوت الضمير الذي هو نداء سماوي مفارق للطبيعة لأن جوهر هذه الأخلاق والقاعدة المركزية لها هو الله ، وليس هذا فقط بل سنجد أن شعورنا بالله وهو معنا ونحن في معيته في كل شي في هذا الوجود ، في الأخلاق والجمال والخير والحرية ومما يروقني في هذا ذلك الترابط النابه الغير مسبوق الذي قام به العقاد بين الحرية والجمال فجل النفس تنشرح وتسعد وتبتهج عندما ترى شلالاً جميلاً ينهمر بحرية أو نهراً يتدفق أو جدولاً ينساب ، فربط بين الحرية والجمال ربط في غاية الجمال،54 وكأن هذه الروح ترى من خلال الحرية الجمال ذاته وفيه ، أليس الجمال كله من الله والحق كله من الله والخير كله من الله فلماذا لا تتوق روح الإنسان إلى الله . و لماذا لاتشتاق إليه وتطلب القرب منه عندما تفارق الروح الجسد ينزل ملائكة بيض الوجوه كأنهم الشمس يأخذون هذه الروح الطيبة55

54 يقد بالجمال هنا سؤال فلسفي قديم مالذي يجعل الجميل جميلاً .؟و لايقصد بالجمال هنا صورة عارضات الأزياء والمطربات التي تقدمها شركات تجازة الجنس في كل مكان لأن هذا القوالب الجسدية الغربية منتج وفق نماذج الذوق الرأسمالي الغربي وبعقول زمبريالية وتفرض على العالم من خلال الإعلام بآيدلوجيا موحده .

55 التخريج : مسند أحمد مخرجا (30/ 499)

ويصعدون بها للسماء هناك بعيداً عن تلك الأرض الملطخة بالقبح والذنوب والظلم و الفساد ...إلخ .

وقبل أن تفارق الروح الجسد كان لابد أن أعبر عن هذا الأنين للروح هذا الأنين الذي لايفارقها ليل نهار ، ويزداد في كل هذه الأعوام الأخيرة رغم تطور التقنيات والأجهزة الذكية و الملهيات والمشغلات التي لاتنفك عنا، إلا أن الاغتراب يغزونا مع زيادة هذه الملهيات فيسرق عن شفاهنا ابتساماتنا البريئة، ويغير سعادتنا لتعاسة وملل ، ورغم توفر كل مايدعو للبهجة ويبعد عنا الهم والغم ويفترض أن يزيد فينا السرور، وعندما نفتش في هذا الهم تفتيشاً صادقاً لانكاد نعثر على سبب واضح له .

من أين أتى هذا الهم ؟

أننا لانعلم ما سببه .! ندعي فقط أن الهم كان سببه كذا وكذا ... و في الحقيقة ليست ـ كل هذه الأسباب ـ هي المحرك الفاعل لهذا الهم والحزن والقلق قال ابن حزم "تطلبت غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه فلم أجده إلا واحداً، وهو طرد الهم ، فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم هممهم وإراداتهم لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعانون به

إزاحته عن أنفسهم. فمن مخطئ وجه سبيله، ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب، وهو الأقل من الناس في الأقل من أموره، والله اعلم"56 وهو يأتي فجأة بدون مقدمات ... ويهاجمنا بغتة دون أذن ، و يعرض علينا هم عارض أو حاجة في النفس أو أماني تجلب الهم (وطر) كما يقول شوقي :

وطرتعلق في الفؤاد وينقضي

والنفس ماضية مع الأوطاري

و التفكير في المستقبل يجلب الهم والتفكير في الماضي يجلب الحزن فإن الهم قد يكون من المستقبل فقط ، يبين الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم عندما كان الإنسان في الذر (عالم الميثاق) أنه قد أشهده على نفسه بربوبيته وتوحيده وتمت الحجة عليه ولهذا يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ وفي هذه الآية يقول سعيد بن جبير " إنا كنا غافلين عن الميثاق الذي أخذه عليهم ـ وأبي بن كعب يصف هذه الآية بقول ـ ثم أستنطقهم وأخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا

56 رسائل ابن حزم - فصل في مداواة النفوس . ص336 -

أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين... أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم، أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئا وسأرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدي وميثاقي وسأنزل عليكم كتبي .! قالوا شهدنا أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ..."57 إن هذا الميثاق هو شعور لايفارق الإنسان ومسؤلية الأمانة تجاه نفسه وتجاه الوجود وقسوة القلب تكون من نقض الميثاق يقوال الله عن من نقضوا هذا الميثاق: { **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ**} وكان ابن عقيل يعلق على هذه الآية بقول : " يامن يجد في قلبه قسوة ...احذر أن تكون نقضت عهداً ..."58 و على هذا الميثاق أسس الفيلسوف طه عبدالرحمن نظريته الائتمانية العبقرية عليها 59أسأل الله أن لانكون من من ينقض العهد بعد أن يتملكنا الضعف فنحن من " طين كما يقول أحدهم " يوجعنا الأذى ويجرحنا صغير الشوك ويجبرنا لطف الله " ولنا شهوات ولسنا معصومين

57 أصحاب الوعد الضائع . خبر الثلاثة تأليف د بسيوني الخولي . ص ٤٥

58 طبقات الحنابلة . ج ٣ ص ١٣٣ لأبن رجب الحنبلي

59 (تقوم نظرية الفيلسوف طه عبدالرحمن على ميثاق نشأ بين الإنسان وربه في عالم الغيب ويستمر هذا الميثاق من خلال العلاقة الائتمانية أفي الدنيا (عالم الشهادة) ي أن نقض هذا الميثاق هو خيانة من الإنسان لخالقة وهو نموذج للشر المطلق ...).

فلسنا ملائكة مخلوقين من النور لانعرف سوى الطاعة وطريق العبادة فنحن وللأسف ـ نقول الخطأ ونضن أننا نقول الصواب ـ وليس بوسعنا أن يكون هؤلاء الملائكة قدوة لنا والحل لنا الاقتداء بالرسول وسير في منهج أهل الصلاح والحق ، و العودة لله تعالى بصدق مهما كانت همومنا ومشاكلنا وأخطاؤنا وذنوبنا ، طالما أن القلب يعمل والروح متحققة في الجسد وتعي وجودها فإن الله يقبل منا كل شيء ، وكم يعجبني والله دعاء الحسين رضي الله عنه و له في قلبي لذة لايعلمها إلا الله حيث يقول : "...ماذا وجد من فقدك ؟ !وما الذي فقد من وجدك ؟ !لقد خاب من رضي دونك بدلا " فعلاً ماذا وجد من فقدك؟ إن كل فكرة أو قول ـ لا تنتهي بك إلى الله ـ فإنها ـ في نهاية المطاف ـ لايستقيم لك فيها حال ولا يقرلك فيها قرار، وسيحل فيها سرطان النسبية والشك وتصبح وتمسي على الاضطراب و القلق والتوتر، يقول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل... إن كل شيء يخلوا من الله يتلاشى منه المعني ويفقد مع الزمن مبررات وجوده ومزاعمه ، يكفي أن تأخذ جولة كبيرة في دائرة الأفكار الفلسفية لتعلم أن كل فلسفة تقوم على العدم لاتنتج شيئاً يذكر وأن (العبودية لله) هي عماد البناء الأخلاقي وجوهره في نهاية المطاف وأن الدولة المدنية هي ذاتها مستحلة الوجود دون هذا البناء

الأخلاقي التشاركي بين البشر ،60 ونظرية الصواب والخطأ هي أصل القانون الذي تقوم عليه الأمم،61 و عند علماء الاجتماع والاتصال وأكبر فلاسفتها هابرماس نجد الدين عنصراً فاعلاً في السلوك البشري هذا الدين (الاوعي الجمعي عند يونغ) وحده هو من ينقذ الإنسان من العدم والفناء ، ذلك أن غيابه يعني فقدان المرجعية التي يقف عليها الإنسان و تحول كما قال أحدهم (الحق إلى قوة)62 وفقدان المعنى من الحياة و الإنتحار والكآبة والأمراض النفسية... و الإيمان بأسمى تجالياته هو سكينة وهدوء وطمأنينة ، و الدين63 يجب أن يقوم على إله خالق متفرد بالعبادة ، والإيمان غذاء للروح كما هو غذاء البدن الطعام ، وعندما يتفرغ الإنسان من غذاء الروح سيكون في نهاية المطاف فارغاً من كل قيمة متعالية ومتسامية، لقد كان الحب الإلهي هو الحياة الروحية للمسلم، و في

---

60 يقول جون لوك صراحة" *إن حالة الطبيعة لها قانون طبيعي يحكمها، وهو ملزم للجميع؛ والعقل، الذي هو ذلك القانون، يعلم البشرية جمعاء... أن كونهم جميعاً* ***صنعة خالق واحد كلي القدرة وحكيم لا يدرك*** *...فهم ملكه، وصنعته، وقد وجدوا ليبقى وجودهم وفقاً لمشيئته*.."" **رسالتان في الحكم المدني" الفصل الثاني (عن حالة الطبيعة): في الفقرة السادسة (Section 6)**

61 "مكن العودة لكتاب كانط المُنظّر الفلسفي الذي وضع الحجر الأساس لفكرة الأمم المتحدة، وتحديداً من خلال كتابه الشهير "مشروع للسلام الدائم" (Perpetual Peace) الصادر عام 1795".

62 انظر لمشروع نيشه الفلسفي (إدراة القوة ...(

63 المسلمين يعتبرون أن الدين عند الله الإسلام ... وهذا وفق بعض الفقهاء المجددون " لا يمنع حق الاخرين في الأختلاف في اديانهم وثقافاتهم و احترام الأديان في الإسلام وعدم سب الأديان ليس مجرد "تسامح" اختياري، بل هو واجب ديني يستند إلى أصول العقيدة الإسلامية وفقه المقاصد... يقول تعالى : {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 108]

جانبها التصوفي يصف ذلك زين العابدين عليه السلام قائلاً : " اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي حبا لك ، وخشية منك ، وتصديقا لك ، وإيمانا بك ، وفرقا منك ، وشوقا إليك ..."64 وهكذا قالت رابعة العدوية

وكـنت أناجيــك يــا من تــرى

خـفـايـا الـقـلـوب ولسـنـا نـراك

أحبــك حـبـيـن حـب الهـــوى

وحـبـــا لأنـــك أهـــل لـــذاك

فــأما الــذي هــو حب الهـــوى

فشـغـلـي بـذكـرك عـمـن سـواك

وأمـــا الـــذي أنـــت أهـل لـــه

فكـشـفـك للـحـجـب حـتـى أراك65

وكيف يمتلأ قلب بالسكينة وهو مشغول "بالجدلية المادية"66 نجد مفهوم الاغتراب ينتشر في كل ميادين الفكر في العصور الحديثة ونلاحظ أن هناك فلسفات

64 إقبال الأعمال ص ٣٤٩ .. ص ٧٥

65 فلسفة الحب الإلهي محمد المنشاوي . الفصل الثامن

66 المادية الجدلية فلسفة غربية نشأت مع ماركس تعتبر الواقع المادي هو الحقيقة الحتمية للتغيير الإنساني ، وتقصى كل فكرة مثالية متافيزيقية عن هذا الواقع بل وتعتبر الواقع المادي هو المنتج للوعي والعقل وليس العكس .

مقاومة لهذا الاغتراب العدمي ، فهناك صوتاً خفياً تنشد الإله داخل هذه الأطروحات الفلسفية حتى وإن لم يعبر صاحب هذه النظريات بذلك ، فهذا روسو في تنازل الإنسان الحر عن حقه في الحرية من أجل العقد الاجتماعي ، وعند هيغل في ظاهريات الروح (الروح المطلق) وغوستاف يونغ في البحث في أغوار النفس ... وأخيراً أيرك فروم الذي يتمدد عنده مفهوم الاغتراب في كل أعماله تقريباً ويقول عن ذلك :" الإنسان الحديث ... يعبد ماصنعه وينحني لأصنام جديدة ومع ذلك يقسم بالله الذي أمره أن يحطم كل الأصنام ...إن هذا الإنسان تخلق له أوثان ـ يقصد منتجات العالم الصناعي ـ ويطلب منه أن يسجد لها ، الخضوع للصنم هو جوهر الاغتراب "67 ولا ينفك فروم من مهاجمة مفاهيم الاستهلاك الشرهة التي حولت المستهلك لعبد تماماً فجعلت الانسان الحديث يعاني من التسليع والتشيؤ68 الذي يطغى ويتمدد بين البشر، ومفهوم الاغتراب هنا يعني أن التملك هو من يسد هذا الاغتراب وفق الرؤية الرأسمالية وهو غاية الغايات وجوهر السعادة كما يروج ويظن ذلك المستهلك في هذا العصر .!

67 الوضع البشري المعاصر . آريك فروم ١٨

68 هو مفهوم كتب عنه جورج لوكاش مفكر ماركسي مجري يقصد به بختصار أن تتحول كينونة الإنسان لشيء لا تتجاوز الأشياء المحيطه به ، يقرأ الإنسان في اطار الأشياء كما يقرأ الكرسي والباب والطاولة والشجرة والصخرة ...إلخ

عندما أملك فأنا موجود وعندما لا أملك فأنا غير موجود[69]...وهذا يفضي إلى تمزق روحي تماماً عند الإنسان الحديث ، وهنا نلاحظ **أن الإسلام يختلف جذرياً عن هذه الرؤية فهو ينفي أن يكون الإنسان مفرغاً من الغاية، بل يؤكد على أن الإنسان في هذه الأرض مؤتمن على كل شيء محيط به، ومحمل بالمسؤولية تماماً تجاة نفسه وتجاه الطبيعة ، وغاية وجوده هي لعبادة الله و عمران الأرض** ، وهذه العبادة تكون محبة لله والشوق إليه ورجائه والخوف من غضبه ، والوعد بالسعادة المطلقة التي لا ضجر فيها ستكون في أول قدم يضعها في الجنة ، ولا يعني هذا أن الإنسان لايكون سعيداً في الدنيا بل قد يكون سعيدًا مطمئناً مبتهجاً ، لكن الدنيا بطبيعتها لا تتركه من المنغصات وتلك السعادة المطلقة التي يتوق لها تكون فقط في العالم الآخر ، ويمكننا أن نتأمل في يد رسول الله ﷺ الشريفة وهي تمسك منكب عبدالله بن عمر ويقول له { كن كأنك في الدنيا غريب أو عابر سبيل }[70] يشرح بعض المفسرين ذلك بقول " لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً ..." ووطناً هنا تعني مفهوم (الخلود للأرض.!) و الإطمئنان لها يجعل الإنسان يتوق لخلود الجسد والشغف

69 هذا إذا استعرنا عبارة ديكارت انا أفكر أذن أنا موجود ..

70 التخريج : أخرجه البخاري (6416)

في صيانته وحفضة والحرص عليه ضناً منه أن الخلود لا يكون إلا للجسد ..! صحيح أن الدنيا كما يقول الفقهاء " عبادة ومعاملة، والدنيا فيه مزرعة الآخرة.". لكن فكرة الخلود لا تكون إلا للروح فهي تنتشر بين أكثر الثقافات والأديان في العالم وهذا لايقتصر على الأديان الإبراهيمية بل ينتشر الأمر حتى داخل الأديان الوثنية(رغم بطلانها وفساد تصورها) فتجد فكرة تناسخ الأرواح وغيرها من أفكار الخلود وكأن هناك اتفاق جماعي بحقيقة خلود الروح ، والكلام في هذا متعدد ومتشعب، يقول صاحب كتاب الفلسفة الخالدة " تجعل الربوبية والفضيلة الناس يعرفون خلودهم ويحبونه ويؤمنون فيه ويبتهجون به . عندما تتطهر النفس وتستنير عن طريق ورع حقيقي تصبح أكثر جدارة بذلك الإشعاع الإلهي ، وتشعر بنفسها من خلاله مقترنة بالرب . تعرف أن حبه عز وجل الذي تحيا به أقوى من الموت ، تعرف أن الرب لن يضيع حياته أبداً التي بثها في النفس . تلك الأنفس وذلك اللهاث يعد مشاركة أزلية من لدنه ، ليست إلا طاقة نفسه في داخلنا"[71] هذا الشعور المنتشر في الثقافات يعطينا فكرة مهمة أن هذه الروح لها حنين لاينضب لله سواءً عبر الإنسان بذلك أم لم يعبر ، سلم

71 الفلسفة الخالدة . ألدوس هكسي . هذه العبارة لجون سميث ، الأفلاطوني كما يذكر المؤلف ، ص ٣٧٥ ، ونحن لا ننقل هذا النقل نقل موافق بالمطلق بل نقل استشهاد بهذا النزعه الغريزية في أعماق الذات البشرية وشعورها الصادق بخلود النفس.

بذلك أم تكبر على ذلك أقر بذلك أم أنكر ذلك ،، **وطالما أن روح الإنسان تعاني من اغتراب روحي وطالما أن روح الإنسان تتوق لعالم أفضل و طالماً أن الموت هو الحقيقة الحتمية للكائن البشري وغيره من الكائنات فإن الحقيقة الإلهية للإنسان التي يجب أن يسلم لها أن يكون في ظل الله وفي معيته** ، ويجد أن الهروب الصادق والفرار من ضجيج هذا العالم يكون لله ولهذا نلاحظ الزهاد والعباد يتلذذون بصلاتهم وعبادتهم ولا يتحقق وجودهم إلا بالعبودية لله تعالى وأن يكون حبهم لله فوق كل حب وأعلى من كل حب . واشتغالهم بعلاقتهم مع الله بهذا الكمال الأسمى أهم من اشتغالهم بأي علاقة أخرى وحبهم له هو الباحث الذي يجعلهم يصبرون على الحياة بعجرها وبجرها ويرون فيها لوحة فنية أبدعها الله مع كل مافيها من مآسي وآلام وحروب وكوارث ومصائب ومقاومة ذلك لا تكون إلا بالصبر يقول أبو العتاهية.

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه

فما فاته منها فليس بضائرِ

إِذا أَنتَ لَم تُؤثِر رِضى اللهِ وَحدَهُ

عَلى كُلِّ ما تَهوى فَلَستَ بِصابِرِ

إلا أن الله دائماً يحف عبادة باللطف والحب وهذا هو الهواء الذي يتنفسه من رزقهم الله لذة العبودية وصدق التسليم، تخيل معي هذا الموقف : امرأة يموت ابنها فتقول للناس لاتخبروا أبا طلحة حتى أكون أنا أخبره ... يأتي زوجها من سفر شاق و مرهق وبعد أن حط رحاله في بيته، فتقوم زوجته الصالحة بتجهيز العشاء له، ثم تتزين لزوجها بأجمل ماتتزين به الأنثى لزوجها وبعد أن يأكل ويشبع ويجامعها وينام تلك الليلة هادئاً ساكناً مطمئناً ... تأتي إليه وتقول له بكل أدب بعد الفجر في اليوم التالي: " يا أبا طلحة إن آل فلان استعاروا من آل فلان عارية ، فبعثوا إليهم أن ابعثوا إلينا بعاريتنا ، فأبوا أن يردوها

فقال أبو طلحة : ليس لهم ذلك إن العارية مؤداة إلى أهلها.

فقالت : فإن ابنك كان عارية من الله وإن الله قد قبضه فاسترجع ..

فذهب أبو طلحة فأخبر النبي فقال : بارك الله لكما في ليلتكما "

هذه هي الصحابية أم سليم التي كانت تحب الرسول حباً كبيراً جداً خطبها أبو طلحة فاشترطت عليه الإسلام فقبل وكانت تعرف بالحكمة والصبر و كانت تشارك في معالجة الجرحى المسلمين في المعارك و قال عنها الرسول : "

رأيتني دخلت الجنة ، فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة ..."72 .

و يا لهذا الإيمان الذي رزق الله به أم سليم رضي الله عنها ويا لهذا التصديق الكبير الذي رزقها الله به ، يموت فتغطيه وتحجبه عن زوجها حتى يعود ويفعل مايفعل وبعد أن يبدأ يومه من جديد تخبره بكل حكمة ولطف، وكما قال ابن أبي الدنيا: " من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وغمومها "73 وفي الموت يبرز الحكماء والعقلاء ويكون هو محك الحكمة الحقيقي يقول الحكيم والصحابي الأحنف بن قيس بأنه تعلم الحلم من " قيس بن عاصم المنقري74 رأيته قاعداً بفناء بيته، محتبياً بحمائل سيفه، يحدث قومه إذا أتي برجل مكتوف، ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك، **فوالله ما حل حبوته، ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه، فقال يا ابن أخي بئس ما فعلت أثمت بربك، ورميت نفسك بسهمك، وأشمت عدوك، ونقصت عهدك، قتلت ابن عمك. ثم قال لابن له آخر: قم**

72 جام تراجم ومسانيد الصحابيات المبايعات . سيد كسروي حسن . ج ٢ ص ٤٥٨ ... وكذلك مسند الأمام أحمد . مسند أنس بن مالك ص ٣٧٢ المجلد الثالث

73 الموسوعى الكبرى لاطراف الحديث النبوي الشريف . ص ١١٨

74 صحابي جليل ومن سادات العرب وأشرافهم وهو الذي قدم على الرسول فأكرمه وقال فيه " هذا سيد أهل الوبر " كان معروفاً بالكرم والشجاعة ويعتبر أول من وأد البنات قبل اسلامه خوفاً على بناته أن يأخذهم وجاء للنبي وقال له بأنه قد وأد بناته فقال له " فأنحر عن كل واحدة بدنة " وينقل ذلك قتادة ..

يا بني فوار أخاك، وحل كتاف ابن عمك، وسق إلى أمه مئة من الإبل دية ابنها، فإنها غريبة ... ثم أنشد:

من منقر في بيت مكرمة ...

والغصن ينبت حوله الغصن

خطباء حين يقول قائلهم ...

بيض الوجوه أعفة لسن

لا يفطنون لعيب جارهم ...

وهم لحفظ جواره فطن "75

وقد أخذني هذا لسبب رئيس وهو أنهم ليسوا مشغولين بلذات الحياة اليومية، بل مشغولين بالتفكير في الله دائماً وأبداً يصبرون بصدق وعزم و يرون جمال هذا الإبداع الإلهي في كل شي محيط بهم ومسلمين لله تلسيماً في كل قضايا الوجود إن الله لايفارقهم في ليلهم ونهارهم وفي عقولهم ووجدانهم .

ولا يرون في الموت ذاته إلا إرادة الله وقراره وحكمته التي لا نعلم منها إلا القليل ويغيب عنا **الكثير فالروح نفخه من روح الله وهي في طريها للرجوع إلى الله خرجت للوجود مع الميلاد وتعود لله بعد الممات** ولهذا ينسى بعض

75 كتاب نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار . ص ١٠٩

البشر الله فينسون أنفسهم تماماً بعد نسيانه ، ونسيان الله قلب الإلحاد وعماده لأنك لم تترك الكبرياء ، تعترف بضعفك أمام الذات الإلهية بالدعاء والصلاة والحب والطاعة والصوم بل قد تبدو للبعض ممن نسى الله ومارس ما يسمى اليوم (بالإلحاد العملي) لأن الإنسان المعاصر الصناعي عامة يمارس العقل الأداتي في رؤيته لكل شيء ، منمط ومحدود ومقيد لايرى سوى الربح والخسارة والمنفعة المادية والمصلحة ، وأفقه الذي يسير فيه هو ذلك الأفق المادي ونماذجه التفسيريه نماذج مادية فقط ، لأن الحياة في نظره تقوم على نفعية مادية محضة وذرائعيه حتى وإن لم يصرح بذلك البعض ، فإنه يقرها ممارسة وسلوكاً ...

ويمكنك قراءة ذلك في أفعالهم يقول أحد فلاسفة المنطق " نحن لسنا مانقول .! نحن مانفعل " أي أننا مانفعل في عاداتنا اليوميه وليس مانقوله ونعبر به فإن كان واقع غاياتنا مادية محضة ورؤيتنا للوجود رؤية مادية لا ترى سوى الربح والخسارة في كل شيء، فلايمكن أن يقال عن هذا بأنه يسلم لما وراء المادة بل أن عبودية المادة تتملك روحه وقلبه ، و الإنسان الحر ـ وهم قلة ـ يحب الحرية والحرية تعني الحرية من كل شيء إلا من الله ، و غير متحققة إلا لله وحده يقول تعالى : { لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ

وَهُمْ يُسْأَلُونَ } يشرح الضحاك بن مزاحم -من طريق عبيد- في قوله: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾، قال: لا يُسأل الخالق عما يقضي في خلقه، والخلق مسؤولون عن أعمالهم.76 وكل من أراد أن ينحرف عن هذا فهو يعبد إما هواه (نفسه) أو المادة أو السلطة أو الطبيعة أو المجتمع أو الشهرة أو المال أو الجنس أو الأفكار أو النظريات التي يقول بها أو المذهب الفلسفي الذي ارتضاه لنفسه ...إلخ فالإنسان مهيأ ومعد ومجهز نفسياً للإذعان لنموذج أعلى يفسر له كل هذا الوجود.

الحياة لوحة فنية أبدعها الخالق ...

الله هو الجمال المطلق والإنسان يحب الخير لان الله هو الخير المطلق وكذلك يحب الحق والله هو الحق المطلق ...وكل هذه الصفات وأكثر يتوق لها المؤمن في حياتها كاملة وتكون العبادة ارتباط وجداني وسلوكي وإيماني صادق مع هذا الخالق ويرى بديع جماله في كل هذا الوجود المحيط به وتكون رحلة الحياة منذ طفولته إلى موته شغف روحي لاختراق أبواب السماء بالدعاء والتأمل والصلاة ...

76 أخرجه ابن جرير ٢٤٧/١٦. وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

كان العقاد ينتقد بشدة تلك النظرة التشاؤمية للحياة والتي تشبة نظرة أبي العلا المعري والتي يشبه المعري الحياة فيها بذلك الإغراء كاذب الذي يعاني منه الإنسان منذ ولادته حتى موته، ويعلق العقاد رداً على هذه الرؤية : " فلنشبه الحياة تشبيهاً آخر فنخال أنها صورة صورها عبقري مبدع في فنه 77 ...فهل نحن مصيبون حين ننقدها ونقدرها ...وإذا أخذنا في سبر حقائق الحياة بسمبار المعري فأي باطل أبطل من المجد وأي ضلال أضل من حب النسل ؟ كل ما هنالك وهم يتبعه وهم، وحلم تفيق منه على حلم، وأشواط تبدأ وتعاد واجتهاد لا يؤدي إلى عناء اجتهاد "78 ويوضح آرائه بقول " الحق أنه يجب أن يساء الظن بكل فلسفة ترفض ما يسمونه أباطيل الحياة رفضاً باتاً ... والخلاص كل الخلاص من ضلالاتها وأوهامها ... فلا يغتبطن أحد بسلامته كل السلامة من غرور هذه الإنسانية ولا يحسبن ذلك فخراً وفضلاً فإن السلامة التامة من غرورها لايكون إلا بالخلو التام من كمالاتها وفضائلها ولا خيار للإنسان في هذه الأمر ولا سبيل إلى ازدراد الحلوى التي تثمره الحياة دون بزورها فإما حياة بزورها وحلوها وإما لاحياة على أن البزور هي بيت القصيد في

77 مطالعات في الكتب والحياة . عباس محمود العقاد ص ٧٤

78 نفس المصدر السابق ص ٧٥

معظم الأحوال لأنها هي الجرثومة التي تنبت منها الحلوى وتنمو وتنتقل من زمان إلى زمان ولو لم يختلط بعض الحياة ببعض هذا الاختلاط لما قاربنا غير حلوها السائغة ولذذنا الجرثومة المرة الخالدة فخسرنا خسراناً كبيراً"79 **وهذه الرؤية التفاؤلية هي مايجب أن تهيمن على ثقافة المؤمن لأن الإيمان يعيطك الشجاعة والإقدام ويكون هذا نابعاً من أعماق قلبك** ، و قد تظن أن هذا أمر بسيط ومفهوم لأن العقل اعتاد على تكرار المشاهد والأحداث ، وهذه الرؤية الرتيبة ـ رؤية المعري مثلاً ـ تقول لنا ليس هناك ماهو مدهش في هذه الحياة كل يوم جديد هو شبيه باليوم السابق .! فتموت دهشة الأشياء وجماليات الوجود حولنا ويتلاشى تقديرنا للنعم المحيطه بنا ..! ونبقى ننظر للأشياء البعيدة التي لم نحققها دون فعل جاد والحلم الذي نريد الوصول إليه يبقى حلماً ، وكأن السعادة كل السعادة ، هناك ـ لدى الآخرين ـ وليست هنا ، ورغم أن هذه الرؤية غير صحيحة البته فلوا تأملت معي يومك من بداية الفجر وتجلي خيوط الشمس الذهبية التي ترسل شعاعها إليك، وتكون الغيوم والسحب والألوان التي تزخرف السماء وأصوات العصافير تعزف حول أذنيك أجمل سمفونيات الصباح ورائحة القهوة التي تملأ الأجواء وتعطر نكهتها

79 نفس المصدر ص ٧٦

أرجاء المنزل، و هناك بعد أن قضيت فرضك وأديت كل واجباتك الإيمانية ، وقطعة الشوكلا البلجيكية الداكنة تنتظرك قرب كوب قهوتك الساخن ، وبجانبها كتاب يحوي الكثير من الأفكار التي تضعها في عقلك وتذوب في خيالك كما تذوق قطعة الشوكولا على لسانك، و تتراقص خلايا عقلك بالأفكار الجديدة وتشعر بنشوة فكرية ولذة فلسفية وإيمانية .

إن تأمل أدق تفاصيل حياتنا هو مايجعل منها قيمة حقيقة ، ولا أشك أن يومك فيه الكثير من التفاصيل والأحداث التي لايشاركها غيرك .

و ثق تماماً أن هذا اليوم لا يشبه أي يوم سابق ولا يتطابق مع أي يوم لاحق و منذ فجر التاريخ حتى هذه اللحظة لم يتطابق يومان في كل شيء أبداً .! كل يوم جديد عند العقلاء و كل علماء الطبيعيات والإنسانيات هو يوم جديد تماماً، جديد في كل شيء . أي مختلف عن سابقه بكل مافيه ، بل يذهب بعضهم شططاً في ذلك ليقول أن حياتك كلها في الحقيقة يوم واحد فقط ! مختلف الأحداث والموافق فقط ، هذا القول غريب الأطوار نوعاً ما، لكن عند البعض من العلماء هذه هي الحقيقة وعلى رأسهم أنشتاين حيث يقول لعائلته : " إن أمثالنا من المؤمنين بالفيزياء يعلمون أن التمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل ماهو إلا

محض وهم "80 هذا يعني ان ارتباطك بالزمان والمكان يكون ارتباطاً من خلال التشابه والتقارن في الزمان والمكان وهي قوانين أولية للذهن فنحن لا نفهم الزمن بشكل مباشر نحن نفهمه بمرور الأحداث والتفكير في الماضي وضبط ساعاتنا على دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وموقعها في هذا الفضاء ، والذي يعني أننا لو كنا بعيدون في شمس غير شمسنا ويحيط بنا دوران كواكب يختلف عن دوران كواكبنا ، فإن مانسمية يوم سيكون هناك سنة بأرقامنا التي نعرف، وهذا بديهي في معارفنا اليوم ..! لكن عند المتأمل فهذا يعني أن سعادتنا قد تتلاشى في حاضرنا ، بسبب أننا لانعيش الزمن الذي نحن فيه الآن (اللحظة الآنية) فمن خلالها هذه اللحظة التي نعيش فيها نحزن على الماضي ونقلق من المستقبل وتختفي تماماً هذه (اللحظة الآنية) 81فكل شيء يتدفق بشكل لانهائي وسوف يستمر شئنا ذلك أم أبينا وكأننا مسافرين في محطة قطار نصعد فيه لدقائق وساعات محدودة ثم ننزل ويركب فيه آخرون فإذا (أدركنا أن الموت وشيكاً فيجب أن ننجز

80 مجلة الفيلسوف الجديد . العدد ٢ عن الزمن لهيو برايس ص ٩٤

81 البعض يرى أن اللحظة الآنية في الأصل غير متحققة فليس هناك سوى ماضي وحاضر وحتى وأنا أكتب هذه العبارة فإن ماحدث مع أولها هو ماضي كتبتة قبل بعض دقائق ، وهذه الرؤية إلى حد صحيحة لكننا لانستطيع العيش بها فالحاضر أقصد به أن تنشغل بيومك الذي أنت فيه وتعتبرة حاضراً لأن غداً لم يأتي بعد وقد لا يأتي والأمس لم يعد في إمكانك عيشه أو العودة له ...

ماهو مهم و ما نرغب في إنجازة قبل أنقطاع الحياة ووصول الرحلة) فمحطة القطار القادمة قريبة جداً وعندما نتأمل ذلك بعمق نصاب بالحيرة من هذا كما تقول حنة ارنت " الفجوة بين الماضي والمستقبل تفتح فقط عند التأمل "82 إن الروح وحدها تشعر بالثبات والسكينة والخلود، وكأنها في مكانها لا تتحرك خالدة ودائمة و لا ترتبط بالزمان ولا بالمكان ولها امتياز قدومها من عالم مغاير.

أي لابد مثلاً أن ترى أن يومك ليس يوماً عادياً فعند رؤيتك للشجرة مثلاً التي تراها أمامك فإن كل ماتراه في ضنك هي أشياء تتجلى و تظهر للحواس وتكون موضوعاً للإدراك تلاحظها ثم تعيدها لفهم ذاتك، أي تعيد فهم قيمة وجودها من خلال ذاتك ، وتبحث عن دورها في هذا الوجود و الغاية من وجودها وعندما تدركها وتحاول فهما بالعقل فإن ذلك ينتهي بك إلى ذرات لا أكثر وأحياناً تتعامل معها بشكل ذرائعي نفعي ... وتوظفها لمصالحك كماهو حال كل العقول الحداثية والتي قال عنها شيخ الحدثة ديكارت " الإنسان سيداً ومالكاً للطبيعة" (maître et possesseur de la nature). 83

82 مجلة الفيلسوف الجديد . العدد ٢ ص ٥٨

83 "مقال عن المنهج" (1637) .

لكننا كبشر يجب أن نتعامل مع المحيط بشكل ظاهري أي كما تبدو لنا الأشياء ، فأنت تراها شجرة جميلة عندما تكون غايتك البحث عن الجمال فيها دون استخدامها ذرائعياً وهنا تعرف قيمتها لكن عندما تشاهدها بغاية نفعية وتوظفها في ذهنك قبل قطعها ستنتهي بك إلى أنها باب أو كرسي أو طاولة ...إلخ . هنا يتلاشى جمال وجودها وتتحول الاشياء إلى غايات ذرائعية ، إن الرؤية الجمالية للوجود لها فرادتها وليست الرؤية العلمية بالضرورة التي تنتهي للمنفعة أو الرؤية الذرائعية و كما يقال إن الجمال في عين الرائي وأقول أن الأشياء تتحدد قيمتها و حقيقتها في عين الرائي فالعقل الديكارتي في الهيمنة على الطبيعة يجعله يعيش حالة صراع معها ولا يتذوق جمال هذا الوجود فهذه الرؤية العقلية الديكارتية المهيمنة ينتهي بها المطاف إلى أن الإنسان لايختلف عن الغول كثيراً . وهنا يقل دهشتنا بالعالم عندما نسلبه جماله وروعته ونضيق منه في نهاية المطاف ونشعر بالإحباط منه عندما لا يحقق كل مانصبوا إليه، إن الكون كله في غاية العمق و الإنسان إن أدرك ذلك، فسيرى الوجود جميلاً حقاً وقد يصل لنشوة ذلك التذوق الجمالي للحياة كما قال أحد الأدباء " إذا رأيت جمالاً مفرطاً في الجمال رغبت في البكاء "84 وهذا مستوى في

84 ذاكرة الجسد . رواية أحلام مستغانمي والأصل للأديب مالك حداد

غاية السمو والعلو والإعجاب بالحياة و كل هذه الجماليات التي تحقق لك في تأملها عبودية صادقة ستعرف حينها أن الحياة التي وهبك الله ثمينة جداً ، ولا يتحقق الاعتراف بهذا الفضل إلا لله و هذا الوجود المحيط بك في غاية الجمال والروعة وهذا لايساعدك فقط على فهم الحياة بل يساعدك على أن تعيش سعيداً وهنا نفهم لماذا كان أشرف خلق الله محمد ﷺ{ أكثر الناس تبسماً } فرغم مايحط به من الهموم...إلا أن النظرة الكاملة للحياة هو في أفقها الجمالي الحسن حبب لي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة علني في الصلاة و لان الله جميل فقد أخبر الرسول بأنه يحب الجمال . 85

المرض وفرصة تأمل الرحيل

عندما يمرض الإنسان ويدرك قرب النهاية ويقترب الموت منه تأتية أفكار غريبة يصفها تولستوي في أحد نصوصه بقول " المسألة حياة أو موت نعم كان ثمة حياة والآن هاهي تمضي ...أنا أحتضر والأمر لن يستغرق سوى أسابيع أو أيام ... وقد تكون هذه اللحظة بالذات ... كنت هنا والآن سأذهب هناك ... ايكون هذا هو الاحتضار .!؟ لا . لا أريد

85 يقرل الرسول صلى الله عليه وسلم (حُبِّبَ إليَّ من دُنْياكمُ النِّساءُ والطِّيبُ وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ) التخريج : أخرجه النسائي (3939) . : إويقول (إنَ اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ ...) المصدر : صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم : 7674

.! ...ـ ومن يعاني من ذلك الاحتضار يعاتب الآخرين الذين هم حوله و تعلق بهم طيلة حياته ـ الموت نعم الموت ولا أحد منهم يعرف شيئ أو يود أن يعرف شيء .. ولا يشفقون على إنهم يلعبون الآن ... وها أنا أدنو شيئاً فشيئا من حافة الهاوية ، خارت قواي ولازلت اقترب أكثر وأكثر والآن أهدرت نفسي سدى ولم يعد في عيني نور . أفكر في ـ مرض الزائدة الدودية أو كلى ـ ..لكنه الموت . الموت يحيط بي طوال الوقت .! أهو الموت حقاً؟ "86 وعندما يزورك الآخرون في مرض خطير فإن المشاعر لا تكون صادقة دائماً فهم يوهمونك بالشفاء وأنت تدرك حقيقة الخطر الذي يحيط بك، وهذا مايشعر به كل إنسان يشعر باقتراب الموت . و هذا الشعور بالطمأنينة والشفاء الذي يقدمه لك الآخرون بألسنتهم ويقولون لك مايخالف ملامحهم هو شعور مزيف ومخادع و هو ما جعل ميلتون إريكسون عالم النفس الشهير يفكك ويحلل شفرات لغة الإشارة، فقد كان مريضاً ومعاقاً في فترة من حياته وفهم كيف يمارس من يزوره من الأشخاص هذا النوع من التزييف في قول الحقيقة ، فقد لاحظ في الأشخاص مشاعر لاتقولها كلماتهم وهنا قرر أن يكشف الزيف من خلال الجسد الذي يفضح زيف اللغة والكلمات الكاذبة ، وبدأ من

86 موت ايفان . تولستوي ص ٥٠ و ٥١

هنا الانطلاق في رحلة تحليل لغة الجسد، وفهم مايقوله الناس وماتعبر به ملامحهم أمامك ، و لقد جسد نص موت ايفان إيليتش لتولستوي هذا بعبقرية ، فعند ما يسأل نفسه (أفيان) أسئلة لم يسألها من قبل ويفكر في أفكار كان دائماً يتجاهلها عن الموت والمصير والحياة ومابعد الموت ويدخل في أفكار مشوشة وكانت الزيارات تؤذيه وخصوصا عندما تكون تلك الزيارات تأتي استعراضية من بعض النساء الآتي يعتددن بأجسادهن الشابه الصحيحة والرجال كذلك وهذا كان أقسى ما يشعر به في ذلك الوضع الحرج والمريض الذي يشعر بنهاية جسده وهو في طريق الهلاك . وقد وصف تولستوي ذلك بقول " كنت أنحدر للقاع ظناً مني إنني أصعد للقمة ... كانت الحياة تتسرب مني والآن انتهى كل شيء ولم يبق إلا الموت " 87 وهذا النص يبين مشاعر المرضى الذين يشعرون بقرب نهايتهم ومشاعرهم المتناقضة تجاه زائريهم هذا الشعور لايقال لكنه في أعماق النفس وليس من أخلاق المروءة ولا من أخلاق التقوى الاعتداد بصحة الجسد أمام المرضى الذين يعانون من بلاء أجسادهم أو الإعتداد بجمال الملبس والمظهر أمام من لايستطيعون تغطية أجسادهم سوىبالعباءة الطبية أو رداء المريض - (Patient Gown) ولا من

87 ٧٥نفس المصدر تولستوي

المروءة التجمل بأجمل العطور في زيارة المرضى أمام من يعاني من إهانة المرض ويشاهد الجميع (أنبوب التصريف الجراحي للسوائل) يتسرب من جسده ، بل أظن أن امرأة تتباهى أمام زوجها بجمالها أثناء زيارتها له وهو في هذا الوضع ماهي إلا امرأة فاجرة وظالمة وفاسدة .

إن الموت يغير قناعاتنا تجاه أشياء كثيرة كنا نظن بأنها بريئة وبسيطة وعفوية ، حتى أننا نعيد مسائلة أنفسنا من الداخل بصدق عندما نشعر بموت شخصاً نعرفه ويفجعنا هذا الخبر ، يصف تولستوي في روايته السابقة شعور أصدقاء (أيفيان) عندما يصلهم ذلك الخبر بشعور غريب شعور فرح يسبق شعور التصنع بالحزن قائلاً في نفسه:" هو الميت وليس أنا "88 وهذا الشعور بالفرح يسبق الحزن والبكاء والجعيع الذي يأتي في مابعد أي أن الموت اختار فلان ولم يختارني ، لقد أخطأ الطريق لي ، هذه المشاعر يصفها تولستوي بدقة رهيبة وغريبة ، وهذا هو حال العسكر الذين يكونون في خنادق الحرب ، وعلى خط النار إنهم عندما يسمعون صوت الرصاص فإن هذا يدفهم للإطمئنان بقدر بسيط على الأقل ، **لأن صوت الرصاصة**

88 موت ايفيان تولستوي ص ٧

التي تقتلك لن تسمع صوتها، والخوف من الموت ليس المقصود فهذا أمر طبيعي ولكن، المقصود هو الخوف الذي يعطل الحياة والقلق الذي ينزع سعادتها والضجر الذي يفتت الإيمان ، أي أن يغامر الإنسان ويعيش الحياة بشكل جيد وصادق، **فالحياة عقيدة وكفاح** كان العقاد يقول أن الخوف من الموت هو في الحقيقة " خوف من الحياة وكلاهما من شيمة الضعفاء، لأن الأقوياء لايخافون. الموت ولا يخافون الحياة ، ولكنهم يكرهون الموت كما يكرهون عدوا ويحبون الحياة كما يحبون عيشقة ، وليس من الضروري حين يكره المرء عدوا أن يخافه وإنما خوف الأعداء دأب الضعفاء ، وإذا خاف المرء الموت فذاك ضعفه ، والضعيف يخاف الوجود. كما يخاف الفناء ، لأنه لايقوى على هذا ولا ذاك"89 لكن التفكير في الموت هو القلق الذي يدفع الإنسان للحياة وليس قلقاً يلسب السعادة بل قلقاً ينبه على عدم أهدار الوقت والتسيب والتسويف وتضييع الوقت في مالا يفيد ، إننا عندما نخاف من الموت لانخاف من الموت لأننا سنفقد أنفسنا فقط بل لأننا لانريد أن نفقد تلك الرسالة (أو ذلك المعنى) الذي سوف نقدمه قبل رحيلنا ، والخوف من الموت للرجل العيال 90 يتجسد

89 الإنسان وهموم الموت . ارنولد توينبي . مقدمة ترجمة عزت شعلان ص ١٢

90 العيال : هو من له أسرة وأبناء يقوم برعايتهم والإنفاق عليهم .

في تخيل ما سوف يحدث لتلك القلوب التي تحيط به وتحبه بصدق بعد فراقه لها .

إن الفراق ـ الموت ـ لهذه القلوب التي ـ كنا نعني لها الحياة ـ سوف يكسرها كسراً مؤلماً، وتلك الدموع والأحزان التي سنبعثها في أحداقهم وفي أغوار أنفسهم ووجدانهم بشكل مستمر يبين لن حجم مسؤلية غيابنا عنهم ، إن الأب الذي يحاول أن يحافظ على نفسه ويختار التوقيت المناسب بحذر لقطع الطريق العام سعياً على قدميه وخوفاً من الإرتطام مثلاً بالسيارات المسرعة ليس أباً خائفاً أو جباناً ، بل يعني ذلك أنه أب يحمل في نفسه حجم مسؤلية غيابه. ويدرك أن هؤلاء الأيتام والأطفال الرضع خلفه في حاجة ماسة له ولم يقرر الهروب من الحياة مثل ما يفعل الجبناء (في فكرة الموت الرحيم مثلاً [91]) هذا الحجم من المسؤلية ! وما ينجم عنها يجعلنا نتمثل بقول الشاعر عبدالرزاق عبد الواحد .. في قصيدة (الموت) الزائر الأخير ونحن نتخيل وجوه أبنائنا وقت فراقنا ...

(إن من) أفجع ماتبصره العيون

وجوه أولادي حين يعلمون ..!

91 تنتشر في العالم الصناعي الغربي فكرة الموت الرحيم وهو أن يذهب من لايريد الحياة لمتخصص ويقدم له سماً لايشعر به يصيبه بالنوم بشكل تدريجي ويتوقف القلب في مابعد دون الحاجة للسقوط من عمارة تزيد عن سبعين طابقاً أو الإنتحار بسكين أو مسدس أو الشنق وهذه الحيل تمارس لمن يريد الذهاب من الدنيا لجهنم ولايؤمن بها ولو كان يردد ذلك ، وهذا ماتعدهم به الأديان السماوية الحقة من أن المنتحر سيكون غذائاً لجنهم .

وليس عجباً أن نفكر فيه دائماً ويتجول في عقولنا في كل لحظة ... فهذا إبراهيم المازني يصف التفكير بالموت بقول " طال تفكيري في هذا الموت وخامرني خاطره فهو لايفارقني في يقظة أو منام وإني لأحلم به وإن كنت بلطف الله أصبح ناسيا ...وما غمضت عيني ليلة إلا و أكبر ظني أن أفقد نفسي فلا أعود إلى الشعور بها "[92] إن صاحبنا المازني يفكر في الموت بشكل لايغلو من غرابه فهو يعتبر الموت نهاية الشعور بالنفس..! لكنها في الحقيقة بداية طريق جديد كما يقول الغزالي " أو تغيير حال إلى حال ...فالموت طور آخر من الترقي وضرب آخر من الولادة والانتقال من عالم إلى عالم "[93] وهذا في حقيقة الأمر هو الحقيقة الحتمية من خلال القرآن والسنة و التي ترى أن الحياة الدنيا لاحقيقية لها و أن الحقيقة المطلقة هي في العالم الآخر وأن الموت هو مرحلة انتقال من عالم إلى عالم ، أي من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة .

92 الانسان وهموم الموت ... ص ١٣

93 الانسان وهموم الموت ... ١٤ص

كيف نتعامل مع حقيقة الموت ..

يقول المثل اللاتيني "إذا أردت السلام فلتستعد للحرب وإذا أردت الحياة فلتستعد للموت "94 هذا المثل يبين أن الاستعداد للموت هو الحياة ذاتها لأن الحياة هي أن نترك أثراً طيباً بعد رحيلنا عن هذه الأرض ثم نغادرها ونحن في شوق كبير إلى الله ، والاستعداد للموت لايعني انتظار الموت كما يفعل المتصوفة بل الإستعداد له بإعتباره حقيقة حتمية لا مفر منها و في الموت أمامنا موقفان واضحان :

1. موقف الحذر والتسليم والأمل . وأحياناً التوجس و القلق ،الإرتياب ،...و هذا ـ رغم مافيه إلا أنه ـ يخلق فينا المسؤولية ومراجعة الذات بشكل دائم ويحثنا على تطهير النفس ومعالجة أمراض القلب وهذا هو أعلى مراحل الوعي بحقيقة الموت ، وهنا يدرك الإنسان بوعية حتمية الموت ونهاية كل شيء يدركة بحواسه ويشعر بمسؤولية أمام جسده وماله وقوله وفعله ومسؤوليه في علاقاته بالآخرين وقبل كل ذلك صلته الإيمانية بالله ، وهذا يحدث نموا في الوعي بحقيقة الحياة، وكيف يجب أن تعاش الحياة؟ وماذا يجب علي أن أفعل ؟ وهذا القلق طبيعي يشعر به كل حر فيحاسب نفسه محاسبة عسيرة وصارمة و يقول عن هذا الشاعر لبيد بن ربيعة .

94 يشاع بأنها "حكمة رومانية قديمة، ذكرها المؤرخ فيجيتوس في القرن الرابع الميلادي"

ماعاتب الحر الكريم كنفسه

والمرء يصلحه الجليس الصالح

كان لبيد في غاية الذكاء عندما قرن ذلك بالصديق الجيد والخير والصالح لأن تأثير هذا الصديق وفق كل مناهج علوم النفس الحديثة تأثير غائر في النفس وفي السلوك ، ودور الصديق دور كبير جداً قد لايشعر به المرء لكنه يتسرب إليه... واختيار صديق جيد يعني أن هذا الصديق يدفعك وتدفعه للخير والفلاح و يحثك للإنجاز والإنتاج واحترام الوقت والمال .

ويحثك ـ هذا الصديق الخير ـ أن تنجز فيها ما يجعلك تترقى في أمرك كله دنياك وآخرتك يقول الله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } سورة الكهف آية ٢٨.

ويقول تعالى: { وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون }95.

وهناك موقف مغاير ومضاد تماماً لهذا الموقف هو :

95 سورة التوبة . آية 105

2. موقف القلق العدمي وينتج عنه الامبالاة تجاه الوجود و تجاهل أحداث الموت، ومحاولة نسيانه وكل مايأتي في هذا المعنى (عدم الاكتراث أو اللامبالاة أو الامسؤلية...إلخ) كل هذه الأفعال دوافعها المضمرة ـ عند من يمارسون هذا الموقف العدمي ـ هي لجلب السعادة بعدم التفكير والاكتراث في الموت .

لكن تغييب الموت عن أذهاننا و تجاهل التفكير فيه، لا يعني ذلك بأننا سوف نلغي الموت بل يعني ذلك ــ في حقيقة الأمر ـ بأننا نلغي الحياة ذاتها ، و نمارس خداع الذات والكذب على الذات والخوف من المواجهة مع (الموت) والعبث مع الوجود وعدم فهم الحياة وفق رؤية واضحة، وهذا يسرب فينا فراغ وجودي مخيف و هذا يلغي قيمة الحياة ذاتها لأن " الفراغ الوجودي " ينتهي بنا لخواء النفس والإحباط من الحياة كاملة ، وفي كل لحظة ـ نتجاهل الموت ـ و يأتينا خبر موت أحدهم ، فإننا نصاب بصدمة ـ ويعاد سؤال الغاية من الحياة للصدارة ـ ويتمدد فينا القلق العدمي يجعلنا نعيش في دواخلنا بشعور " الرهاب من العدم"96 ، و قد نفرط في القلق لدرجة

96 مفهوم فلسفي تحدث عنه هايدغر وسارتر وغيرهم من الفلاسفة كما تحدث ويل دورانت في كتابة عن معنى الحياة عن رسائل كبار الفلاسفة والعلماء والروحانيين والموسيقيين وأكبر اثرياء العالم ..إلخ عن سؤال معنى الحياة وكانت الإجابات في غالبها توضح تلك الحيرة والأحباط عند هؤلاء النخبة (الأنتليجنسيا)

تصيبنا بحالة " رهاب مزمن من الموت " فنعاني من انكفاء على الذات وجزع عن العمل وتوقف عن بناء العلاقات ، ويمنعنا من القدرة على ممارسة أي نشاط إنساني فعال ، يسمى عند علماء النفس " النيكروفوبيا" وهذا مستوى يصل له الإنسان في أقصى مراحل هذا القلق العدمي، وهذه الحالة حالة عدمية جنونية جامحة و صاحبها يعيش على أن الحياة هي الخلود وأقدارها ضرب من العبث ! ويتحول الموت إلى رهاب مقلق يشعر المرء بأنه لابد أن يدفعه بعيداً ـ كفكرة أو كسلوك ـ إلى أقصى مدى ممكن...وتأخير الشيخوخة بأدوات التجميل ليس إلا هروباً من ـ كابوس الموت ـ وكل أنواع العناية لا تقدم حلولاً جذرية للشيخوخة التي تبشر بالموت في كل يوم جديد ، وعندما نتأمل في هذه الموقف تجد الإيمان يتبخر ويكون شكلاني جداً ولا وجود لمفهوم الصبر أصلاً لأن الصبر مرتبط بالإيمان ويكون في حقيقته قلق يجلب قلق وتوتر يخلق توتر وحزنًا يهلك الجسد ويفسد العقل، يصاب من خلاله هذا ـ الفارغ وجودياً ـ بشتى أنواع المشاكل، ويحجب عنه كل جماليات الحياة التي يجيب أن يعيشها الإنسان .وهناك من ساهموا ليس بعلاج مشاكل الإنسان بل بزيادة أزمتهم النفسية من حيث لايشعرون فهذا فرويد يعتبر الحياة هي حياة المغامرة ، ولكن أي

مغامرة يقصد .؟! هل هي مغامرة الجسد بلا مرجعية أخلاقية فيمارس كل شيء دون قيود حتى يتحرر من تلك العقد النفسية وفق فرويد ..! ، وإذا كان ذلك كذلك فماذا جنى العالم من الثورة الجنسية في الستينيات والسبعينيات،...لانحتاج لإطالة القول في هذه المسألة يكفي أن نتأمل واقع الحياة الجنسية والمغامرة التي أسس بنيانها فرويد وأمثاله لنشاهد جنس الحيوانات والمثلية و جنس الشوارع و البارافيليا ... وهذا يحقق لنا كم كانت هذه الفكرة شكلانية وفاسدة جداً وقد يكون دوافع فرويد ـ الإلحادية ـ كغيرة بأن الإيمان عصاب جماعي وبالتالي فالعالم الآخر عند فرويد لاوجود له. و الأفكار التي لا تنتهي إلى الله هي في نهاية المطاف أفكار فاسدة97 .

وهذا الموقف العدمي هو ما ينخر في كل مذهب فلسفي يشيده فيلسوف سواءً كان ذلك حديثاً أو قديماً هذا الموقف العدمي لايجعل البناء الفكري الذي يشيده الفيلسوف صلب أبداً ولم يأتي فيلسوف أو فلسفة في تاريخها منافسة للدين أو ألغت الدين أو أستطاعت أن تقضي عليه... بل بقيت كل

97 قال ابن تيمية: "ما عُلم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع ألبتة؛ بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط. وقد تأملتُ ذلك في عامة ما تَنازع الناسُ فيه، فوجدت ما خالف النصوصَ الصحيحة الصريحة شبهاتٍ فاسدةً يُعلَم بالعقل بطلانها؛ بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع". درء تعارض العقل والنقل ص ٨٥ ج ١ – ٥ .وقال: "والقول كلما كان أفسد في الشرع، كان أفسد في العقل، فإن الحق لا يتناقض"....منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة و القدرية . ج ١ – ٤ ص ١١٧.

تفسيراتها في الميتافيزيقيا ضرب من العبث بالكالمات والأشياء والمعاني .

المسؤولية ومراجعة الذات

يقال أن الإنسان الحكيم هو القادر على فهم نفسه ومعرفتها حق المعرفة وهذا الأمر ليس من السهولة بمكان أن يكون الإنسان قادراً على فهم نفسه ، لأن فهم النفس شاق يحتاج

الكثير من الشجاعة، وشيئاً من التأمل والصمت والصبر و الهدوء ، وهذا يقدم لك طريقاً لفهم حقيقة النفس فعندما تعرفها و تعرف عيوبها حق الفهم فيمكن أن توظف مشاعرك السيئة توظيفاً صحيحاً دون أن تؤذي الآخرين98 بها أي أن تجعل هذه التصرفات التي فيك في مكانها الصحيح ...فالعناد يتحول إلى أصرار ومثابرة والحزن إلى التشاعر بمشاكل الآخرين وتغذية الجوانب الأدبية والغرور يساعدك على الترفع عن سفاسف الأمور وتوافه الأشياء، وغيرها من الصفات و كل هذا يعطيك قدرة على معرفة نقاط القوة والضعف في شخصيتك ومعالجتها وللفقهاء مقاربة جميلة يسمونها (أمراض القلب) وليس مرضاً عضوياً لكنه مرض معنوي مثل الكبر والعجب والحقد والبغضاء والفتن والقسوة والظلم .! إن توظيفك للأفكار السيئة توظيف خيراً سيكون هذا من أهم الأفعال التي تفعلها في حياتك كلها، فإذا كنت مثلاً مصاب بداء الحسد فإن توجيه هذا الحسد لمن ينشغلون بالمعرفة والعلم يحثك على مجاراتهم و الانشغال بهم و منافستهم والإنتاج المعرفي معهم ومع زيادة المعرفة و صدق النية قد يطهرك الله من هذا المرض النفسي وتكون منتجاً مفيداً

98 تحويل الحسد مثلاً لطاقة في الإنجاز والتطوير وتحويل الغضب مثلاً لممارسة الأنشطة العضلية الوريضية والمنافسات البدنية التي تحتاج لنشاط و طاقة وجهد ، وتحويل الخوف لمشاعر أدبية جمالية وفنية إلخ .

قد سلكت طريقاً خاصاً بك ، هذا يحدث مع كل الصفات الأخرى.

إن ذلك يحدد حقيقة ما تؤمن به وماتسلم له ويحدد توجهاتك وأفكارك وهذا بصدق ليس متاحاً للجميع وليس متناولاً للجميع فالجميع إلا القلة منهم يريدون ان يعبرون عن آرائهم وافكارهم وتصوراتهم بعيداً (عن صحه ما يقولونه) ولايهمهم كثيراً هل هذا حق أم باطل ! كل مايهم هو التعبير عن أنفسهم فقط .99

وفهم طبيعة النفس شكل من أشكال جهاد النفس أمام نزواتها وشهواتها أمام فضاء يحكمة الاختلاط بالناس في وقت مفروض فيه فرضاً على الإنسان أن يكون إجتماعياً، و أن يكون جزءً من هذه المجتماعات الإنسانية فإنه هنا مضطر لبناء علاقاته معهم ولابد أن يجاهد نفسه في السيطرة على مشاعره أثناء هذه العلاقات، وليس هذا بالأمر الهين والسهل والبسيط وخصوصاً في هذا الزمن، ولابد أن توطن النفس لأخلاص النية لله تعالى أي أن تحول العادات اليومية إلى عبادات مع استحضار النية (لله) في عملك وجهدك وهذا الإيمان يجعل حياتك لله .

99 (يعد ميخائيل باختين مؤسس نظرية الحوارية (Dialogism)، حيث يرى أن اللغة حوار مستمر، وكل منطوق فردي هو "خطاب" بحد ذاته) رسالة ماجستير ط سيد علي شي . جامعة الجزائر.

وهذا من أفضل الحلول التي تقاوم بها يومك العملي الرتيب والشاق والذي يتجدد معك في كل يوم طوال الإسبوع سيتغير تماماً عندما تشعر بأن كل خطواتك لله وحياتك بأكملها لله وتحقق الهدف منها وهي رضاء الله. وهنا سوف تسلم و بكل هدوء و دون ضجيج فكري أن العدالة المطلقة على هذه الأرض غير متحققة بالكلية فكل عدالة يشرع لها البشر هي عدالة ناقصة يتم معالجتها ستمرار ، وليس كل من يقول الحق ويلتزم القانون يمارسه قولاً وعملاً لأن البعض يستخدم القانون للظلم وليس لردع الظلم ويكفي أن تعود لكتب من نوع (فساد العدالة تيد كروز و المراقبة والمعاقبة لمشيكل فوكو و٤٨ قانوناً للقوة ...) ، حتى وإن كنت تعمل في مظلة قانون مدني في دولة متقدمة أو شركة رائدة على مستوِى العالم فإن كنت تظن أن مدير شركتك مثلاً مجبول على العدل لأنه يوزع الابتسامات في كل مكان وتغرك فيه أخلاقه البراغماتية و تظن فيه العدل والإنصاف ، ثم تدهش بغير ذلك مستقبلاً فلا يصيبك ذلك بالإحباط لأن العالم اليوم تهيمن عليه الفلسفة الذرائعية الأمريكية للأسف وهذا المفهوم النفعي (أين ماتكون المنفعة يكون الحق) نابع عن الفلسفة الأمريكية التي تهيمن على العالم وتروج مفاهيم النجاح المادي على حساب مفاهيم الأخلاق التضحية الحب العدل...إلخ ، وهؤلاء في جوهرهم يفقدون الغاية والمعنى من هذه الحياة

ويستمدونه من المال والأعمال، وينتهي بهم الأمر غالباً للجشع و الإحتكار والإستغلال وهي نابعة عن رؤية عدمية للعالم ... وكل شيء يمكن شراؤه بالمال ! لكن حكيماً روسياً قال" دوستويفسي" مرة : كل شيء يُشترى بالمال ليس ثميناً " وأظنه صدق .

عودة للذات

لماذا يجب أن تعود لنفسك .؟ ولماذا يجب أن تدرك بأنك سوف تلاقي مصيرك لوحدك.؟ وأن كل هذه العلاقات والصداقات والإرتباطات والأصدقاء المحيطين بك أشبه

بوهم مخادع .؟ ألسنا ننام ونظن ـ أثناء نومنا ـ بأننا نعيش الحقيقة وما أن نفيق من نومنا حتى نقول لأنفسنا (اووووه لقد كان حلماً.!) لقد كنا في حلم ... وقد أكون وأنا أكتب هذه الأوراق في حلم...ينقل عن الإمام علي قوله {الناس نيام فإذا ماتوا استيقظوا } لعل هذا المفهوم منزلق خطر تجاه الشكوكيه المفرطه لكن جورج بيركلي، وشعاره الشهير: "أن توجد يعني أن تُدرك" يذهب إلى أننا عندما ندرك الأشياء ـ كراسي، شجرة ، طاولة جبل ـ لا توجد إلا لأننا ندركها بحواسنا فقط . فإذا لم يوجد عقل يدرك الشيء، فالشيء غير موجود. العالم بالنسبة لبيركلي هو "أفكار" يضعها الله في عقولنا، وليس مادة صلبة. لعل بيركلي هنا في محاوراته حاول أن يجيب على الملاحدة في عصره لكنه بحيث لايعلم وضع هوه عميقة في جدار الوعي بالحياة المادية المحيطة بنا ... لكن هذا يجعل المثالية الذاتية في أعلى توهجاتها على الأقل أن يستطيع الفرد أن يتأمل في ظواهر الأشياء و هذه تختلفك كلياً عن ما أراد ديكارت قولة في فكرة أنا أفكر أذن أنا موجود كفعل مقاوم للرادكالية الشكوكية المفرطة تجاه الأشياء وتجاه الذات .

و لعل فكرة بيركلي من أجمل حسناتها في رأيي أنها قادره على أن تعيد الفرد إلى ذاتها بشكل فاعل جداً ونلاحظ ذلك

في نشأت الفردانية التي تعززت بهذه الذات المدركة للوجود، وقامت بتحويل الإدراك الفردي لسيادة فاعلة على الذات ومنفصلة عن الطبيعة (الطبيعة كظواهر وأشياء لا وجود لها بغير إدراك) فالعالم يبدأ وينتهي عند وعي الفرد ، وهذا ليس بعيداً عن التراث العربي فهذا الحسن البصري يحقق هذه الفردانية الفاعلة بشكل واضح وصريح وحكيم جداً عندما سالوه يوما :" لم لا تأبه لكلام الناس ؟ فقال لهم : انا حين ولدت، ولدت وحدي، وحين اموت اموت وحدي، وحين اوضع في القبر اوضع وحدي، وحين احاسب بين يديه تعالي احاسب وحدي، فإن دخلت النار دخلت وحدي، و إن دخلت الجنة دخلت وحدي، فمالي والناس !!"100 هذا الأفق الفرداني في الثقافة الإسلامية يتسلل للفقهاء من خلال الموت لأن الموت وعي حقيقي بالذات وتخلق في الذات فردانية ليست تلك الفردانية الانانية كما تميها أحد المؤلفات (فضيلة الأنانية) فضيلة التملك بل فردانية روحية تجعل الذات تدرك مصيرها وتستوعب حتمية نهاية كل شيء هذا يخفف وهم السيطرة والتملك والتراكم المادي فبعد الموت وهذا مالم يستطيع أن يتخيله الإنسان (هو أنه سوف ينسى ...) هذه الآية الكريمة "إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا

100 تنسب للحسن البصري علماً أنني لم أقف عليها ولم أجدها في مرجع موثوق إلا أنها من أجمل ماقد تصف بدقة مصير الإنسان في الحياة وما بعد الموت .

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (الأعراف: 128) توجز لنا مفهوم الملكية فأنت متملك لمدة محدوده فقط ، فإذا كنت سأموت وحدي وسينساني الجميع ! وهذا ما سوف يحدث وهو بالفعل، و ما حدث لمن سبقنا تقريبا في الحياة ، فإن ادراكي بأنه لن يتذكرني إلا البعض ولفترات محدودة وبعدها سستلاشى ذكرس للأبد...فإن هذا يجعلني أعيد التفكير كثيراً في كل تلك الماديات التي أريد تحقيق وجودي من خلالاها ومن خلال تملكها ، وفي تلك العلاقات الزائدة عن الحد والصداقات القائمة على المنفعة تماماً، لأن الموت غالباً لن يبقى شي مني في ذاكرة الآخرون كما أظن ! قد تكون لي بعض الأوراق والأعمال ... وإن كنت من النخبة الفكرية قبل موتي فقد يأتي الآخرون للقراءة والنقد والإفادة الفكرية لا أكثر و ماينفع الناس فسيمكث في الأرض ومالیس فيه فائدة سيموت وينتهي ويتلاشى في غياهب النسيان .! نعم هذا كل شي ء وكل هذا ليس بشيء إذا تذكرنا رحلة الخلود الأخرى التي نحن ذاهبون لها، خلود الروح للعالم الامتناهي والسرمدي للعالم الذي يقول كل الحقيقة وهو الحقيقة ذاتها سنكون ببساطة أمام أنفسنا وأمام مصيرنا ولن يأخذ أخطاءنا ولا مصائبنا ولا فضائحنا أحد سوانا...!"وفي المرجعية الإسلامية (القرآن الكريم) يذكر الله تبارك وتعالى يوم التغابن يوم الحساب من سيكون

خصمك ، وهذا الخصم هو جسدك أي أنه الشاهد عليك يوم القيامة. إن هذه جوارحك تشهد ضدك ! هكذا يكون الوصف القرآن العظيم لهذا الموقف في العالم الآخر { وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ...} سورة فصلت آية ٢٢[101]

عينك .! يدك ! رجلك .! لسانك... وإذا كان هذا مصيرنا الحتمي جميعاً، ولن يفوت شيء مما كنا نظن أننا نقوله أو نفعله ويذهب في غياهب النسيان .! بل وكل من نعرفه من قراباتنا سيكونون ضدنا {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} (الآية 67) الزخرف وفي سورة عبس { فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ" (الآيات 33-37). في تلك اللحظة اقرب الناس لنا نتمنى أن يأخذون العذاب عنا

وهنا لابد أن نكون ذواتنا بصدق ولا أن نكون مايريده الآخرون أو يأخذنا الآخرون له وإليه رغماً عنا .! فنتحرر من هذا الآخر في مايخص أنفسنا تماماً وندرك أن المسؤلية ملقاة على كاهلنا ليس لنا فيها أن نلقي اللوم على أحد ونحن

101 فصلت آية 21

نملك حرية في الإرادة ، وفي قول (لا) عندما يكون من الضروري أن تقولها لكل شيء لا يخدم الشرع أو العقل، لأن الحياة تخصك أنت وحدك وليس لأحد في هذا الأمر شأن ، ولا يعني هذا أن يثق المرء في ذاته وثوقاً متخشباً دوغمائياً أعمى ...هذا السلوك لايساعده أبداً على التواضع و إستدراك تصرفاته وأعماله و أفكاره ، فالتواضع في هذا مهم أيضاً و لا يحسنه إلا شرفاء الطبع فيمكنك أن تمنع الآخرين من الاقتراب مما يخصك أنت فقط ، وأن لاتنسى نفسك بالكلية فتنخرط في علاقاتهم وتكون قطعة شطرنج لا أكثرر فتحمل نفسك أعباء دنيوية وأخروية ما أنزل الله بها من سلطان . وفي ذات الوقت أن لا تكون جاحداً لحقهم ، وتشاركهم كما تريد منهم أنت في المقابل أن يشاركوك فيه فيما ليس في ضرر عليك أو عليهم، وتقف معهم كما تريد منهم أن يقفوا معك وتكون لبنة في بنيان واحد يشد بعضه بعضاً .

الإحباط أخطر من المخدرات

عندما يصاب الإنسان بإحباط فإنه يضن في نفسه ظن السوء ويظن في الله ظن سوء والعياذ بالله و للأسف بقدر حجم الإحباط يكون مقدار الذنب والهزيمة النفسية ، بل يذهب لما هو أبد و يشتط في الفساد لأنه يظن بأن العفو

لغيره وليس له والخير لغيره وليس له...وهذا أخطر الأفكار التي تصيب الإنسان، فكلنا محملين بالأخطاء والذنوب ولكننا نظن بالله ظناً حسناً يقول الله تعالى: " فما ظنكم برب العالمين" قال ابن مسعود رضي الله عنه: قسماً بالله ما يظن أحدٌ بالله ظنا الا أعطَاه ما يظن وذلك لأنّ الفَضل كُلَّه بيد الله يقول الله تعالى { قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ* قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} 102 وهنا سنفعهم أن رحمة الله فوق كل شيء و أي شيء يخطر في ذهنك ، فلابد أن تظن بالله الظن الجيد ، و طالما أن رئتيك تتنفس الاكسجين وقلبك ينبض ويضخ للشرايين ودماغك يعمل بكل حيوية وفق خلاياه العصبية ، فلا تضن بالله إلا الظن الجيد و الخير دائماً وأبداً ولابد أن ينشرح صدرك بالتفاؤل لأن الإحباط والظن السيء يسوقك للهاوية وينزل بك للأسفل هناك للقاع الذي يخفي عنك رؤية النعم103 فتعيش الشقاء النفسي تماماً، وهذا القاع يجعل كل فسادك يجتمع فيه كبر على الله وظلم للعباد وتمتع بالذنوب دون خجل ولا حياء ويكون أبليس خير جليس كما كان حال أحدهم حيث قال:

---

102 سورة الحجر آية ٥٥ و ٥٦

103 هناك عادة قالها لي أحد الفضلاء وهي عندما تصاب بالضيق من أمر معين أجلس مع نفسك وخذ ورقة وقلم وأكتب نعم الله عليه (ولا تترك شيئاً مما يخطر في ذاكرتك) وأعد قراءتها مرة ثانية بتمهل وأنظر ماذا يحدث في رؤيتك لنفسك وحياتك نقلت هذا القول بتصرف وتغيير و أثق أن قوله على حق ...

لا تُفْشِ أسرارَك للناسِ

وداوِ أحزانَك بالكاس

فإنّ إبليسَ على ما به

أرأفُ بالناسِ مِن الناسِ

وظن السوء هو أخطر ما يقترفه الإنسان تجاه نفسه يقول الله تعالى : { وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}104

ولهذا ابتعد عن هذا القاع (الإحباط والظن السيء) دائماً و تعود أن ترجع إلى الله في كل لحظة وتستعين به على نفسك مهما كانت أخطاؤك ... ومن يخطئ ويعود أهون كثيراً ممن عابد متكبر يعجب بأعماله ويصاب بالغرور ضناً منه بأنه على أفضل حال وأن الآخرين دونه علماً وقدراً يقول ابن تيمية " العاصي الخائف خير من العابد المتكبر "105

ينصح الحارث المحاسبي هذا النوع من أهل الغرور والتعالي على الخلق بقول : " أن يخاف ويدعو الله ،

---

104 سورة الفتح . آية ٦

105 أنيس المحبين . تأليف عبدالله بن مشبب . ١١٢

ويتضرع إليه ، ألا يكله إلى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلماً وعدواناً ...وأن يخاف من كفران النعم التي قد غلب عليه البطر بها فأشغله الشكر عليها ...- والعبد - لايدري مايحدث له في بقية عمره ..."106 لماذا لايدري ...لأنه قد يظن بنفسه الخير، فينقلب على عقبه والقلوب تتقلب بين إصبعين من أصابع الله... ويكون من أهل الشر بدلاً أن يكون من أهل الخير وتنقلب عنده القيم و تهتز المرجعيات ويتحول العالم بالنسبة له لعالم نسبي تماماً عدمي لا معنى له وسوء الظن هذا والإحباط لايأتي إلا من خلال إنشغال المرء بالعالم الخارجي ونسيان مصير نفسه تماماً ، ولهذا فالقرآن يؤكد للمؤمن المسلم الذي يتخد هذا القرآن مرجعية له بأن يعتني بمصير ذاته أشد العناية يقول تعالى : { مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } 107 لاحظ أن الخير الذي تقدمه فلنفسك والشر الذي تقدمه فلنفسك أيضاً في نهاية المطاف...و ستجنى ثماره إما في الدنيا أو في مابعد الموت ولا يظلم ربك أحداً ..

106 آداب النفوس . الحارث المحاسبي ص 69

107 سورة فصلت آية ٤٦

ويقول تعالى { قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ...} 108 آيات تبين لك الحق ولم تتركك في فراغ وجودي وضياع معنوي بل بينت وفصلت لك كل شيء ، وفي هذا آيات كثيرات تحث الإنسان و تعيد الإنسان لنفسه يقول تعالى : {مَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ ...} النمل آية ٤٠

﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ... ﴾ [الإسراء: 15

{...وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ } فاطر ص ١٨

{ فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه } سورة محمد ٢ص ٣٨

وقوله (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) الفتح آية ١٠. النكث يعني نقض العهد...

ويقول تعالى : {.. ومن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ...} النساء . آية ١١١.

وهنا يتضح بجلاء بأن من أرتكب ذنباً فإنه هو وحده من يحصد حصاد هذا الذنب وأثر ذلك الذنب الذي يتركه في الناس يزيد من وزره . ولهذا كان عند كل الأنبياء ومن ثم الحكماء و الفلاسفة والعلماء و المفكرون والأدباء وكل من

108 سورج الأنعام ١٠٤

تحدث في شخصية الإنسان وآليات تغييره يتفقون على شيء واحد هو أن **التغيير الحقيقي للفرد لايكون إلا من الداخل فقط** و التغيير الذي لايكون من الداخل سيكون تغييراً كاذباً وشكلانياً، صحيح أن هناك من يتأثر بالخطاب وأساليب الإقناع والقدوة والكثير من أدوات التغيير ... والذي يقدم له لكنه يتأثر ولا يتغير والدافع الصادق للتغيير هو في الداخل ، فما قيمة أن تردد الأفكار ولا تطبقها ماقيمة أن تقول عن جمال الصدق وأنت تمارس فهلوة الكذب، و العاقل لابد أن يغير ذاته وطريقة تفكيرة قبل أن يقرر في تغيير الوجود المحيط به ، ويتأمل ذاته قبل أن يتأمل حال غيره ، ويعالج أخطاءه قبل أن يعالج أخطاء غيره وهذه الحقائق تعود لي في كل مرة أفكر في تقويم سلوك الآخرين حتى لا أتحول لثرثار يوزع القيم دون أن يستفيد منها والله يعلم أنني تردد في طبع هذه الأوراق المتوا ضعة لأنه في البدء كان خطاباً لنفسي ثم قررت أن أشارك الآخرين عله يكون من العلم النافع .

وكان علي أن أفكر في ذلك التأثير الذي أرغب في وضعه في الآخرين ، ولكن قبل كل ذلك يجب أن أرى هذا التغيير فيني قبل أي أحد آخر وأكون صادقاً في ما أقول ومؤمن

به أشد الإيمان .. ولابد أن أدرك أن (تأثير الفراشة)[109]، في الفيزياء لايبتعد كثيراً عن تأثيره بين البشر.

ويظن البعض أن تلك الكلمات التي نطلقها بلا أحساس وبلا مسؤولية على الآخرين ليست ذات قيمة وهي قد تحدث أثراً غائراً في النفس وسنجد أن غالبية البشر يتحدثون وينقولن ويروجون في مالايعرفون فيحدثون خراباً في الكثير من المفاهيم ويفسدون الكثير من المعارف والعلوم وينشرون اخباراً قد تزيف حقائق الأشياء وقد يقضون على مستقبل بعض الأشخاص الذي

سقطوا في اشاعات ليس لهم فيها دور . وقد تكون قاسية لدرجة أنها تنهي حياة البعض النفسية، ونحن جميعاً يخيل لنا أن هذه الأفعال و (الكلمات) لا تذهب بعيداً لكنها في الحقيقة تمارس في مجتمعاتنا تأثيراً يشبه تأثير الفراشة الفيزيائي في عالم الطبيعة ...[110]

ففي الثقافة الإسلامية تعتبر (الكلمة أمانة) بل أن اللسان هو مورد الهلاك للمرء حتى يتسآئل المؤمن هل نحن نفكر

---

109 تأثير الفراشة وهو قانون فيزيائي يعتبر أجنحة الفراشة وهي ترفرف قد تحدث تغييرات طفيفه بسيطة غير ملاحظة في الأجواء في لحظتها لكن هذه التأثيرات تنموا و تتضخم وقد تصل في نهاية المطاف لأحداث لأعصار في مكان ما من هذا العالم وهذا يعني أن الأشياء الصغيرة قد تحدث تأثيرات فائقة القوة والانتشار .

110 كانت رسالة الماجستير التي تقدمت بها ... في جامعة الملك عبدالعزيز تتحدث عن إنهيار السياق في مواقع التواصل الاجتماعي والواقع الافتراضي وتطبيق ذلك على منصة X... وكانت نتائج البحث مرعبة لأن هذه المنصات تحث الفرد على المشاركة الفاعلة وتستثيره بشكل فاعل في اخبار و أحداث ليست واضحة المعالم ولا واضحة السياقات والمؤسف بأنه يصدر أحكاماً دون العودة للسياق ودون الأكتراث به والأكثر أسفاً بأن النخب متورطة أيضاً في هذا على قدم المساواة مع العامة والبسطاء!

بجدية في كل هذه الأقول التي نقول، وبأثرها الذي تحدثه أليست الثقافة الإسلامية تخبرنا بأن هذه الأقوال سيتم محاكمتها محاكمة عادلة سواء نطق صاحباها بخير أم بشر ، إن الله تعالى يصف ذلك بقول:{وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا] الإسراء:36 و تأثيرنا في الآخرين يمتد إلى ماهو أبعد من البصر والسمع والكلام ويذهب لتلك العلاقات التي قد تتسبب في تسميم البيئة الأخلاقية ونهاية الثقة وتفشي الظلم بل قد نتسبب في انحراف أحدهم عن مساره والقضاء على مستقبلة .

وهذا يجعلني أتأمل نص تولستوي (البعث) هذه الرواية المؤثرة جداً تبين ذنب الكلمة المخادعة وغوايتها والاستهتار بالمسؤلية الأخلاقية تجاه " الآخر الضعيف" أنهت حياة شابة من فتاة بريئة إلي مجرمة ومومس وقاتلة أمام المحكمة ، هذا النص لم تتركني وشأني مدة طويلة وجعلتني أفكر في أحداثها لفترة طويلة لأن هناك عدم تكافؤ في تحمل تبعات الخطأ الأخلاقي ..! وهذه ميزة الأدب حقيقة أنه يجعلك تعيش حياة الآخرين بعقلك ووجدانك ، وتزيد من تجاربهم لتجاربك دون أن تكون فاعلاً في تلك التجارب ،111 في رواية البعث لتولستوي

111 و كل ماعليك هو أن ترفع كتاباً لتقرأ، وهنا ستتجول في كل أزمان التاريخ وتعبر المحيطات دون أن تتحرك من مقعدك الذي في مكتبتك ، وتكون سيد نفسك فلا تهيمن عليك رؤية مخرج ولا توجه شركة أنتاج تقول شيء وتخفي عنك أشياء ..

ويتضح فيها ذلك التأثير الغائر الذي يتركه البعض على الآخرين طيلة حياته .وهي ببساطة تعبر عن تلك التحولات التي يتعرض لها شخص عند انخراطه في علاقات اجتماعية تقوم الحياة فيها على (صراع طبقي مادي) كما يحدث في القرن الثامن والتاسع عشر في أوروبا ، وهي بشكل موجز تحكي قصة .. شاب ثري يدعى ديمتري ينتمي لطبقة "النبلاء " تلك الطبقة الارستقراطيه التي تعتبر أعلى فئة في مجتمعهم ويحصلون على امتيازات ووضع سياسي واجتماعي خاص كان يلقبهم الإسبان (بأصحاب الدماء الزرقاء) هذا الشاب ديمتري في بداية حياته لا يشبه تلك الطبقة رغم أنه نشأ بينها ، و التي ينتمي لها عرقياً ، لكنه كان مشغولاً بالعلم والمعرفة ومساعدة الأشخاص الآخرين وله قيم عليا سامية يعمل من أجلها وبها ، وقد يضحي بحياته من اجل تلك القيم الأخلاقية ، وكانت حياته ثرية هادئة مسالمة و ممتلئة بالخير، ويسعى بشكل دؤوب لنفع الآخرين، وينفق أمواله في هذا الجانب الأخلاقي كذلك على المساكين والمحتاجين والفقراء ، وحياته بشكل عام كانت غنية بالجانب الروحي (الإيماني) وكان نموذجاً للشاب المثالي في مقتبل العمر 112.

كما يحدث مع المسلسلات والأفلام ،، فمثلاً كيف تقنع من شاهد مسلسل الزير سالم أن كليب بن ربيعة لم يقتل التبع اليماني .! وأن كثيراً من أحداثه مفبركة ..!

112 هكذا يصف الروائي هذا الشاب

كان يحب شابة من الطبقة البسيطة اسمها كاترين ، يعرفها منذ طفولته وكانا كالأخوين كما يصفهم الكاتب. كانت كاترين قد فقدت أبيها وهي طلفة صغيرة، ومنذ طفولتها وهي تعيش مع خالتها في أسرة فقيرة في الريف الروسي وكانت ترى في هذا الشاب (ديمتري) المثال الأسمى للرجل النبيل والرائع والشجاع والكريم .

ولكن هذا الشاب ديمتري تتغير حياته فتجبره تلك الطبقته التي ينتمي لها في الأصل " الاستقراطية " على تغيير سلوكه ويضطر أن يلتحق بالحياة السياسية و العسكرية فيستيقظ في داخله وحش مخيف وهو وحش الأنا وحش التملك و السلطة وحش الهيمنة والاستغلال وحش اللذة وش الرغبات... ويتحلل مفهوم المسؤلية ويتفتت ذلك الشعور بالذنب ، **واستبدل إيمانه بذاته ليؤمن بالآخرين، لأن إيمانه بنفسه لم يكن عسيراً عليه، فعندما يؤمن بنفسه لا بد له من البحث عن حلول لمشكلات الذاتية ويعالج نفسه ليكون فاضلاً خيراً صالحاً مصلحاً يفيد ذاته ويفد الآخرين في مابعد و لا ينشغل لصالح الأنا الحيوانية، التي تسعى للسيطرة والهيمنة والشهرة والمكانة والرغبة ...**وعندما يؤمن بالغير فإنه ينحاز لمصلحة الأنا المادي ضد الأنا

المعنوي 113 ومع مرور الزمن يغرق في حياة الخطيئة حتى تحولت حياته تماماً من حياة الإنسان الفاضل لحياة الإنسان الشهواني الأناني ، وكان هذا التأثير قد أخذه من الطبقة الاستقراطية التي قرر الإنتماء لها وبات يحتقر تلك الطبقات الدنيا والأعراق والأجناس الأخرى .

عاش ديمتري دهراً من الزمن وحدثت قطيعة وغياب دام مدة طويلة جداً ولكنه بعد هذه المدة الطويلة يلتقي بتلك الفتاة و تصدم تلك الفتاة من سلوكه وتصرفاته الوحشيه والتغييرات التي حدثت لشخصيته ، فيقوم (ديمتري) الشاب ليعتدي عليها جسدياً بطريقة وحشية ، ويترك لها مبلغاً من المال بعد هذا الاعتداء الإجرامي الفض و البشع.

هذا الفعل من ديمتري يحدث في نفس تلك الفتاة ألم غائرة وصدمة كبيره جداً يجعلها تنحرف في سلوكها انحرافاً في غاية الشطط و جنونياً تماماً، فتسقط في ممارس البغاء والجريمة والسرقة و كل أنواع الفساد وتسقط في مستنقع الرذيلة.

وفي المقابل لم يكن ديمتري في معزل عن هذا الصراع الداخلي بين الخير والشر بين الفضيلة والرذيلة وتعيش المتناقضات في داخلة و في ضميره ويشعر بالكثير من

113 الرواية تزيد عن ٨٠٠ صفحة ولها عدة ترجمات و أحداها ترجمة . لوكالة الصحافة العربية . مختصرة في ٢٠٠ صفحة ويقدمها صبحي جلال بتقديم لطيف . Gutenberg . نقل بتصرف .

قراراته الخاطئة والألم وسوء السلوك وجرمة الذنب، وتلك الحياة الفاسدة التي تقوم على الأنا المتوحشة الأنانية المتمركزة حول ذاتها ، هذا الصراع الداخلي يجعله يترك العمل العسكري والسياسي تماماً ويذهب للعمل في القضاء رغبة منه في أن يعود لما كان عليه ، و بعد فترة ووقت من عمله في القضاء يتفاجأ بدخول امرآة مدانة بجرمة قتل، ويتفاجأ من هذا الفعل البشع الصادر من أنثى في غاية الشراسة ..! لكن تلك الأنثى هي (كاترين) فيصاب بانهيار نفسي و وصدمة كبيرة وتتملكه حالة هستيرية في محاولة تبرئتها وتنزيهها مما وقت فيه من جريمة القتل، وهو في أغوار نفسه مدركاً أنه كان سبباً جذرياً في تغيير سلوكها وانحرافها ذلك الانحراف الفاسد الذي حدث لهذه الفتاة (كاترين) وماسببته أفعاله وسلوكه تجاهه من خزي وعار ويتملكه الشعور بالذنب والألم ... للقصة الكثير من الأحداث لكن مايهمنا هنا هو هذا التأثير الغائر الذي نحدثه في الآخرين، بكلمة أو بحركة أو بفعل أو بسلوك معين دون أن نهتم أحياناً و دون أن نكترث أو نعرف سواءً بقصد أو بدون قصد ، وهذا يحدث في داخلهم تأثير الفراشة الفيزيائي فتتعاضم هذه الأفكار حتى تخلق صراعاً من المتناقضات المحملة بالكثير من الوسوسه والتوجس لدى الطرف الآخر وهذا ليس أخلاقياً في أفق الفلسفة وليس من نهج المؤمن في أفق الدين لأن الإسلام يحثنا على الإحسان

أثناء حديثنا للناس، ويقول الله تعالى { وقولوا للناس حسنا} البقرة آية ٨٣. باللين واللطف وتقدير مشاعر الآخرين ، وليس هذا نهاية الطريق فالمحاكمة العادلة لسلوكياتنا أيضاً لاتزال في العالم الآخر... يقول الله تعالى { ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا} الإسراء ٣٦ ويقول الله تعالى { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ } سورة يس آية ١٢. أذن فالإسلام يجعل الأثر يبقى ويكتب ويتم محاكمه ومسائلته في الآخرة ولعل غياب وعي بعض الأفراد عن هذا الأثر يولد عندهم شعور الامبالاة تجاه الأشياء مع جهل مركب وغياب عن القراءة ومصادر المعرفة وابتعاد حتى عن أبسط تبصرات تلك الأعمال الأدبية العالمية المتاحة في كل مكان ، ورغم كل ذلك يبقى أكثرهم أثراً هو استشعار قرب الموت هو مايدفعنا لتأمل ذلك الأثر العميق في الآخرين بحزم وصدق تجاه الذات وتجاه الحياة ، و للأدب الروسي قدرة كبيرة في الإقتراب من الشخصية الإنسانية وفرادة عالية تميزه عن غيره حتى في وصف مشاعر الإنسان عندما يشعر بقرب أجله وبداية فهمه الحقيقي للحياة .

ففي عام 1849م تأثر الكاتب والأديب دوستوفسكي ببعض الأفكار السياسية في عصرة ولم يتجاور حينها سبعة

وعشرين عاماً ، كان متهماً بأنه يريد أن يقوم بمؤامرة ضد قيصر روسيا ، وهذا الفعل ساقه في نهاية المطاف إلى السجن ثم لساحة الإعدام ، وكما هو الحال مع المستبدين فقد تم تقرير الإعدام عليه وعلى كل من كان معه و هذا القرار لا يختلف عن شرب كوب القهوة في الصباح الباكر عند هؤلاء ، هو فقط يقرر دون أن يجهد نفسه أو يشغلها بالتفكير هل كان القرار عادلاً أم لا ، كان هذا المشهد المهيب المخيف المربك يجعل ديستوفسكي يكتب أهم رسائله لأخيه وهي من أهم الرسائل الأدبية التي قرأتها على الإطلاق، فقد تم العفو عنه من ساحة الإعدام قبل تنفيذ الحكم بلحظات، وهذا النص يشعرك بحجم وقسوة وقلق تلك التجربة التي عاشها و ذاقها والتي جعلته يعرف قيمة الحياة وأهميتها في مابعد وهذا مالا يشعر به الكثير من البشر رغم أن هذه التجربة سنعيشها جميعاً في لحظة محددة وكما يقال "...لقد نقلونا إلى الساحة العامة لسجن القلعة، وهناك قرأوا علينا حكم الإعدام...وكسروا سيوفنا فوق رؤوسنا باعتبار أننا انتهينا. وبعدئذ اغتسلتُ غُسلة الموتى، ثم ألبسونا الأكفان، يا أخي. صفّونا ثلاثة، ثلاثة على الجدار تمهيدًا لرمينا بالرصاص و كان ترتيبي السادس، وكنت أنتمي إلى الوجبة الثانية التي سينفذ فيها حكم الإعدام. لم تبقَ لي إلا دقيقة واحدة لأعيشها. في تلك اللحظة فكرتُ فيك يا أخي، وفي اللحظة القصوى التي لا

تتجاوز الثواني، كنت أنت وحدك في خيالي، وعندئذ عرفتُ إلى أي مدى أحبك، يا أخي الحبيب. وقد أبلغت أنهم، يا أخي الحبيب، سيرسلونني اليوم أو غدًا... طلبتُ رؤيتك فأخبروني أن هذا محال، وأن كل ما يستطيعونه أن يسمحوا لي بالكتابة إليك... فقد نظرتُ من نافذة العربة التي حملتنا إلى ساحة الإعدام، ورأيت في الطريق جمهورًا كبيرًا ـ وبعد الإفراج عنهم كتب هذه المشاعر ـ الحياة في كل مكان هي الحياة. هي بداخلنا، وليست فيما هو خارج عنا. سيكون قريبًا مني أناس، وسأكون رجلًا بينهم، وأبقى كذلك للأبد، ولن يهن قلبي أو تفشل عزيمتي أمام المصائب، وهذا – في اعتقادي – هو الحياة أو الواجب في الحياة ... أجل، ما زلتُ أرى الشمس... أوصيك بالعناية بنفسك وأولادك، وأن تعيش في هدوء ويقظة، وأن تفكر في مستقبل أولادك. عش عيشًا إيجابيًا. إني ما شعرتُ قط بوفرة الحياة الروحية في شخصي كما أشعر بها الآن...لقد كنت في قبضة الموت ثلاثة أرباع الساعة، وعشت هذه المدة بهذا الخاطر، وبلغت آخر لحظة من الحياة، وها أنا ذا حيّ مرة أخرى ... شعرتُ اليوم بالراحة وأنا أودع أحبابي الأعزاء قبل الموت، وخطر ببالي في هذا الوقت أن خبر إعدامي سيقتلك،... **عندما ألتفت إلى الماضي وأتذكر مقدار الوقت الذي ضاع عبثًا، وكم منه ضاع في الأوهام والكسل والجهل بالعيش، وكيف أني لم أقدر**

الوقت حق قدره، وكيف جنيت على قلبي وذهني، أحس أن قلبي يسيل دمًا. أجل، إن الحياة عطية، وهي سعادة، وكان من الممكن أن نجعل من كل دقيقة منها عصرًا طويلًا من السعادة. الآن حياتي تتغير، وأنا أولد من جديد في شكل آخر. أخي، أقسم لك أني لن أفقد الأمل، وسأصون روحي وقلبي في الطهارة، وميلادي الجديد سيكون إلى حال أحسن من حالي الماضية، وهذا كل رجائي وعزائي.... تذكر عندئذ ما أخبرتك به: لا تعش جزافًا... "114 إن قول ديستوفسكي " الاقتراب من الموت فجأة يدفعنا بقوة إلى الإنتباه " وهذا الإنتباه هو الحياة إن هذه الأحداث تصعقنا كصعقة الكهرباء. فتعطينا دافعاً قوياً للإنتباه والتعقل والتفكير العميق في كثير من تصرفاتنا وأفكارنا ، الإنتباه لكل مايحط بنا والإنتباه لدواخلنا ولأعماق أنفسنا .. إن مواجهة الذات يتجنبها الحمقى فقط أما الحكماء والطيبون والصالحون فهي الدليل والمرشد في معالجة ذواتهم وهناك فقط يجدون السعادة ، في الداخل لأن ذلك يساعد في فهم العالم الخارجي بهدوء وعمق وتسليم لأقدار الله في الوجود دون عقلنه زائد عن الحد ...

114 رسالة فيودور دوستويفسكي إلى أخيه ميخائيل من قلعة بطرس وبول (حصن بطرسبرغ) – 22 ديسمبر 1849 ص الرسائل ترجمة خيري الضامن ص ١٥٠ - ١٥٦ .

تخيل أن تنظر للعالم وكأنك تنظر له للمرة الأخيرة ، تخيل أن تنظر للبشر والأصدقاء وكأنك تنظر لهم للمرة الأخيرة ، تخيل أن تخاطب الناس وتتعامل معهم وكأن هذا هي المرة الأخيرة التي تخاطبهم فيها وأن هذه الكلمات التي تنطقها وتذهب لمستقبلها هي آخر الكلمات التي تخرج من منك ...

تخيل أن تلك القبلات المليئة بالحب والعاطفة والشفقة والرحمة لأطفالك ستكون هي آخر قبلات ستقبلها لهم ..

تخيل أن تعاملك تجاة قضية أخلاقية وحكمك عليها هو آخر شيء ستنطقة في هذه الحياة ..

تخيل أن أحكامك على الناس (بتعميمات كليه وبلا مبالاة غالباً)، بأنها هي آخر ماسوف تنطق به في هذه الحياة وأحكامك عليها ستكون هي آخر ماسوف تقوله .

إن هذا التخيل البسيط يجعلك أكثر شعوراً بالمسؤلية تجاه الكلمة ويزيل عنك الضجيج المحيط بك الذي يجعلك تنسى نفسك وتنخرط في دوغمائية شعبوية . وتدرك أن الانسان عندما تغزوه مشاعر المحاكاة في سلوك الآخرين يمارس شيء من الثقة فيقول الظلم الرمزي والجسدي تجاة الأخرين ولا يبالي ولا يهتم في مايقول ،ما يفعل ويشعر بعدم الاكتراث تماماً ويكره أن تقدم له النصيحة وكأنه

كوكب تدور حوله الكواكب جميعهاً .! هذا الشعور بالامبالاة والعبث لم يتجاهله القرآن يقول الله تعالى : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } 115 إن الشعور بالمسؤلية هو نابع من الإيمان الصادق وليس نابعاً من العدمية، فعندما تشعر بالمسؤلية تجاة ما أنت مسائل عنه فإن هذا ينبع عن إيمان صادق في قلبك... تخيل فقط شعور الإنسان و كيف يتغير تماماً عندما يتسرب له شعور بأنه أدرك حتمية الموت أو اقترب منه .! مثلاً عندما يلدغ إنسان من أي نوع من أنواع الزواحف أو الحشرات السامة في غابة أو في وسط الصحراء، فإنه حتى وقت اللدغة من هذه الحشرة السامة ولدقائق معدودة لايزال على قيد الحياة و لم يمت بعد، لكنه يعي أنه في طريقة للموت ـ أو يخيل له ذلك ـ ولأن مفهوم السببية متجذراً في أغوار نفسه فإنه يدرك حتمية النهاية ، و هذه اللدغة قلبت هرمون الأدرينالين رأساً على عقب فأدرك النهاية و أنه مغادر لا محالة وأن الدم سيتخثر بعد دقائق معدودة وقد لا يصل للدماغ بسبب ذلك السم ومع كل هذا ... يتعامل مع كل لحظة بجدية وصدق ، يأمل في النجاة من الموت ويرتبك في مواجهة الموت، هل ذلك بسبب خوفة من الموت والعالم الآخر الذي كان لايلقي له بالاً ولا يهتم به ..!أم أن ذلك

115 سورة المؤمنون آية ١١٥

رغبة جامحة غريزية منه في حاجته بالبقاء على قيد الحياة ...

وعندما ينجو من ذلك الخطر مثلاً لأمر قدره الله ولا يتعرض لسوء فهل سيكون ذلك الحدث له تأثير غائر في رؤيته للوجود وللحياة ...؟ بكل تأكيد نعم .

إن رؤية ذلك الشخص للحياة قبل تلك اللدغة وبعدها تختلف كلياً ، لأنه **يعد انقلاباً في وعيه، ولن يرى الحياة كما كان يراها من قبل،و تلك اللدغة** يشبه ذلك الشعور الذي يشعر به في الحقيقة عشرات الأشخاص على الأسرة البيضاء الذين يعانون من أمراض لا أمل للشفاء منها ويتناثرون في مستشفيات العالم ومحملين بالكثير من المشاعر والهموم والآم التي لايعرفها الأصحاء، وهاؤلاء المرضى لغتهم غالبهم لاتسعفهم للكتابة والتعبر عن تلك المشاعر باستثناء قلة قليلة جداً ، ورغم حجم ألمهم إلا أننا بعد التفكير والتأمل سنلاحظ أن تلك اللدغة في الحقيقة تولد معنا منذ الطفولة وقرصة الثعبان لا تفعل أكثر من التعجيل بعملية الموت التي هي مصرينا الحتمي الذي يعيه كل أحد لكننا عندما نعرف تحديداً متى سيكون موتنا تقريباً هنا ستكون أعظم الآلام ... ويكفي أن تشاهد كم غيرت تجربة المرض عشرات الأشخاص على هذه الأرض .

الموت وضرورة المرجعية الصلبة .

لماذا لابد أن تكون لك مرجعية فكرية صلبة في هذا الفضاء الفكري التي تنتشر فيه (النسبية والعبثية)...؟

في هذه الوقت تحديداً مالم تكن لك مرجعية لها الكثير من القيم الصلبة التي تجعلك تعود لها في قراءة أحداث الحياة وإلا فإنك ستكون في هذا الفضاء كالمجنون الذي يسير بغير هدى ولا يعرف أين يتجه أو كحاطب ليل يأخذ كل شيء ولا يعلم هل في هذا الحطب ثعبان ام عقرب.!

والمرجعية يمكن توضيحها بتعريف يعجبني جداً يقول عبدالوهاب المسيري :" الفكرة الجوهرية التي تشكل أساس كل الأفكار في نموذج معين والركيزة النهائية الثابتة له التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها والمبدأ الواحد الذي ترد إليه كل الأشياء وتنسب إليه ولا يرد هو أو ينسب إليها ... وهي المطلق المكتفي بذاته الذي يتجاوز كل الأفراد والأشياء والظواهر وهو الذي يمنح العالم تماسكه ونظامه ومعناه ويحدد حلاله من حرامه ... وعادة مانتحدث عن المرجعية النهائية باعتبار أنها أعلى مستويات التجريد ، تتجاوز كل شيء ولا يتجاوزها شيء "116 ولو أردنا أن نبتعد عن المفاهيم الأكاديمية سنقول مثلاً :

تخيل نفسك في مركبة فضائية وهذه المركبة له سرعة محددة وطول محدد وعرض محدد ومن خلال هذه المركبة يمكنك أن تفهم المسافة التي تفصلك عن الأشياء البعيدة والقريبة المرتفعة والمنخفضة عنك وتقيس من خلال (هذه المركبة) سرعة هذه المركبة بالنسبة للأشياء حولها و العالم المحيط بها فلا يمكنك فهم شيء في الزمان والمكان إلا من خلال هذه المركبة ، وليس لك إلا أن قياساً على هذه المركبة التي أنت عليها، ومن هنا تكون هذه المركبة هي المرجعية الأولى لمفاهيمك ولابد أن تكون مركز

116 موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية . نموذج تفسيري جديد ج 1 ص 54

أعتمادك على فهم هذا الواقع المحيط بك ، و الذي أنت فيه لأنك إن لم تفعل فستسبح في هذا الفضاء الفكري بلا فهم ولا وعي ، ولا يستقر لك قرار ، ولايمكنك اصدار أي حكم لأن أحكامك هنا لاتكون وفق مرجعية بل وفق أشياء نسبية وبالتالي فهي غير مستقره لأن قولك نسبي وتتحول هذه النسبية لمرجعية في ذاتها من حيث لم تدرك ذلك وهنا تستحيل المعارف والعلوم والأفكار والفلسفات بشتى توجهاتها .

و لكي لا تغرق في نسبية الأفكار في هذا الفضاء المفتوح لابد أن تقف على مرجعية متجاوزه و صلبه ، **ولابد لهذه المرجعية أن تكون شمولية فتفسر لك الوجود ومابعد الوجود حتى تكون متماسكاً في رؤية كلية واحده ، من خلالها يكون لك بنائك المعرفي** ، ولكن اذا قررت أن تفهم كل هذا الفضاء الفكري دون أن تضع لك مرجعية فأنت كمن ينقش على الماء أو يرسم على الرمل ، لأن كل ماسوف تفعله لاقيمة ولا فائدة فيه ، المرجعية مهمة جداً وهذا مايفعله جهابذة المفكرين في العالم وفي كل التاريخ ولن تجد فيلسوفاً معتبراً إلا وله مرجعية يبني عليها بناؤه الفكري ، و يصف المسيري المرجعية المتجاوزة في النظم التوحيدية وهو (الإله) الواحد وهذا يروقني كثيراً فالقرآن هو المرجعية المطلقة عند كل المسلمين يقول الشاطبي

رحمه الله : " إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة ، وعمدة الملة ، وينبوع الحكمة وآية الرسالة ، ونور الإبصار والبصائر ، وأنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا اتجاه بغيره ، ولا تمسك بشيء يخالفه ، وهذا كله لايحتاج إلى تقرير واستدلال عليه لأنه معلوم من دين الأمة ، وإذا كان كذلك لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها ، واللحاق بأهلها ، أن يتخذه سميره أنيسه وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي ، نظراً وعملاً لا اقتصاراً على أحدهما ، فيوشك أن يفوز بالبغية ، وأن يظفر بالطلبة ، ويجد نفسه من السابقين ، وفي الرعيل الأول "117 وكذلك صحيح سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته التي يصفها ابن حزم بأجمل وصف "من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليعتمد أخلاقه وسيره ما أمكنه ... إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة وتشهد له بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه وسلم لكفى ... وذلك أنه عليه السلام نشأ كما قلنا في بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ولا خرج عن تلك

117 الموافقات لابي إسحاق الشاطبي م ٧٩٠هـ . ج ٤ ص ٦٩١

البلاد قط إلا خرجتين ...ولم يطل بها البقاء ، ولا فارق قومة قط ، ثم أوطأه الله تعالى رقاب العرب كلها ، فلم تتغير نفسه ولا حالت سيرته إلى أن مات ودرعه مرهونة في شعير لقوت أهله ، ولم يبت قط في ملكه دينار ولا درهم وكان يأكل على الأرض ماوجد ويخصف نعله بيده ويرقع ثوبه ويؤثر على نفسه "118 وهنا نلاحظ أن القرآن وصحيح السنة غايتهما الاجابة عن سؤال لماذا أنا هنا على هذه الحياة وماذا يجب علي أن أفعل ... وتبيين وإيضاح أن الفرد مسؤولاً تماماً عن نفسه وعن تصرفاته وله حرية أراده في أن يفعل وأن لا يفعل ،، فإن الله يقول: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُون} الصافات آية ٢٤:وهنا سنبدأ بقيمة المسؤلية والتي يمكن أن نعيدها لمرجعية مطلقة متجاوزة وهو القرآن ، والذي يشترك في هذه المرجعية مايقارب اثنين مليار مسلم و تتجلى في كتاب الله تبارك وتعالى مفهوم مراجعة الذات ومحاسبتها فقد أخذته أيضاً من قولة تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}المائدة: 105 إن هذا هو مايقر به القرآن والسنة كذلك أو تلك التي تسعى لأن تجعل من الإنسان كائن ذا قيمة في هذا الوجود ، إن الفلسفة الأوروبية الحديثة عاشت

118 جوامع السيرة . ط المعارف . ابن حزم الاندلسي المجلد ١ ص ٢

صراعاً مع الإيمان وقد جسد هذا الصراع الأديب الروسي بوصف بديع قائلاً : " إذا لم يكن الإله موجوداً فكل شيء مباح ..! " 119 و كان عصر النهضة هو الإنشقاق بين الإنسان والطبيعة وهو منبع الفكرة القائلة بوجوب سيطرة الإنسان على الطبيعة وترويضها هذه النزعة في العقل الديكارتي تفترض أن عقول البشر متساوية دون الإعتبار لأي فوارق أخرى ، وهي نزعة هيمنة وسيطرة وسلطة وبسط نفوذ كانت بذورة الأولى رغبة في السيطرة على الطبيعة وإنتهى بنا المطاف اليوم للسيطرة ليس على الطبيعة وحدها والتعامل معها بشكل فج فضيع بل حتى على البشر بعقلية راسمالية ذرائعية مادية تتعامل مع البشر كأشياء، حتى بات الإنسان أشبه بآلة بايلوجية ..! لقد كان يقول ديكارت " إن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس "120 وبعد مرور مئات من السنين أثبت لنا التاريخ العلمي والعقل الغربي ذاته أن هذا ليس صحيحاً بإطلاق ، وذلك من وجهين الأول أن الإنسان (مع الاوعي...) لا يوجهه عقله بل الاوعي فيه يأخذ دور الموجه ، والإنسان لايشبه الإنسان الآخر في طريقة تفكيره وبنائه العقلي و في معارفه وأفكاره ، وأثبتت ذلك ثلة من النظريات الفلسفية

119 الأعمال النقدية الكاملة . جورج طربيشي ص ٣٢٧

120 مقال في المنهج الجزء الأول والصفحة الأول ...

منذ كانط مروراً بفرويد ويونغ و ادلر ووصولاً لفوكو وجاك لاكان... إذن فالإنسان ليس ما يوجهه هو العقل بل المشاعر وتكوينه الجيني الذي له دور غائر في سلوك الإنسان وهنا الكثير من القول في هذا الشأن... ونلاحظ الخصومة النخبوية المنهجية بين كبار فلاسفة العلم وتوظيف الذات للمنهج واستخدام الحجج العقلية لغايات ذاتيه لا موضوعية رغم إدعاء الموضوعية .

وقد حل القدماء هذه المسألة بقول (العقول تختلف في قدرتها على تبصر الأشياء) وليس من الممكن فهم العقل دون فهم اللغة ، وفهم تكون اللغة ، وليس العقل كما يعرفه الغزالي بأنه محك النظر وينتهي كل شي ... إن فهم العقل مرتبط بفهم الوعي أو الإدراك. وفهم اللغة ذاتها لاينفك ضرورة عن الوعي وعن عالم اللسانيات من الأحياء اللغوية إلى اللغويات العصبية وعلاقتها بالرياضيات والمسألة في هذا تطول ، وفهم نشأة اللغة مهم في إصدار الحكم على حقيقة مصدر المعرفة الإنساني ، و الأبحاث الحديثة في تكوين اللغة كذلك حتى آخر تطوراتها في النحو التوليدي التحويلي كما يقول تشومسكي الذي يكون في بنيان اللغة ذاتها ، وقد يطيب للبعض القول بأن الشك في كل شيء يأتي قبل اليقين لكن هذا محصوراً في الحقيقة في المنهج العلمي الطبيعي و البحثي ولايمكن تطبيقة على

واقع الحياة اليومية. فأنا أثق في الطباخ وإلا كيف أجلس على طاولة المطعم وآكل بلذه .! دون خوف أو توجس بأنه سوف يقوم بتسميمي. وأثق في السواق الذي ينقلني من مكان إلى مكان وإلا كيف أركب معه ولم أعرف شيء عن أفكاره وماذا يريد في قيادته للسيارة .! وأثق في صانع الحلوى والآيسكريم ... في الطرقات العامة رغم أني لا أعرفه وإلا كيف أشتريها ..! كان ديكارت يريد أن يثبت أن الله موجوداً ووجوده مرتبط بالذات . فإن أثبت أن الذات مفكرة فإن وجود هذه الذات كمركز للتفكير مرتبطاً بإثبات وجود الله . و أتى كانط لجعل الله جزءً من الأخلاق لا غير .! وأتى هيغل ليبني تصوره الفلسفي التي تفوح منه رائعة المسيحية ويقدم لنا ذلك المفهوم المطلق المهيمن على الوجود من خلال تجليها وتطورها عبر التاريخ وهذا التطور يكون من خلال جدلية تجمع الفكرة بالوجود ، وهنا شوبنهاور يعيد الوجود لإرادة شريرة ويخلق صراعاً نسوياً معاكساً لكل ماهو ذكوري وأظن أن هذا الرجل تحديداً هو المدشن للعبثية في عالم اليوم... ويأتي ماركس ويعيد برمجة فلسفة هيغل وينقل صراع الأفكار إلى عالم الاقتصاد و يتحول الاقتصاد إلى بنية جوهرية في حركة التاريخ أي أن الاقتصاد هو من يشكل فهم وجود الإنسان وثقافته ودينه وتصوراته وليس العكس وأن حركة الإنسان في التاريخ حركة أقتصاديه... وأخيراً يأتي نيتشه ليفتت

القيم تماماً ويجعل كل شيء فيها نسبي تماماً و يقول لنا أن الإله ليس في الخارج بل في الداخل هناك في جوهر الإنسان الأعلى و الإنسان في طريقه إلى (هذا الإنسان المنشود .!) ويجب أن يركض الإنسان في ميدان التطور و التقدم لتحقيقه، و الوصول إليه وفق نيتشه ممكن والنتيجة النهائية سيكون بالقضاء على الموت وبقاء إرادة القوة والنفوذ والذكاء والهيمنة ..! ويجعل نيتشه الأخلاق ببلاغته اللغوية خلف ظهره ويؤسس الأخلاق على مفهوم القوة لأن الأخلاق في رأيه متأثرة بالجمال وليس بالحق ، وهذا التضخم والنرجسية في العقل النيتشوي يتضح فيها إدعاء طلب الحقيقة ، و وتأتي الحرب العالمية الأولى لتحصد سبعة وثلاثين مليون إنسان ..! مات ستة عشر مليون نسمة منها والبقية في طريقهم للموت حصدتهم كما تحصد مكينة مزارع القمح رؤوس القمح من الأعلى ..! وهنا يختمم فرويد وفلاسفة القرن العشرين بأن الإنسان يقوده اللاوعي وليس الوعي ويسير في ركبه جماعة من الفلاسفة والعلماء بأن الإنسان محكوم بحتميات بايلوجية تتصرف فيه وتعيد توجيه ... مثله مثل الحيوانات تماماً لافرق ... أين الإرادة الحرة .؟ لقد كانت وهماً ...؟

حتى تلك اللغة التي تميز الإنسان عن غيره آراد داسوسير أن يعلمنها ويسلبها كل جمالياتها ويجعلها جسداً بلا روح ،

وأخيراً يتم إعلان موت الإنسان على يد مجموعة فلاسفة القرن العشرين بعد أن حصدت الحرب العالمية الثانية أكثر من خمسة وثمانين مليون قتيل ..!! هنا صرح صديق النازية هايدرغر بعبارته التي يتناقلها الفلاسفة " بأمل ديني صوفي يعبر عنه بقول ...لن ينقذنا سوى الله "121 وبقي حياته يسير خلف المعاني الصوفية والبوذية و الوثنية الشرقية يستلهم منها معاني الوجود .! وهذا هو ميشيل فوكو يصرح ويذهب لما هو أبعد من معنى وجود الإنسان ليقول بأنه قد مات .! و ليؤكد (أن الإنسان لم يكن موجوداً أصلاً ..!)122 هذه أهم محطات الفكر الأوروبي فإذا كان الإنسان غير موجود فمن أين تأتي تلك القدرة للإنسان الحديث على تقبل و احتمال وجوده في هذا الوجود ...! حتى تلك الفلسفات التي تحاول أن تزرع في الإنسان ذلك البعد الوجودي والمسؤولية الذاتية تجاه الوجود (كوجودية سارتر مثلاً) تبين أن الإلحاد والعدم ينخرها في باطنها فهذا سارتر يفرغ الوجودية الكيكيغوردية من ذاتها ويقدمها بطريقة أدبية يتراقص على ألحانها بعض المثقين العرب ويسرق من الوجوديه أهم مافيها وهو (الإيمان) و يأخذ

121 نداء الحقيقة . عبدالغفاري مكاوي ص ١٥

122 ميشيل فوكو فيلسوف فرنسي ملحد و متأثر بفلسفة نيشته ويعتقد أن الإنسان الحالي ليس هو الإنسان المنشود وهذا الإنسان قد مات أو هو في طريقه لذلك يقول " إن الإنسان الأرقى ليس أفولاً للناس الموجودين أو فقط تغييراً لمصطلح .! إنه بزوغ شكل جديد غير الله والإنسان والذي نعقد الأمل ألا يكون أسوأ من الشكلين السابقين ".. سؤال الأخلاق في الحضارة الإسلامية . مجموعة مؤلفين .

بيد الإنسان المتأثر به إلى منفاه الإيماني الأخير ويقدم له أنقلاباً نيتشوياً في وعيه و يقول له: إن " الوجود يسبق الماهية ".!123 أي أن الإنسان يحقق وجوده و ما سوف يكون فيه مستقبلاً وهي التي تحدده.. هكذا بكل بساطة .. وبكل سهولة ..! دون اعتبار وتأمل في حقيقة الواقع وبشكل عقلاني لأحداث التاريخ وتعقيد العلاقات الاجتماعية وتقلبات السياسة ومفآجآت الواقع ...فقط أفكار يؤمن بها وسوف يصل لها فوراً ، كما تروج المفرقعات الفكرية للتنمية البشرية ...! **وكأنها حالة خلاص طوباوية ...** لكن تأثير نيتشه وأفكاره الطوباوية (الإنسان الأعلى) غائر في نفوس الكثير من الفلاسفة بعده... وقرر سارتر أن يؤسس مفهوماً يتحول هذا المفهوم لمرجعية مطلقة في رأيه وهو أن يستبدل الإله بالحرية124 ويحولها هي إلى مطلق (إله آخر) ويطوق هذه الحرية بمسؤليات الفرد تجاة الإنسانية والوجود بعد أن فرغها من كل ماهو مقدس ومتجاوز للطبيعة بشكل لايخلوا من سذاجة و لم يترك بعض فلاسفة القرن العشرين مثل هذه الأفكار تمر مرور الكرام

123 أنت تحدد ماتكون عليه عند سارتر وليس العكس ، هذه المقولة اذا أخذناها من السماء (سماء الأفكار) وجعلناها تعيش بيننا على أرض الواقع ، يتضح لنا كم هي مزيفة ومخادعة لأن مايحدث على الأرض ليس المتوقع (بل الامتوقع) في الاقتصاد والسياسة والفكر والفلسفة وكل جوانب الحياة هذا مايقوله التاريخ تماماً ونحن هنا لاننكر مفهوم السببية أو فكرة الهيمنه فهذه حقيقة واقعة . بل ننكر مايمكن أن يسمى في علوم التنمية البشرية (أنت ما تريد أن تكون) . وكأن ذلك ممكن بإطلاق...

124 دلالة مفهوم الحرية ينتفي عندما لايربط بمفهوم آخر (كالحرية والقانون أو الحرية والصحافة أو الحرية والأخلاق ...) لأن هذا المفهوم في ذاته لايعني شيء ولايمكن التعامل معه كمفهوم صلب عند الأذكياء .

وخصوصاً لسدنة العقل الديكارتي والعقل الماركسي والعقل كانطي أمثال جورج لوكاتش وهربرت ماركوز و جون رولز و تشومسكي ...إلخ

هذا موجز مخل بلا شك . لرؤية غربية للإله و للإنسان و للطبيعة.. وهذا النموذج التفسيري إن صح لنا التعبير عنه تم تعميمه بطريقة واعية وغير واعية في ميادين الفكر والثقافة على مستوى العالم وكأن الأفكار الغربية مركز يدور حوله كل هذا الوجود .! لقد أنتشرت في ميادين الفكر وتشربتها النخب التي تعاني من (الإستعمار الثقافي والفكري) ولا أقصد بالنخب التي تأخذ الخير في كل شيء بل النخب التي تأخذ (من هذا الغرب) كل شيء وفي كل شيء وعن كل شيء دون مساءله ودون تحقيق وبحث، وحتى في كثير من المواقف دون فهم .!

وها هو يطرح سؤال المعنى في ميادين الفكر الغربي ، وهاهو الإنسان من جديد يفقد المعنى عندما يتحول لشيء من ضمن الأشياء في هذا الوجود . إنه يرى قردة حديقة الحيوان في الإجازة الأسبوعية أبناء عمومته .! ولاغرابه ـإذا كان هذا تصوره ـ لا يعرف لماذا يعيش ببساطة .!؟ أو ما معنى حياته أصلاً ...

لكن عندما يعرف أن لحياته غاية أو معنى يعيش من أجله و إيمان يسلم به ورسالة يقوم بأدائها ، وأن وجوده ليس

صدفة أو عبثاً وأنه يحمل مسؤولية وجوده على الأرض وأنه محاسب في مابعد في عدالة مطلقة ، فإنه سيدرك حينها أن حياته تستحق أن تعاش وأنها في غاية الأهمية ، وليست عبثاً كما هو الحال في روايات ألبير كامو.

وهنا لا أقصد بالضرورة أن يرسم الإنسان تلك التصورات البطولية و يخطط لتغيير العالم بطريقة مثالية ...ويعيد صياغة التاريخ... فهذه الغايات الكبرى ليست بالضرورة متاحة لكل البشر وليس بالضرورة أن يفعل ذلك ويستطيعه كل أحد ، وليست جميعها مستحيلة.

فأنا مثلاً لا أتصور نفسي أملك قدرة في التأليف والكتابة كما هو الحال عند ابن حزم رحمه الله مثلاً فأكتب مايزيد عن ٧٠ ألف ورقة ..! أو بقدرات ابن تيمية في الحفظ فأضع يدي كما كان يفعل رحمه الله على الصفحة اليسرى أثناء القراءة وأحجبها عن بصري حتى لا تسبق لها عيني فأحفظها، ولا أن أصنف في الفنون مثل ابن عقيل مايزيد عن ٤٠٠ مجلد وكل هذه النماذج وأكثر ليست متحققه فيني صراحة، وهي همم ومواهب وقدرات تختلف باختلاف البشر فكل ميسر لما خلق له وأحياناً تكون لذة الحياة في تلك التفاصيل الصغيرة جداً في حياتك رغم بساطتها إلا أنك تنجز ماتضن أنه يستحق الجهد والعمل ، وكان الإمام **مالك رحمة الله على حق عندما سأله أحدهم لماذا لم**

تنشغل بالعبادة وتترك نشر العلم فقال :" إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الصدقة ، ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الجهاد ، فنشر العلم من أفضل أعمال البر ، وقد رضيت بما فتح لي فيه أرجوا أن يكون كلانا على خير وبر "125 وهذا من روائع مالك رحمه الله فالله قسم بين الخلق المواهب والقدرات كما قسم بينهم الرزق وقد تحاول وتجتهد طول حياتك أن تكون كمالك رحمه الله ولا تستطيع ولا يقدر لك ذلك ، فالمواهب العقلية مختلفة بين الخلق، ولهذا تجد جهابذة العالم ومغيري التاريخ قله كما يقال في علوم الإدراة والتغيير بأن: من يقود المجتمع فكرياً في كل عصر لايزيدون عن 2٪ فقط من أفراد ذلك المجتمع ، فقدرات البشر في الأًصل ليست متساوية وذكائهم ليس واحداً وطبائعهم مختلفة بل الاختلاف هو الأًصل وبهذا تختلف تصوراتهم وافكارهم ، صحيح أن هناك صفات نتقاطع جميعاً فيها ، لكن ليس بالضرورة أن نتشابه في كل شيء، و من المهم أن يدرك الإنسان مسؤلية الحياة تجاه نفسها ، ويعي حجم تلك الأمانة ، التي حمله الله بها ، فهو من بين ملايين البويضات يفوز بالحياة ويعيش تجربتها ويخوض غمارها...

125 المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات . المجلد الأول .أبو الحاج عبدالله محمد المالك . ص ٥٠

" الثقافة الأفقية "

يجول في ذهني أحياناً سؤال جوهري مهم ، وهو :

لماذا نفكر ؟!

قد يبدو هذا السؤال بسيطاً أو ساذجاً وقد يجيب عليه البعض بقول نفكر لأن التفكير قائم على حل المشاكل واتخاذ القرارات و تحقيق الغايات و التماثل مع الآخرين ، ونمارس من خلاله اللغة التي هي جوهر الفعل التواصلي بين البشر وهذا التواصل الضروري والحتمي هو من يبقي النوع البشري أًصلاً على قيد الحياة ...!

هذا جواب لايخلو من صحة ، لكنني أظن أن التفكير في الحقيقة يقوم أمر جوهري مهم **وهو وعي الذات بوجودها في هذا الوجود** .. وهذا يعني وعي الفرد بحقيقة الوجود. ومحاولة فهم هذا الوجود، فهماً ذاتياً وليس فهماً متماثلاً مع الآخرين بالضرورة أو يعتمد على الآخرين .! إن مايحدث اليوم أن الإنسان وبكل أسف لايعتمد على تفكيره ولا على ذاكرته ولا على فهمه ..! إن واقع الإنسان اليوم هو أن التقنية تفكر نيابة عنه وتحفظ نيابة عنه وتفهم نيابة عنه ..! فزاد عنده الجهل أكثر من أن تزيد المعرفة لديه ..! وزاد

تخزين المعارف في الأرشيف التقني الضخم (قوقل ونظرائه من محركات البحث وأمتداداته الحديثه في عالم الذكاء الصناعي Bing و ChatGPT ، Edge ...إلخ) ويكفي أن تسأل نفسك سؤال .؟ هل زاد ذكاء الإنسان في عالم اليوم أم زاد غباءً، بل وزاد ذكاء التقنية ..! إن صح أن نقول بأن التقنية ذكية ..!126 وكم هو مؤلم أن المعرفة تتوفر في كل ماحولنا (في عالم التقنية) باستثناء عقولنا نحن ، وكم هذا محبط جداً عندما ينتشر الجهل المركب و أن يضن الإنسان أنه يعرف وهو لايعرف ، وبالتالي كيف يدرك الإنسان مالا يعرف من خلال عالم التقنية إذا كان تعامله معها يقوم على البحث في مايعرف هو فقط ليعزز مواقفه وأفكاره ، إن التكنولوجيا تجمح للأمام في تطور دائم كما لم يحدث من قبل، وأن اعتماد الإنسان عليها في كل شيء لايعني ذكائه بل يعني حجم عجزه وعدم قدرته على الفهم ولا على الحفظ ولا على الاعتماد على قدراته العقلية..!

وهنا تنتشر الثقافة الأفقية التي تحمل في جوهرها الجهل والإدعاء ولا تأخذ إلا رؤوس أقلام لأفكار محددة ولا تعرف أصلاً عمق الجليد في هذه الأفكار ، فتجد توظيف

126 مفهوم الذكاء في الغرب يقوم على أن الإنسان آلة عقلية وتقوم حياته بين أمرين (منمتج ومستهلك) بشكل أداتي محض . يرى د . رفيق حبيب أن مفهوم الذكاء ومقاييسه في العالم الغربي (يستخدم لخلق نوع من التصنيف النفسي البيولوجي)

مصطلح كان يستخدم في سياق بعمق دلالي معين ، و يطلق اليوم في سياقات ليس له فيه علاقة ولا ارتباط ... وفي ذات الوقت يتحدث الجميع عن كل شيء وفي كل شيء ودون فهم لأي شيء ويمكن أن يقال عن هذا الفضاء (فضاء الادعاء) ادعاء الفهم وادعاء العلم و ادعاء التفكير النقدي والإدعاء القدرة على التحليل ، ويمكن أن تلاحظ أحد مشاهير السوشل ميديا ممن ينشرون للناس معلومات عن كل شيء و عند لقاء مباشر أو في مناظرة علمية ستجد حجم الجهل والإدعاء الذي يتجلى لك. ولكن هل يمكن في عالم مفتوح أن نعالج مسألة هي في غاية التعقيد ، ثم إن الكلام في أصله غريزة إنسانية لايمكن للإنسان أن يحجم عنها سواء كان له حظ من العلم أم لا ؟ وفي هذا الفضاء التقني الذي يحث الإنسان أن يعبر عن نفسه عن مايحدث حوله في اليوم والليله، وهذا يزيد التزاحم في الأخبار المثيرة التي تستهلك طاقات عامة الناس ..

يمكن أن تلاحظ كيف تستفذ الشركات الرأسمالية العابرة للقارات على تحريك المشاعر وحث المجتمع على المشاركة في تلك القضايا التي تظهر على السطح ، وتدفعهم للغضب والحنق والرغبة الجامحة في الانخراط في قضايا الجماهير التي لم يسلم منها حتى بعض النخبة،

و هذا الواقع المربك لايمنع الإنسان تحديداً من ادراك حجم المسؤولية على كاهله .

وفهم الواقع ليس بالأمر الهين ، أبداً وعندما يتحدث الإنسان في واقع لا يفهمه وينشر أفكاراً لا يعرف حقيقتها أو يشارك في الظلم بنطق الأحكام على الآخرين بحسابات مستعارة دون فهم حقيقي للأحداث ، لايعفيه من حجم المسؤولية، وقد يظن بأنه يفعل الخير(بسذاجة) فتذهب أعماله للشر و عكس ماكان يضن ، يقول الله تعالى {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا}الاسراء ص 26 .

ومن خلال (مرجعية القرآن) سندرك حجم مسؤلية اللفظ والقول وتتبع الحقيقة والقول بالحق أوالصمت و الابتعاد عن كل مالا نستطيع فهمه على حقيقته ونتجنب العبث بالكلمات وليس هذا على القول فقط والجوارح بل حتى على الممتلكات ، فالقرآن يبين للإنسان أمانة أخرى لابد للإنسان من أدراكها وهي أمانة المال والجسد والدين والعرض ... ومن هذه الأشياء يتفرع كل شيء يخص الإنسان فأمانة المال تدرك من خلالها أن الله أعطاك وحرم غيرك منه، وأن المسكين له حق في مالك ، وعندما تتصدق فأنت تعطي من مال الله وليس لك الفضل في هذا العطاء ، بل الفضل لله. ومن خلال تلك القدرات والتبصرات التي

يوفقك الله فيها لابد أن تجعل المال في مكانه الصحيح وقبل أن تستهلك وتعبث بالمال لابد أن تحاكم نفسك، لأن الملكية المطلقة للمال لله وحده ، وأنت لست أكثر من شخص يصعد مسرح الحياة ويؤدي رسالته ثم ينزل من على هذا المسرح (فيذهب جسدك) إلى باطن الأرض وروحك تذهب لخالقها ، وتنتهي قصة الحياة التي عشتها بكامل أحداثها... وهنا يكون طريق أنشودة الخلود" الروح " لعالم الخلود ، و ترتفع للإله هناك المحاكمة العادلة عدلاً مطلقاً وستدرك بهذا الوعي أن شهوتك في إدعاء المعرفة والتصدر وجني المال والأرباح غير الشرعية أن هذا المال وبالاً عليك ومشقته على كاهلك ، و لم تخطر في ذهنك حجم المسؤلية التي كانت على كاهلك فكل ما زاد مالك زادت مسؤوليتك حتى وإن كان هذا المال حلالاً.

وأمانة الجسد الذي تظن أنه يحق لك فعل ماتشاء به ليس كما تظن! وأن تتصرف فيه كما تريد دون مسؤولية ولا مبالاة ، بل سيكون يوماً ماء في مواجهتك أي أنه خصماً شرساً عليك ، و لم تعد أنت المتصرف فيه وذلك الخصم ليس واحداً بل عدة خصوم وهي الجوارح ..! و هي التي تتحدث عن أفعالك وتفضح سلوكك وترديك للمهالك أو ترفعك للأعلى، أو تغرقك في هاوية يصف الله ذلك

بقول { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }سورة النور 24

وأخيراً أمانة الدين ، و قد يظن البعض أن الملحد هو شخص يقرر أن يتخذ قرار فردي تجاه ذاته وتنتهي المسألة لكن هذا ليس صحيحاً ، الملحد الصامت لايتعرض له أحد ، لكن الملحد الذي يمارس التبشير بإلحاده يفسد على الناس دنياهم وأخرتهم أنه يفسد على الناس تلك القيم التي لطالما آمنو بها في حياتهم وتلك الغاية العليا التي يعيوشون من أجلها ويموتون بها ، ويفسد عليهم تلك المرجعية الأخلاقية المطلقة التي تجعلهم مستقرين ومطمئنين سعداء كالإيمان بالآخرة والتسليم للحق والخير والعدل ...إلخ ، فينشر فيهم العدمية والإحباط والعبثية والامبالاة والنسبية في كل شيء ، وينتشر بين العامة تصور عبثي عن هذا العالم الجميل والمتقن والرائع .. ولأن العدالة المطلقة مستحيلة في هذه الحياة ، فإن عدم التفكير في عدالة في العالم الآخري هي أكثر أنواع الألم النفسي التي قد يشعر بها الإنسان في حياته ، وهذا مايروجه الملحد، وهو أيضاً يلغي تلك الغاية العليا التي يسعى لها أحدهم ويفتت كل الهمم التي يسير فيها البشر وينشر ببلاهه الإحباط و الامعنى في كل هذا الوجود...

والمسلم وهذا أمر خاص بالمسلم (كما أعلم) ينتشر فيه شعور رائع وهو " أن تكون حياتم لله ، ومن أجل الله ، وفي سبيل الله من الولادة حتى الموت حباً فيه وشوقاً له وعبادة له ورغبة في لقائه وأملاً في رحمته " وعندما يؤمن الإنسان في عدالة مابعد الموت ويكون له في الحياة معنى سامي يعيش من أجله (عبودية الله والعمل الصالح ونشر القسط و الخير والعدل بين الناس والدفاع عن الحق) ولا يصاب بإحباط من أفعال الشر لأن هذا الشرير عنده وإن لم نستطيع أخذ حقنا في الدنيا فإن لنا لقاء آخر عند الله .

إن الإنسان عندما يؤمن بقيم الخير والحق سيكون الموت في سبيلها هيناً عليه ، و عملاً بسيطلا ولايشكل ذا أهمية ،وهذا ماشعرت به في عام ١٤٤٥/١/١٠هـ عندما تعرضت ريما ابنة أختي لحادث مروري كانت أحداثه مروعة ... و لم يتبقَ في تلك السيارة التي تتدحرج إلى الخلف (لحافة الهاوية) في أعلى ذلك الجبل سوى ريما وأخوتها الصغار ... كانت قادرة على الخروج و إنقاذ نفسها في تلك الثواني الحرجة كما يقول أخوها .! لكنها لم تفعل ! فقررت أن تنقذ أخوتها الصغار وتخرجهم واحداً واحداً ولم يسعفها القدر وضيق الوقت للنجاة بنفسها .! وسقطت من أعلى الجبل لترتفع روحها الطاهرة للسماء ..

ولتصافح الموت كما يصافحه الشجعان والأبطال على مر التاريخ .. كانت التضحية وصدق الإيمان وشرف المرؤة يتجسد في ذلك الموقف النبيل ، لقد هزتنا ربما من الأعماق و خلدت في حياتنا حياتها التي لن تنسى أبداً ، و بقيت في ذواكرنا و أرواحنا للأبد ... علمتنا كيف يكون حقيقة الحب وكيف تضحي لمن تحبهم والذي قد يصل بك للموت من أجلهم .! علمتنا شرف أن تتخذ موقفاً شجاعاً في لحظات وثواني بسيطة ، وتجعل كل غاياتك وأحلامك وأهدافك في الحياة خلف ظهرك ..! علمتنا بأن طول الحياة أو قصرها لا قيمتة له بل القيمة الحقيقية هي كيف تعيش وكيف تغادرها بشرف... وقد نجد مثل هذا الموقف شاباً يغامر بحياته من أجل إنقاذ عائلة توشك أن تغرق أو طفل كاد أن يموت بسبب تعرضه للحريق أو الغرق أو أي أمر خطير... المهم أن الدافع الأخلاقي والإيماني هو جوهر فعل التضحية ، ولايمكن لملحد أن يجعل حياته على المحك لأنه ببساطة يقول في نفسه إذا كنت لا استطيع سوى عيش حياة واحدة فلماذا أفرط فيها .!

ولهذا تكون كل الأفعال الأخلاقية وصفات الشجاعة والمرؤة نابعة من منبع إيماني متجاوز للحياة المادية التي نعيش في كنفها ، و لايمكن أن يكون هذا الدافع دنيوياً محضاً و لابد من وجود ذلك البعد الأخلاقي المتجاوز

للطبيعة (للمادة)الذي يؤمن به ذلك الفرد في عمق نفسه وهذا مايجعل حتمية الإيمان أمراً لامفر منه في الكثير من مسائل الأخلاق ، لقد كان يعرف الآخرون قبل الفيلسوف أيمانويل كانط أن الأخلاق تنتهي بالضرورة إلى الله ولا تستقيم إلا به ...

وهذا مايجعل فعل الإنتحار ساذجاً عند الكثير من الفلاسفة وهو يشبه حالة الهروب الجبان من مواجهة هذا الوجود . ولكن من أي يأتي الإنتحار .! أليس من الإحباط وأفكار الإحباط التي تنتشر في عقولهم ولا يدركون بأن حياتهم تعني الكثير جداً عندما يعيدون التفكير فيها .

يمكن القول أن فرداً يعاني من الإحباط والهزيمة النفسية لو كان يعلم أو يعي حجم ذلك الحب والبهجة التي يزرعها ـ هذا المهزون نفسياً ـ في قلوب كل من يحبونه من أطفاله أو زوجته أو عائلته أو أخوانه... تعادل ـ جمال هذه اللحظات ـ جمال الكثير من الأشياء التي يسعى لها حثيثاً. وإن لم يعبرون له بذلك الحب ،أو لم يجيدوا المفردات التي تعبر عن ذهو الحب ، إن هذا الوعي بالمجتمع المحيط والحب الذي يحفه ولا يراه يجعله يكون أحرص الناس على نفسه وأقدر الناس على تحمل مسؤوليتها ، إن الأمان والحب والغاية والطموح هو ما يجعل حياته تستحق البقاء و لايمكن أن يفكر أو يقدم على الإنتحار أو الإهمال في

حق نفسه وهو يعي هذا ، إن الإنسان عندما يضيف لحياته معنى أعمق من الاستهلاك واللذة والشهرة والمكانة والوهج فإنه من أجل هذا المعنى العميق يتحمل كل آلام الحياة ويصبر على همها وغمها لأن حقيقة الحياة عند المؤمن هي في قدرتنا على الصبر والإيمان والكفاح وتحمل الألم والتفاؤل الدائم من الولادة حتى الموت، والقرآن الكريم يؤكد على حقيقة شقاء الإنسان الحتمي في هذه الحياة بقولة تعالى{ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي كَبَدٍ } 127

وهذا مايفهمه العقلاء والحكماء من التاريخ ، والذين لم يتجاوزون لذة الجسد وتلبية رغباته يعني أن هاؤلاء لم يتجاوز مرحلة الطفولة هذه المرحلة المحملة بتحقيق الرغبات والتملك المفرط والأنانية وشهوة التدمير والعدوانية والعنف وحب السيطرة وغالباً ما يوزع الأطفال الإتهامات على بعضهم دون اهتمام وهذا السلوك يمكن تفهمه وقبوله في حالات محددة فقط وهو عندما نكون أطفالاً ! ، ويمكن أن نتجاوز ذلك عندما يصدر من جهة الأطفال ، ولكن عندما يصدر من البالغين الذين يفترض بهم بأنهم تجاوزوا مرحلة الطفولة فإن هذا السلوك يتحول لحماقة وغباء وعيب و نقص في الوعي وأنانية وحسد

127 سورة البلد . آيه . ٤

وحقد وكل رذيلة .. وقد يجد ـ الإنسان الفاسد أخلاقياً ـ تبريراً لبعض الصفات الفاسدة فيبررون مثلاً صفة الحسد وما ينتج عنه ... بأنها سبب التطور كما فعل نيشه مثلاً ، وغيرها الكثير من الصفات الفاسدة التي تجد لها تبرير أخلاقي على طاولة الملاحدة و صناع الكلام من بعض الفلاسفة والمفكرين والمثقفين ...إلخ

الأطفال " الرضع " يحبون من يقلدهم ...!

نقلت قناة DW عنواناً تقول بأن الرضع يحبون من يقلدهم وهي تعتمد كما تقول القناة في موقعها الإلكتروني على دراسة سويدية حديثة ... بعد نهاية المقال قلت في خيالي إن هذا السلوك لايحتاج باحثة من جامعة لوند في السويد، ولا من السربون ولا من أكسفورد ولا هارفرد ...إن هذا السلوك يشترك فيه عامة البشر ليس عند الرضع فقط بل يتسابق عليه الكبار وهي بلوى عامة ، يكفي أن تلاحظ الكثير من البشر اليوم ينجرفون بلا وعي لتقليد الآخرين ويشتهون ما يشتهيه الآخرين وكأنهم قطيع من الآلات البايلوجية الموجهة تسير ببلاهة و بدون تفكير ، وليس لديهم وعي ذاتي بأفعالهم و يعيش الفرد بينهم تحت تأثير سيكولوجية الجماهير...إلخ ، أو كما يقول الفقهاء عن العامة (الدهماء والغوغاء...) و عندما أشاهد هذ التزاحم على عروض منتجات الإستهلاك أو على التجمهر حول المشاهير وكأنهم كائنات نزلت من السماء ، وكأن هؤلاء البشر يعيشون حالة جوع وفقر استهلاكي وروحي لمجرد أن تعلن خصومات وعروض لشيء معين من قبل مشهور مثلاً و يتسابقون بشكل جنوني مخيف ، وكأن لسان حالهم يقول (مالم ـ نستهلك ـ المزيد فلسنا قادرين على عيش الحياة بسعادة ، ومالم نواكب جديد الإستهلاك فإننا متخلفين تماماً) و مواكبة العصر تعني يجب أن تركض للشراء

والاستهلاك بغض النظر عن فائدة ذلك من عدمه ، وبغض النظر هل هو مهم لك أم لا ، بغض النظر إلى أين يتقدم المجتمع .! فقط يجب أن تركض للأمام وتستهلك المزيد . هذا مايحدث عند الرضع الكبار للأسف والصغار أيضاً ...

ولا ننكر أن المنتجات الإستهلاكية وخصوصاً التقنية كالأجهزة الذكية باتت ترتبط بحياتهم بشكل ضروري ، فلا تكاد تنجز اليوم خدمة حكومية دون هذه التقنيات الحديثة [128]، بالتحديثات [129]البرمجية التي تجبرك (الشركة الأم) على تغيير جهازك بعد كل فترة (أي استهلاك المزيد بشكل دائم ومتكرر) ولكن ، كيف لنا أن نعيد كينونة الإنسان ذاته بعد هذا الضياع في العالم الإفتراضي، حتى جعله هذا يعيش حالة اغتراب وتمزق روحي .

تشير الكثير من الأبحاث أن استهلاك الفرد اليومي (للجهاز الذكي) يتجاوز ٨ ساعات في اليوم الواحد تقريباً ، هذا أمر مربك ، وهنا يكون العقل البشري بشكل عام في أزمة تمارس فيها الشركات إعادة تشكيل هذا العقل البشري، ولعل هذه الأزمة تكبر بعد أن يتمدد عنفوان الذكاء

128 كيف هي الحال عندما يرد أحدهم أن يأخذ موعداً طبياً في أحد المشافي أو ينجز أمراً حكومياً ضرورياً وليس هناك سبيل لهذا الموعد دون تطبيق في ذلك الجهاز الذكي المعاصر . حتى بات الإستغناء عنها محال وغير ممكن .

129 تمارس الشركات العالمية نوعاً الإستبداد الإستهلاكي فهي تمارس أستبداد رمزي بالمستهلكين فلا يكاد ينصنع منتج جديد إلا ويتم أحداث تغييرات وأشكالات في الأجهزة القديمة (بطئ الجهاز، منع تحميل بعض التطبيقات ، ...إلخ) حتى تجعل المستهلك يعيش في حالة أستهلاك دائري لايخرج منه أبداً ..!

الصناعي في كل مفاصل المجتمعات ، ويهيمن عليها بشكل كلي .

والشركات الكبرى لاتبالي سوى في الأرباح حتى وإن كان ذلك على حساب الناس ، وتوظف علماء في مجالات كثير كعلماء النفس والإجتماع وعلوم الإدراك والسلوك حتى تهيمن على الإنسان وتوجه عقله وسلوكه من خلال ذلك الجهاز الذي الذي يأخذ جل وقته في حالة إدمان هستيري ،

يكفي لتعرف حجم هذا الإدمان الذي أنت مصاب به أن تفيق كل صباح وتبحث بشكل غريب عن جهازك الذكي قبل أي شيء آخر .

ومالم يكن لدى الفرد الحر قدرة على التفكير وتوظيف تلك الملكة النقدية لفهم هذا العالم فإن هذا الواقع الغريب سوف يغير كل تصوراته وقيمه ، ويلتهمه التهاماً.. حتى بات البشر في أدق التفاصيل للحياة اليومية يتشابهون أذواقهم وأزيائهم وأفكارهم وتصوراتهم ، بشكل متطابق و متشابه وموحده ، وكل فكره خارجه عن المعروف والمألوف حتى وإن كانت أفكار ذات قيمة علياً لن تجد ذلك الاهتمام والقبول...!

إن هذه النسقية البشرية الكبرى تحجب عن الإنسان أسئلة الوجود و تطمس التفكير في معنى حياته وفي حقيقة الموت التي تنتظرة ، إنه غارق تماماً بلا وعي منه في شبكة الاستهلاك اليومي بشكل نهم وشرهه جعله ينسى نفسه ..

بل يتحول شخص لا مكترث لأهم الأشياء التي كان يجب عليه فيها أن يكون مكترثاً بها ... إن الا أكتراثية لاتهتم بالموت لأنها تريد مقاومته بشعور الامبالاة (أننا نموت كما تموت الأشياء .! مالغريب في ذلك . كان هذا حال أبيك وجدك وحال أبنائك في ما بعد . فكر في الأعداد الضخمة من الناس الذين يلحقون بك أو الذين سبقوك)130 رغم أن هذه الفكرة قديمة وفي ذات الوقت واقعية إلا أن فيها رائحة من الأكتراثية وهي خطيرة جداً عندما تكون في كل شيء حتى في قضايا الوجود وهي نزعة إلحادية تتجدد مع ولادة كل فكرة عدمية ،هل ولادتي وموتي هي عملية حيوانية طبيعية وهذا كل شيء ..! ماذا عن إدراكي للوجود وللموت وللعالم ولله تعالى .. أم أننا نعيش ونموت فقط مثل البهائم والكائنات الحية الأخرى .! هل مابعد الموت ليس مهماً عند الإنسان المعاصر لدرجة أنه لايستحق التفكير فيه سوى بكلمات تشبه هذه الكلمات الباردة ..! نموت مالغريب في ذلك ...! إن هذه الامبالاة

130 سنيكا ، في المنفى . ص ٢٠١

بالوجود خلقت شخصيات تعبر عن شعور الكثير من الكتاب والروائيين الذين يعبرن عنه مثل بيكيت في مسرحياته و كامو بالمتمرد وكولن ولسن بالامنتمي ...إلخ.

وهذه النزعة تنزع جماليات الحياة كاملة فتجعل الوجود رتيباً ساذجاً لا يستحق العناية والإهتمام وكل مافيه ليس أكثر من عبث حتى وجود الإنسان (صدفة) وفق هذه الرؤية العدمية ، الأ اكتراثية ... والتفكير ف الوجود يصيب الفرد (بغثيان ...) كحال سارتر ، وهنا تموت فيها كل جماليات الحياة، ينتهي الشغف و الإبداع وجمال الحب والإيمان هنا يتلاشى جمال كل مايحيط بنا من خلال هذه الامبالاة، شروق الشمس وغروبها وألوان الشفق على حقول ورد التوليب وتغيرد العصافير وجمال الطيور وبهجة الشواطئ وعنفوان الشلالات وروحة الاتصال وجمال التواصل البشري وتبادل الحب والصداقة والعلاقات ...إلخ

فإذا كانت لاتهتم بقضايا الوجود والآخر هو الجحيم ولاتنشغل بها وتطلق للعلم الطبيعي الحق الوحيد لتفسير الوجود كالفيزياء ليجيب عن منشأ الخلق وأصل الحياة وتبحث علوم الأحياء عن أصل الجسد وينتهي بك فهم العقل البشري في جانب علوم اللغة والإدراك ...إلخ وينغلق العلم على مجالات متخصصة دقيقه بل و ومفرطة الخصوصية،

وهو بشكله الكلي منزوع عنه كل مقدس فكيف يمكن رؤية جمال الوجود وإدراك دهشة هذا الوجود.!.

ورغم أن هذه الحركة لا اكتراثية ولا تهتم لما بعد الموت ولا تبالي إلا أنها تتحول إلى أكتراثيه جداً عندما يتعلق الأمر بالاستهلاك و الجنس والطعام وسد الحاجات البايلوجية والمطالبة بالعدالة الاجتماعة ، و الرغبة في قضاء عادل وفق قيم أخلاقية كليه تطبق على الجميع... وتطول القضايا التي تتحول فيها الا أكتراثية إلى أكتراثية شرسة لكن هذا موضوع آخر .

وهذا يبين أن الإنسان المعاصر تحديداً كائن يمارس حالة إدعاء و هذا الإدعاء في حقيقته هو كذب وتزييف وتزوير فهو يريد أن ينسى قضايا الأنطلوجيا(الوجود) لينشغل بقضايا البيالوجيا (الجسد) ويخلق عالماً من القيم تكون النسبية فيه هي المطلق الوحيد ، حتى يحرر ذاته من مسؤليات الأخلاق عامة وأخلاق مجتمعة خاصة وهو بدون وعي منه يترك النفوذ لتلك الأيدي من رؤوس الأموال العالمية والقوى الخفية تديره و هي بدورتها تعيد إنتاج الخطاب المؤثر الذي يوجهه وفق مصالح هذه الشركات وتعيد توجيه غيره كذلك، بل برمجة مفاهيم المجتمع بشكل عام.

لأن فيلة (ملاك) هذه الشركات التقنية يسرها أن تزيد هذه الاكترثية من غلوها تجاه الوجود لتجعل الناس أشبه بالدمى الموجهه وفق نمط استهلاكي محدد وموجه ويتم تلقينهم الأفكار من خلال خطاب تقني مهيمن،131

ولا نخفي حقيقة أن هناك جانب من الأكتراث جيد ويزيد من الصحة النفسية تجاة الكثير من الأفكار والعلاقات بين البشر لكن من المهم أن نعي حدودها . فإذا كانت الغاية من الأكتراث هو في تجنب العلاقات السامة و إهمال ماليس من شأني أو بالأصح (الدخول في ما لا يعنيني) أو بمعنى أكثر وضوحاَ ومن خلال أفق إسلامي كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فإن الأكتراثية تكون سلوكاً ممتازاً وجيداً ويحافظ على سلامة الذات من أشواك العلاقات المجتمعية ومن المهم أن تدرك بأن أهم عتبات الحياة البهيجة أن تدرك أنك لست مسؤولاً عن الآخرين ، ولا شأن لك بتصرفاتهم ، بل يجب عليك أن تتحلى بالشجاعة الكافية لمقاومة نزعة تغييرهم ورغبة تصحيحهم والسيطرة عليهم بأفكارك بشكل قمعي ردكالي، دعهم يفعلون ما يحلو لهم يخطئون ويتعثرون ويندمون ... لأن كل تغيير حقيقي يبدأ من ذات الفرد وليس من وصاية الآخرين ...محاولة السيطرة عليهم

131 يمكن العودة لكتاب حضارة السمكة الحمراء . برونو باتينو

تسبب لك قلقاً وإرهاقاً وتوتراً ومعاناة لا تنتهي ، دعهم يرحلون بسلام ، ويختارون مايريدون بسلام ويخطئون كما يحلو لهم دعهم يشعرون بمسؤولية الحرية وقلق القرار وندم الخطأ ، ضع لنفسك حداً صارماً تجاه التدخل في شؤون الآخرين . هذا يشعرك في البداية بألم (لأنك ستتألم من أخطاء الآخرين ...) لكنك ستعتاد على ذلك تدريجياً .

ركز على ما تستطيع التحكم به فقط . كل قرار خاطئ أو مزعج سيجني صاحبه ثمنه وليس أنت. ولهرمان هسه عبارة جميلة جداً تروق لي يقول فيها : بعضنا يظن أن التمسك يجعلنا أقوياء لكن أحياناً السماح بالرحيل هو القوة الحقيقية " وهذا الرحيل يعني حرية أن يسلك الآخرون المسلك الذي يريدون طالما أنهم (يعلمون ولا يجهلون) ، كما أن الفضاء التواصلي يعطيك حرية أن تقول وتفعل ماتريد وفق قانون أخلاقي محدد فهذا أيضاً يؤسس لأن تجعل الآخرين يعبرون عن حقهم في الإختلاف والذي يجمعهم في نهاية المطاف في حق التعايش (طالما أنك لست قاضياً). وهذا لا يتقاطع مع الامبالاة تجاة الوجود ولا أكتراث تجاه الظلم العام أو الخاص... بل يجب أن أدرك أنا أولاً أن تدرك أنت كذلك أن هناك قضايا أخلاقية وإيمانية مصيرية لا يمكن أن أعيش تجاهها بمفهوم الامبالاة لأن هذه الا أكتراثية تجاه الوجود تكون في غاية

السلبية والأنانية مفككة للعلاقات الإنسانية و تقضي على الحقوق وتنهي البنية الأخلاقية للمجتمعات...

دهشة الموت

قبل عامين سقط أخي من أحد الجبال المرتفعة والباردة في منطقة الجنوب وقبل سقوطه بيوم واحد تقريباً أرسل إلي رسالة يقول فيها :(أشعر بالضيق... والهم...أتمنى أن تكون معي) كان ردي لا يخلو من برود أمام مشاعره الصادقة ظناً مني وكنت ساذجاً في ظني أن هذا ليس التواصل الأخير معه ولم يكن يخطر في ذهني لحظة أن يكون هذا التواصل هو الأخير، فلدي الكثير من الآراء لم

أقلها له والكثير جداً من النقاشات والسجال الفكري التي نريد خوضها والكثير جداً جداً من المشاعر والضحك والمزح والمداعبة التي لم نتشاركها معاً ، ولدي الكثير من المواقف والمداعبات والقصص والأفكار التي لم أتحدث معه عنها ولدي الكثير من الأحلام المتواضعة لم أشاركه بها وهناك الكثير من الأماكن قررنا السفر والتخييم والترحال لها ، و تحدثنا سوياً للقيام بذلك في قادم الأيام ... كان لايزال أمامنا الكثير من الأشياء نريد إنجازها ولدينا الكثير من الأشياء لم نفعلها بعد ، و عندما تلقيت اتصالاً صادماً و علمت بوفاته لم أصدق هذا .! كانت هذه الحادثة (هي أقسى الهزات النفسية التي تعرضت لها في حياتي، ولم أتعرض لمثل هذا من قبل) ورغم كل ذلك لم أستطع لحظتها أن أتفهم ، أنني لن أراه مرة ثانية في هذه الحياة، لم أستطع أن أصدق بأنني فقده تماماً و لم أستطع أن أتقبل فكرة أنه لن يكون معنا في جلسة العائلة وفي لحظات الأعياد ومسامرات الصيف ...

وفي لحظة دفنه وقبل أن تلتهم الأرض جسده أدركت أنني دفنت شيء من جماليات الحياة والكثير الكثير من الذكريات التي ماتت للأبد، لم ندفنه وحده بل دفنا معه الكثير من الاحلام والكثير من الأماني والوعود، وأدركت لحظتها أن الحياة جادة وليست مزيفة، ويجب فعلاً أن تتعامل معها

بجدية . كنت أتسامر مع أخي الأكبر عن الحياة وفن العيش فيها وعن حقيقتها التي فطرت على الكدر وبعد مدة لاتزيد عن سنة ونصف تقريباً عاد أخي الأكبر ليحتضن طفلته الصغيرة بعد يوم مرهق وليجعلها تزيل عن كاهله كل أعباء الحياة ، وكان هذا هو الحضن الأخير فقد أصيب فجأة بجلطة في القلب ونقل لحظتها للمشفى ولم يصل للمشفى إلا بعد أن فارقت روحه جسده... رحمه الله .

أدخلته القبر مع أبي وأنا أفكر في تلك اللحظات التي نتحدث فيها عن الموت ، وعن الحياة . وكيف يعيش الإنسان على هذه الأرض . وضعت جنبه الأيمن بإتجاه القبلة والصدمة تتملكني ودهشة الموقف لا يفارقني أبداً ، أتذكر لحظتها حديثنا الطويل عن الموت والحياة وهاهو الآن يعيش تجربة الموت على حقيقتها و التي تنتظرني في الأيام القدامة .

لا شيء في هذه الحياة يمكن أن يقسو على بني آدم وينخر وجدانهم ويلهب احساسهم مثل مايفعل الموت يجعله يغير أفكاره وقناعاته و أحاسيسه وتصوراته يجعله يعيد التأمل في كل شي في هذه الحياة ، حتى في نفسه ، ويعيد مراراً وتكراراً التفكير في الحياة ، والأقسى من كل ذلك هو أن تتحدث وتتسامر عن الموت و الحديث فيه مع اخيك ثم ويقدر الله عليك أن تنزله في قبره بنفسك وبيديك وتضع عليه اللحد وتدفنه بين الطين ولاتستطيع لحظتها أن تفعل

أكثر من أن ترفع يديك لخالق هذا الوجود بالدعاء والرجاء والأمل ، وهناك تحت الأرض تلتهم الأرض جسده تماماً ...

يضع أبي الطين برفق تحت رأسه ليوسده وكأنه يقول ربيتك صغيراً وحملتك طفلاً رضيعاً وها أناذا ألقي التراب عليك رغم حبي لك، يا لعجب الحياة تحث التراب على أقرب الناس لك رغم حبك له وتجعله تحت الثرى لتتركه وترحل عنه بعيداً ، وألم الوجدان يعتصرك كنت أرى أبي و قدر الله يحول زينة الحياة الدنيا وهو الابن إلى الباقيات الصالحات ... إن شاء الله ... حقيقة الموت المرعبة والتفكير فيه أكثر رعباً...

كنت في طريقي للخروج من القبر مشيت على أغصان شجرة الطلح المليئة بالشوك دون أن أشعربها ، نفضت يدي من الطين وغسلتها وجلست صامت ساكناً أقول كل شيء في داخلي ولا أقول شيئاً بلساني وهذا مايمكن تسميته بلاغة الصمت ،، نظرت لأبي وهو وافق أمام القبر ينظر إليه ويحاول أن يصدق فراق ابنه .! يتجاهل القبر وحقيقة الموت ، ويتحدث عن أحاديث جانية يحاول من خلال هذا الفعل أن يتجاهل أحداث الموت، ويستخدم التشتيت والتفكير البعيد كسلاح لمواجهة هذه الفاجعة المفجعة .

الشيء الذي تفهمه في تلك اللحظات بوعي ، هو رؤية عيناه وهي تحدق في القبر وهي تحجب ركاماً من الدموع والأحزان والمشاعر وكأنها سد منيع يحاول ردع الدمع من العبور ، يحاول أن يوقف كل هذا التدفق من المشاعر ، بجسارة الصبر والإيمان والتسلح بالتقوى ، و يقال أن الإيمان قفزة على العقل لأن العقل يفكر في ماهو ضروري وماهو منطقي فقط أما الإيمان فهو يقفز على كل هذا ليرتبط مباشرة بأقدار الله التي تتجاوز عقول البشر ، والإيمان هو منبع الصبر والتقوى وبغيره لايستطيع الإنسان الصبر أمام الموت و مشاعر الفقد التي تنخر الوجدان وتفتت الصخور ، وهل تترك المشاعر إنساناً يعيش فاجعة الموت بصبر إلا أن يكون إيمانه كالجبل .! وكذلك كان أبي جبلاً شامخاً لاتؤثر فيه رياح المشاعر ولا أعاصير الأحداث ، ورغم كل هذا كان يخيل لي أن تنطق المشاعر بقول : لقد نال القدر منك يابني مانالـه من أخيك ، كنت تجود بنفسك ومالك ،وكان أخوك لاينقص عنك وفاءً وإقداماً ، كنت تأتي بكل ما أحتاج قبل أن أحتاج وتحميل على كتفك ماتراه على كتفي ، إن هذه الحياة منذ أعوام باتت ثقيلة وهي الآن أكثر ثقلاً على نفسي من السابق بل سامجة لم يعد فيها مايسر أو يبهج ....و أمي التي كانت تجيد التقميط لهذا الطفل الذي ولد في سبعة أشهر تقول عنه والدموع لاتتوقف وهدير الوجدان لايصمت : (لقد دفن في

منطقة باردة وهذه المنطقة الباردة قادرة على أن تحتفظ بجسده أكبر قدر ممكن) تريد أن تحفظه في جوف الأرض جميلاً أنيقاً لا يتسرب له الدود ولا يأكله النمل ، تريد أن تحفظة كما كانت تحفظه في تقميط الطفولة حيث تلفه بقماش أبيض رقيق ناعم من القطن الجيد ، إن الأرض أما لنا جميعاً لقد ألتهم جوفها الكثير من البشر ، وليست عاجزة ان تلتهم الباقين وحتى القادمون وكذلك الذين لم يولدوا بعد ، و ما يحدث أمام من نحب نلفهم بهذا القماش الأبيض من ولادتهم ونختم حياتهم بقماش أبيض لحظة موتهم (الكفن)،، كل شيء في الحياة غريب ومحير ومهما كنت تعتقد بأنك قادر على فهمها فأنت مخطى تماماً، والموت فيها كما يقول الشاعر العربي الحكيم زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته من تخطئ يعمر فيهرمي

المنايا الموت وخبط عشواء هي الناقة. التي تسير في الليل ولا تعرف أن تضح رجلها لكن الموت يعرف جيداً أي يعض رجله و أين يكون ومتى يكون نحن فقط من نجهل ذلك فلا نعرف متى يأتي ومتى يرحل ، والحياة تعلمك الكثير من الدروس، و في كل لحظة كنت تضن بأنك تعرفها حق المعرفة فتأتي وتصفعك على وجهك بلا سابق أنذار، وكأن أصدق وصف عن الموت هو أن **الموت هو**

الامتوقع في هذه الحياة ! أي ما لايمكن التنبئ به . يموت من تتوقع سلامته ويسلم من تتوقع موته.

و الأمل ووعد الحياة الرغيدة دائماً يطاردنا ويخدعنا وفي كل مرة نظن أننا لن نموت بسرعة إلا بعد أن ننجز كل أعمالنا ، لكن صدفة الموت ثقيلة جداً على من يختاره الموت ،! الموت ثقيل وفراق الميت ثقيل أيضاً ،.! هل كان كعب بن زهير على خطأ عندما شبه الحياة بامرأة كاذبة خائنة فاتنة تعدك بأشياء وتخدعك في مابعد ..! وسماها (سعادة) التي تعدك بالسعادة التي لن تجدها إلا لمماً و تجعلك تركض خلفها طيلة حياتك كالظمأن الذي يرى السراب ماءً ... لقد وصفها كعب بذكاء أمام الرسول بقول:

فلا يغرك مامنت وما وعدت

أن الأماني والأحلال تضليل..

لقد كان على حق و هذا أذكى تشبيه للحياة قد مر علي نعم لم تكن سعادة امرأة فاتنة كما يظن البعض بل هي الحياة ذاتها التي كان يأمل كعب بن زهير.. لقد رمى عليه الرسول بردته بعد إلقاء للقصيدة تقديراً وإعجاباً بتلك القصيدة .... وقد شبهه صدق وعودها (الحياة) بغربال الطحين فيقول إن صدق هذا الغربال في أمساك الماء(وهذا

محال أن يحدث) فإن فالحياة لحظتها ستكون صادقة معك !.

وَما تَمَسَّكُ بِالوَصلِ الَّذي زَعَمَت

إِلّا كَما تُمسِكُ الماءَ الغَرابيلُ

كان هذا البيت لا يفارقني وحتى في مجلس الأحزان يجول في داخلي في كل لحظة ،، كان أبي يأخذ مادة السلكون الألماني لإلصاق صورت أخي أمامه ليراها كل يوم وكل لحظة وكل ساعة ، ههناك يشعر بخلود هذه الصورة أو على الأقل يبقى أمامه دائماً ولا يغيب عنه لحظةً ..! يعلقها على الجدار بإحكام، وحتى لاتهتز ينثر المسامير على أطرافها لتبقى جزء من الجدار لا تتحرك ولا تجرؤ أن تتحرك . صحيح أن الصورة توهمنا بالخلود لكنها تجعلنا نهدء قليلاً، نتسامر في مجلس العائلة ورائحة الدموع في كل الأرجاء ، نتحدث متجاهلين المشاعر التي تنخرنا ونوهم أنفسنا بأننا بلا المشاعر ...

ولعل أكثر الأشياء ألماً هو أن لاتستطيع التعبير عن مشاعرك ، يالحظ هؤلاء الشعراء الذي يستنطقون مشاعرهم ثم نتسلل على أقوالهم ونأخذ كلماتهم لنغسل بها أرواحنا من ألم الحياة نعم يستنطقون مشاعرنا كذلك لكننا

لانجد فيهم كل العزاء فتجاربنا ليست تجاربهم وآلامنا ليست آلامهم ، كان أبي يردد بعد الأفول الطويل لأخوتي...

(كان هذان الشابان كأجنة الصقر) لكن قانون الموت إن صح التعبير يفرض هيمنته علينا وهو من حتميات الحياة التي لاتحتاج لإطالة التفكير ، هذا القانون يعرفه كل من يعيش داخل هذا الوجود وخارج هذا الوجود . ودائماً نفكر في كل هؤلاء البشر الذين رحلوا عن الحياة وكل البشر الذين هم في طريقهم للرحيل . نحن في الحقيقة نسير للموت منذ لحظة الولادة ، وكأن على رؤوسنا مؤقت النهاية لكن لانراه.. إذا كان هذا القانون واضح لدرجة أنه يعرفه الجميع فلماذا لانفهم الحياة بكل هذا الوضوح أيضاً...

السبب بسيط لأن الإنسان فيه غريزة تملك الأشياء فيتعامل مع الأرواح الأخرى في هذه الحياة كما يتعامل مع الأشياء التي يملكها، وعندما يحتاجها يحضرها فوراً ، وينسى أن أرواح البشر (ودائع الله) وليست قلماً أو سبحة أو ساعة تبقى معك في كل وقت. وعندما تفقد عزيز عليك فلاشك أن العين لتدمع والقلب ليحزن والفراق يأخذ في نفسك مأخذه ،،، وإن كان ولداً فقد تحول من زينة الحياة الدنيا إلى الباقيات الصالحات إن شاء الله ، وليس لك من طريقة أمام هذه المصيبة سوى هذين الخيارين :

١ -الضجر و الضيق و أن تلوم الله في مصيبتك أو يكون في قلبك على الله شيء وكأن الله ظلمك وجار عليك ...إلخ هذا الفعل وقف أمامه الإسلام موقفاً صارماً جداً بالوعيد

والعذاب ، وفاعل هذا محروم من الثواب وله وعيد في الآخرة ولم يسلم ألم الدنيا ، فلاهو فاز بالدنيا ولا فاز بالآخرة ولا حول ولا قوة إلا بالله...

٢ -الصبر والاحتساب و حسن الظن بالله ويكفي أن تفتح المصحف لترى جزاء الصابرين { وبشر الصابرين ...} وتفتح كتب الصحيح لتجد أيضاً جزاء الصابرين ووعدهم بالجنة والحجاب عن النار ... و مستويات الصبر تختلف فمنهم من يصبر مع نحيب الفقد وهيمنة الحزن والألم عليه، لكنه يسلم بقضاء الله ... ومنهم من يصبر و يشكر الله ويكون راضياً ومنشرح الصدر رغم ثقل هذه المصيبة عليه، إلا أنه يرفع يديه للسماء شكراً لله وثناءً عليه وحمداً له .. وهؤلاء هم سنام الصبر ولهم عند الله فضل عظيم وشرف كبير لانهم فهموا حقيقة الدين والتسليم لله وفقه الدين يعني فهمه على حقيقته (وفقه الدين) وكما قال وهب بن منبه : (لايكون الرجل فقيهاً حتى يعد البلاء نعمة ...) العجيب أنك ترى من يعرفون بالعلم يخرون للأذقان يبكون عندما تحل المصيبة عليهم ، وترى بعض العامة يرزقه الله جلداً وصبراً ينم عن إيمان صادق ومعنى عميق وتسليم حقيقي ، وممارسة الصبر تختلف عن الحديث فيه لأن الحدث فيه يحسنه كل أحد ولكن ممارسته لايحسنها إلا القلة من البشر وهذا من تقوى القلوب ، في

كل هذه الأحداث الماضية تجد نفسك دون شعور منك ، تتوقف عن الهزل وتهتم لما وراء الموت .

هذا ماشعرت به ولازلت ولابد أن أدرك أن الموت يحدق فينا في كل لحظة وأنه يمارس الطواف ـ الدوران ــ على أرواحنا ليلاً ونهاراً ، وفي لحظة محدد قد تكون قريبة او بعيدة لانعلم سوف ننتقل فيها من عالم الأرض لعالم السماء من عالم الأحياء إلى عالم الأموت أو عالم الخلود أو عالم البقاء السرمدي الامتناهي. دائماً أقول أن هذا العالم أجمل بكثير من البقاء في هذه الحياة ، هناك العدالة المطلقة والحقيقة المطلقة والخلود المطلق والنعيم المطلق والسعادة المطلقة وأخيراً الجمال المطلق بإذن الله ، هناك ينتهي كل ماهو قبيح ، و تنتهي الثرثرة والشائعات والتزييف وتوجيه الخطاب ..! وتتلاشى الأفكار المضللة، هناك ينتهي الظلم والقهر وخداع البسطاء ومأساة الفقر ،، هناك يعلم البشر ماكانوا يجهلوه فالجاهل الذي كان يؤيد الظلم دائماً لايعرف الحق ولايعرف قدر نفسه ، وأيادي الظل تأخذ عقابها على أكمل وجه . وهناك أيضاً العذاب المطلق والوعيد المطلق والألم المطلق، دائما ما أتلقى التحذير أن طريق الظلم والقتل والإجرام الغير مبرر والسرقة وأكل أموال المساكين والضعفاء والتعدي على الحقوق يقود إلى جهنم ، وجهنم هذه قادرة على التهامهم و التهام كل من يستهتر

أو يهزأ أو يقلل أو يعبث مع الله ويهزأ بقدرته وبهذا العالم (الآخر) أو حتى يشكك بوجوده أو حتى بحقيقة الملائكة ولا يسلم للرسول في أقواله وأفعاله وتقريراته.

إن ماتقوله لنا كل أديان السماء منذ آدم مروراً بإبراهيم ووصولاً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، يحثنا على التصديق والإيمان " بوعد الله " ولأنني مؤمن بأن الله تبارك وتعالى حق لاشريك له ، وأن العالم الآخر حق والملائكة حق والنبيين حق ، فإن هذا يفتح لي أفق من الأمل والسرور والبهجة بشكل لامتناهي تجاه الحياة ، وينشر في داخلي السكينه والطمئنينة والهدوء ويحررني من قلق العقل الذي يريد أن يصحح كل شيء وكأنه حاكم على هذا الوجود132 .! وينشغل بتحليل الأحداث الأجتماعية والسياسية والاقتصادية وكأن هذه الأرض هي أرض الخلاص..! وعندما أعرف أن سدنة المال وفيلة الشركات يهمنون على عقول البسطاء والسذج ويفسدون العالم كله ويجلسون متربعين على أنظمة الحكم الغربية أشعر بالإحباط عندما يكون العقل فقط هو دليلي ..! وعندما ينتشر فيني ذلك الإيمان ويتسرب فيني وفي كل وجداني ، فإنني أصدق تصديق تام بأنني موعود بعالم يقيمة الحق تبارك

132 مارس الفرسيون الوثنية العقلانية بشكل فض حتى قرر مجموعة من الفلاسفة أن العقل حاكم علي الوجود .. وتحول الله تعالى إلى عقل كلي .. كيف يمكن يحكم عقل جزئي على فهم وتعريف وتفصيل عقل كلي ..! هذا مايفعله الفرسنسيون لكن خذلان العقل جعلهم مؤخراً ينقلبون عليه وهذا نجده في فلسفة القرن العشرين .

وتعالى والعدل المطلق وأن الموت ليس أكثر من عبور محطة الحياة و سألتقي (بإذن الله) بكل من أحب سواءً أحببتهم وغادروا هذه الحياة قبل آلاف السنين (من الأنبياء والصالحين والحكماء و الصديقين والفضلاء) أو في هذا الوقت الراهن ممن فقدتهم من أخواني وأصدقائي وأهلي المقربين ، إن الإيمان يرزع ثقة كبيرة في داخلي و هو طريق الخير والحق ويحثك على الصدق والأمانة والعدل والفضل والإحسان والجمال واللطف والرحمة وبأنني سأجد كل هاؤلاء الذين أحبهم أمامي في العالم الآخر يزيد ذلك في أيماني بالله تعالى .. وسواءً عرفتهم أم لم أعرفهم فإننا موعود بالخيرين كلهم وأهل الحق والعدل في عالم لا شقاء فيه وحبي وتفكيري المتكرر في (لله) يجعلني أتفآئل بأنه يحبني أنا أيضاً (إنشاء الله) لأنك عندما تحب أحداً فإنك تفكر فيه بشكل مستمر ، وتنفذ ما يطلبه منك واللحظة التي لا أفكر فيها عن (الله) وأنشغل بالحياة ومشاكلها فإنني أشعر بالهم والحزن والضياع والإرتباك والخوف ، والحق أنه الوحيد الذي يستحق أن تنشغل بالتفكير فيه من ولادتك حتى موتك وكل تفكير في غيره أو في تحقيق رغبات غيره ستكتشف مستقبلاً أنه عمل بلا قيمة تذكر وجهد بلا فائدة وكل عمل لاينتهي بك لله لا قيمة له ولا اعتبار ، و لابد أن تندم عليه يوماً ما ، والطريق الوحيد لمعرفة ماذا يريد مني (الله) على هذه الأرض هو

عن طريق (أنبيائه فقط) وليس لي أن أعبده على (هواي أو مزاجي) ، وليس لي أن أخترع صوراً أو شكلاً أو هيئة له لم يقلها هو عن نفسه وبعد أن سلمت لله أن محمد بن عبدالله نبي الله ورسوله تسليم مطلق لا شك ولا ريب فيه وأن الآخره حق والجنة حق والنار حق وأن الله يبعث من في القبور وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فإنني لا أجرؤ على تفسير شيء منه دون فهم حقيقي بجوهر اللغة والأخذ بالاعتبار قول الرسول صلى الله عليه وسلم وأن أتمثل بتقوى الصحابة في هذا الأمر كما سئل أبو بكر عن قوله تعالى:

{ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا }133

فقال : " أي سماء تظلني؟ وأي أرض تقلني؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟"134 وأن من يقول شيء في دين الله فهو يوقع عن الله ولا أريد أن يكون وجهي أسوداً أمام. الله والعياذ بالله { تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ }135 وأن أتحاشى القول في ما لا أعلم كتحاشي مالك رضي الله عنه عندما سأله رجل عن مسألة، فقال " يا أبا عبدالله، جئتك من

133 سور ة عبس آية ٣١

134 تخريج شرح الطحاوية . شعيب الأرناؤوط . اسناده ضعيف

135 سورة الزمر الآية ٦٠

مسيرة ستة أشهر، حمّلنى أهل بلدى مسألة أسألك عنها، قال مالك : فسل، فسأله الرجل عن مسألة، قال مالك : لايدري.. فقال الرجل : فأيّ شيء أقول لأهل بلدتى إذا رجعت لهم؟ فقال ارجع إلى بلدك وقل: سألتُ مالكًا فقال: لا أدري"136 وهذا يحثني أن أتأكد أن هذا القول صدر عن النبي بعد تمحيص وتدقيق كما كان الصيارفة (أهل الحديث) يفعلون مع فارق التشبيه ، وهل كان تواتراَ و سنده صحيح ، وهل يؤخذ به أو لا لعله أخرى .. لأن من يتقول على الله أو الأنبياء بأقوال لم يقولوها فهم يذهبون بأنفهسم للتهلكة و بهذا الفعل الأحمق ويسيرون بأنفسهم إلى طريق الجحيم .!

هنا يمكن القول بأن ، الذين كانت لهم كتب أو صحف من المسيح حتى إبراهيم تعرضت كتبهم للتشكيك والنقد وأثبت نقادها من نفس تلك الديانات و عند معتنقيها، بأنه فيها الكثير من الزيادة والنقصان والتشوية و كتب في ذلك عشرات المؤلفات وسال فيها حبر كثير ، و ما أستطيع قوله (أنني لن أكذبها ولن أصدقها) ولكنني لا أستطيع أن أثبت أنه قد نقل لنا الحق منها.. و ما أنا مؤمن به هو أنها كتبت بطرقة ليست كمنهج المحدثين في علم الحديث في العالم الإسلامي ولا تعرف ، نقد الرجال وعلم الجرح

136 صيد الخاطر ص ١٨٩

والتعديل وعلم العلل الذي يبحث في المتن ذاته ، ولا تعرف هذه الكتب السماوية من يمحص فيها حقيقة قول الأنبياء من غيرهم ، وفحص تواريخ ميلادهم وموتهم وتمييز الخبيث من الصالح ، ولا تعرف السند والمتن ولا تعتمد منهج النقد والمحدثين يعتبرون أن الأصل في الحديث هو الشك .! أي يشكون في الحديث ويبحثون في متنه وسنده حتى يتحققون من نسبته لرسول الله ، وكتب الأنبياء السابقين تعرضت للإهمال منذ آلاف السنين ، لكني في جانب آخر (وهذا مالا أشك فيه) أن محمد صلى الله عليه وسلم ظهر في و جه التاريخ عرفه الشرق والغرب وكتب عنه الشرق والغرب وحقبته الزمني واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار فقد خرج في وجه التاريخ فلم يجرؤ أحد على إنكار حقيقة وجوده أو أنه لم يكن موجوداً قبل ١٤٠٠ عام كما قال رينان "ولد الإسلام في وضح النهار، وفي ضوء التاريخ كاملاً" (Islam was born in the full light of history).137.

وقبره أمامنا في المدينة المنورة وأحداث سيرته يكتب عنها من هو داخل في الإسلام ومن هو خارج عن الإسلام أي أنه حقيقة ظاهرة لاجلاء فيها ولا زيف ، فقد تجد شخص

137 رينان، إرنست. "محمد وأصول الإسلام"، ضمن كتاب: دراسات في التاريخ الديني. ط2. باريس: ميشيل ليفي، 1857، ص 220.

لايؤمن برسالته لكن لن تجد شخص ينفي حقيقة وجوده وما أحدثه من انقلاب تاريخي في العالم كامل عند أي باحث موضوعي يسير وفق منهج علمي .! وهذا مالا يحدث مع غيره ممن سبقوه وهنا تكون دليل ثبوت وجوده وعندنا كمسلمين يثبت صدقه وأنه مرسل من الله لعامة البشر..

ونزل القرآن ببلاغة نظم لغوي لايعرفها العرب من قبل وبجمال لم يسبق لعربي أن تحدث بطريق، وبحقائق وشواهد وأحداث أخذت بعقولهم ووجدانهم وتأكد لهم بأن هذا الكتاب (القرآن) شيء مفارق تماماً نصاً ومعنى عن تأليف البشر ولأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم لايكتب ولا يقرأ كان هذا مصدر الحيرة والدهشة عند الجميع فلم يكتبه محمد ولم يؤلفه محمد الأمي الذي لايعرف الكتابة ولا القراءة.! هنا بدء فجر جديد للتاريخ وخرج العرب من فراغ وجودي ووثنية مفرطة تجعلهم يعبدون مايصنعون، لإيمان صادق بالله نقي من الوثنية والتصنيم والشرك، فكان الإنسان في الجزيرة العربية ، يعبد مايصنع ولم يكن خياله يتجاوز المادة التي أمامة وأحيانا يأكل مايعبد كما فعل عمر رضي الله عنه، لكن الإسلام أخرج الإنسان من هذا الضياع والفراغ الوجودي لإيمان صادق فحرره من عبادة الحجر والشجر والبشر لعبادة خالق الحجر والبشر والشجر ومن ضيق الأديان وجورها لسعة الإسلام وعدله

ومن ضيق الدنيا ومشاكلها التي لاتنتهي لسعة الآخر التي هي جنة الصالحين وأمل الخيرين وفردوس الأتقياء ، وأعطى العرب هذا الإنفجار الإسلامي في القرن السادس والسابع حضارة مترامية الأطراف ليضعون قدم على حدود أوروبا وقدم في أقصى الصين ولتصدق نبوة الرسول اليتيم الذي واجهه العرب أشرس المواجهة ولكن الله نصره وحقق له وعده وقال صلى الله عليه وسلم " لَيَبْلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ، ولا يترك اللهُ بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله الله هذا الدين، بعِزِّ عزيز أو بذُلِّ ذليل، عزا يُعِزُّ الله به الإسلام، وذُلا يُذل الله به الكفر"138 وما كان هذا النبي العربي يترك وحيداً فقد كان أصحابه يتبعونه و يحذون حذوه حذو النعل بالنعل فكل قول أو فعل أو سلوك كان يفعله صلى الله عليه وسلم يحفظ عنه ويأخذ منه ، حتى أنهم بعد موته لم يتركون لواش أو كذاب طريقاً قدر مايستطيعون فمن نقل حديثا أو قولاً أو فعلاً لم يأتي عليه بشاهدين جلده عمر وبهذه الشدة كان يفعل ابي بكر من قبله و كان فهم القرآن وفهم السنة يعني أن تكون فقيهاً والفقه عند العرب هو الفهم ، أي أن الذي يفهم الشيء ويحيطه من كل جوانبه يقال له فقه كذا ... وهذا ماحدث مع جهابذة الفقهاء من الصحابة والأجيال التالية ، و هنا

138 تخريج صحيح ابن حبان . شعيب الأرناؤوط . ص ٦٧٠١

كان يسري في داخلي أن آخذ بظاهر القرآن على طريقة الإمام الفقيه ابن حزم حتى أخرج من معارك الفقهاء التفصيلية والجزئية وماصح عند المحققين الآفذاذ من صحيح السنة و مما لايشوبه شائبة عند المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأن الحديث إن صح فهو مذهبي كما يقول الشافعي ، و أفهم النص فهماً صحيحاً من خلال العودة للغة العرب وهذا الفهم لايغفل المقاصد الكلية للشريعة ولا يهمل واقع حياة الناس ولا يتجاهل المصالح والمفاسد ولا يهمل الواجبات ولا يتجاهل الأركان التي يقوم عليها الدين لكنني في نهاية المطاف لست بأحسن من الرسول صلى الله عليه وسلم فهو (ماخير بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما مالم يكن أثماً ...)139.

كل هذا يزيد في أملي وإيماني وطمأنينتي وسعادتي بأن هذا هو قاعدة إيمانية صلبة عن قناعة وليس تقليد وعن إيمان وليس إدعاء وعن تصديق وليس شك ، ولابد أن أحسن الضن بالله ، ولأنني لم أعبد غيره وكل من أحبهم وفارقونا في هذه الحياة وعرفتهم عن قرب لايعبدون غيره ، و أفردوه بالعبادة ونبذوا عنه كل شريك ، و جعلوه مطلق الإرادة ومطلق الخير ومطلق الحق ومطلق الجمال وهو أكبر وأعظم من كل شيء قد يفكر فيه أو يستطيع أن

139 صحيح البخاري . المحدث البخاري ص 6126

يتصوره الإنسان وهنا أجد (وعد الله) الذي يتكرر في القرآن في عشرات الآيات كحقيقة تصديقية للمؤمن الصادق وهذا التصديق يحجب عنه الهم والضجر ويمنعه من ذلك الفراغ الوجودي ويحصنه من القلق العدمي في مواجهة الموت ..

الموت و الفراغ الوجودي .

يقال أن في لحظة الموت والاحتضار يكف فيها الإنسان عن الكذب ، لأن الأنا تدرك نهايتها وتسقط الأقنعة وتأتي مع الموت اللحظة الصادقة وهي النهاية الحقيقية للزيف و الكذب الذي يمارسه بعض (البشر) بمتعة وبلا مبالاة وبلا مسؤولية وبتفذلك ماهر في هذه الحياة... الموت هو "الاستيقاظ الأكبر " عند سقراط لانه تحرر من قيود الجسد

وليس النهاية بل البدية ...ويدرك الفرد أن المصالح لم تعد لها قيمة الآن ويشعر الإنسان بوضوح في الرؤية ليس له نظير ، ويصف القرآن هذا الوضوح في الرؤية بقوله تعالى :

{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} سورة ق ٢٢

ولكن لماذا يتلاشى عن الفرد هذا الأمر حتى في المجتمعات الشرقية المتدينة وهل هي تعاني هذه المجتمعات من التغريب الاواعي! و هل ـ رضاعة التسليةـ كما يسميه بريجنسكي و الاستهلاك المفرط والترفيه والركض ورى الشباب الدائم بعمليات الجمال وهذا الواقع الرقمي الذي يعزز ثقافة الإنتاج وزيادة الارباح والإنجاز والطموح ... وكأن الموت لا يخصنا إلا في لحظة الوقوع، و على مر التاريخ الإنساني يكمن الإختلاف بين الإنسان الرباني والإنسان الدهراني الإنسان الذي يعبد الله والإنسان الذي يعبد المادة الشهرة المال التسلية ...

لكن الخطير هو تحول مفهوم الإلحاد كشكل جديد من أشكال الإيمان،[140] وهذه من عجائب الأمور حقيقة .! وفي المقابل أشخاص يصنفون أنفسهم كمؤمنين وهم

140 يمكن الرجوع لأدبيات وفلسفات الإلحاد الوضعي الجديد ...او الفلسفات التي تؤله الإنسان كفلسفة لوك فيري وغيره ....

ينشرون مفاهيم الإلحاد والشكوكية ويروجون لها رغم أدعاؤهم بالإيمان .!141 حتى يختلط عليك أمر هؤلاء وهؤلاء ، وتشعر بحالة من العبث في المفاهيم والأفكار وباتت السيولة في المفاهيم هي مايطفو على السطح بل باتت مهيمنة على هذا العصر النسبي أو "السائل" إن صح التعبير وجاز لنا أن نأخذ بقول زجمنت باومان بأن ـ **الاموقف** ـ هو الموقف عند الغالبية العظمى من النخبة وأن النسبيه هي المطلق الوحيد.

حتى تحول ـ **الا فهم** ـ أهم من ـ **الفهم** ـ ذاته، وكتابة ماليس مفهوماً أهم مما هو مفهوم.!142 بل بات كتابة ماهو مفهوم شكل من أشكال البساطة الفكرية والسطحية.. وكأن لذة تكرار الأفكار والتباهي بها أهم من الأفكار ذاتها .

و نيتجه راديكالية الغموض هو انفصال حاد بين النخبة الموجهة للمجتمع والمجتمع ذاته، وتحول المجتمع شرقاً وغرباً مع ـ مع الثورات الصناعية والتكنلوجية المتجددة ـ إلى حالة من الامبالاة تجاه كل قضايا الوجود ـ فلا يهتم بالإلحاد ولا بالإيمان وشغله الشاغل هو وثنية الاستهلاك

141 روحانيه بلا دين عن هام هارس وكذلك ألان دي بوتون .. وفلسفة الروحانيات الجديدة عند فلاسفة الهند الغربيون مثل اوشو وغيره..

142 يمكنك العودة لمقال راديكالية الغموض لميشيل فوكو عن جاك ديريدا ... عنوان " "جسد وحبر (Mon corps, ce papier, ce feu) " كان يرى أن ديريدا يختبئ وراء تعقيدات لغوية تجعل نصه عصياً على النقد، و "إرهاب فكري" يعتمد على جعل النص غامضاً لدرجة لا يمكن معها فضحه أو نقد منطقه. هذا الأسلوب في الكتابة تحول إلى (موضه فلسفية) كما يقول فؤاد زكريا ...

(رضاعة التسلية) وهذا النوع الأخير هيمنت عليه الرغبة و الجشع والجنس ، وطمست من عقله كل أفكار الوجود فجعلته كالآله البايلوجية تماماً يكره التفكير و لايتذكر قضايا الوجود ولا يهتم أصلاً بها وهو ما يسمى بالالحاد العملي[143]، والموت عنده لا يبتعد كثيراً عن تلك الرؤية الفلسفية في الأفلام التي يشاهدها في دور السينما ، ويضن أن العالم يمكن أن يكون على طريقة دزني لاند ـ **هذا للمجتمعات الغربية وملاحقها التي تعيش حالة الاستلاب الثقافي** ـ ويغيب عن عقله الفرد فيها حتمية النهاية (الموت) و التي يسير لها يوماً بعد يوم ، وغالباً يتمدد فيه ذلك الفراغ الوجودي في نفسه و هو أن يشعر الإنسان بفراغ تام تجاة قضايا الوجود و هو ردة فعل لذلك التسليع والتشيؤ[144] الذي تم ممارسته عليه بكل قسوة وقوة في هذا العصر الصناعي من خلال الرأسمالية المتوحشة ، والهيمنة التقنية في هذا الخطاب الميدلوجي الحديث . و العجيب أن هذا الخطاب الرأسمالي يقدم خطابات نقدية لذاتها تشعر المستهلك بأنها محايده وعملية .! هل لأننا "

143 إلحاد لا يصطدم مع المعتقدات بشكل فكري صريح بل يقوم على تجاهل ولا مبالاة بقضايا الوجود ويسمى في البحوث الغربية Practical Atheism . يفرق البعض بين الملحد العملي والااكتراثية مع انني لم اجد فرقاً جوهرياً بينمهما وقد ناقش طه عبدالرحمن مفهوم نسيان الإله ونسيان الحاجة إيه أصلاً في بؤس الدهرانية والروح الحداثة . وكذلك المسيري في العلمانية الشاملة والذي يعتبر الملحد الااكتراثي بمفهوم Apatheism لا يكترث بمرجعية متجاوزة (إلهية) ولا يعادي الدين بالضرورة لكنه يجعل الاستهلاك واللذة هي المرجعية عنده ...

144 أن يتحول الإنسان لشيء من ضمن الأشياء يقوم بأهداف ووظائف محددة ، كالكرسي والطاولة والباب ....

نعيش في اقتصاد قائم على الانتباه كأغلى سلعة عند الإنسان و عند مستهلكي التطبيقات للأجهزة الحديثة و الميديا والويب ووسائل التواصل... ؟ والأعجب من كل هذا أن يتسرب شعور للفرد أن كل هذا السخاء التواصلي بين البشر يقدم بشكل مجاني وبحسن نيه ... وفات ـ المستخدم ـ أن الخدمات التي تبدو مجانية وبلا مقابل مثل وسائل التواصل الاجتماعي ليست مجانية أبداً فهم يستغلون أثمن ما يملكه الفرد (الوقت ...) تقول أحد الأفكار النابهه: (إذا لم تدفع مقابل الخدمة فأعلم أنك المنتج)"145 لقد فقد الإنسان ثقته في نفسه وقدرته على الحكم على القضايا التي يفترض أن تكون واضحة كالشمس .! في هذا الضجيج من الخطابات التي لا تنتهي ... وهذا مايجب أن يعود له الإنسان (لأغوار النفس) للعمق الداخلي و هذا عبر عنه غوستاف يونغ بأن " الإنسان لغز بالنسبة إلى نفسه ... فهو يعرف أنه يميز نفسه عن غيره من الحيوانات ...وكائن واع مفكر يتمتع بهبة الكلام ، يفتقر إلى جميع المعايير الأزمة لتقديرة لنفسه ...هو ظاهرة فريدة على هذا الكوكب لايستطيع أن يقارنها بأي شيء آخر "146 إن يونغ هنا لم يأتِ بالجديد لكنه في الحقيقة يؤكد على هذا

145 (المنتج الذي يراد بيعه ...) مجلة الفيلسوف الجديد . العدد رقم 2 ص 21

146 التنقيب في أغوار النفس ، كارل غوستاف يونغ ، ترجمة نهاد خياط ص ٤٥

الإشكال المربك في إنسان اليوم " الإنسان الذي لايدرك قيمة ذاته فيفعل كل مايمكن من السلوكيات فقط للفت الإنتباه .! فيضن أنه فاعل وهو مفعول به أي ضحية خطاب ميدلوجي مسيطر ــ بقدر ما تثير الإنتباه فأنت ناجح ـ ولا يكاد يسلم أحد اليوم من هذه الهيمنة الشرسة لهذا الخطاب الميدلوجي بل حتى ذائقاتنا تجاة الجماليات تغيرت وفق تأثير هذا الخطاب، 147بل ذهبت النساء لما يسمى (السلعنة الذاتية) حيث تنظر المرأة على أنها سلعة تحتاج للتطوير والتغيير الدائم من خلال عمليات التجميل ومراكز العناية الجسدية التي تساعدها على تحقيق الذات نحو الجمال و الشهرة والمال و التي تفعل (للمرأة) كل مايمكن فعله من جماليات الجسد وفق ذائقة الخطاب الميدلوجي...حتى تثبت للآخرين بأنها موجودة وكينونتها لا تتحقق إلا بإنخراطها في هذه العمليات التجميلية، ورغم كل مايؤذيها من جراحة وشد ونحت وتجميل وعمليات متنوعة إلا أنها قادرة على أحتمال كل ذلك كي تنخرط في

147 والباحث في فلسفة الجمال يعرف أن الجمال مرتبط بالثقافة ارتباط وثيق وهو نسبي لحد كبير وأن الذوق الفردي يختلف بختلاف الثقافة التي ينتمي لها الفرد. لكن مفاهيم الجمال اليوم تم تعميمها بشكل راديكالي غربي لتكون عامة عند كل البشر وفق أنماط محدده...

هذا الخطاب وتتفاعل مع مايسمى. (النسوية الشبكية Networked Feminism).148

وهذا التشوه في الحقيقة نابع عن العقل وتصوراته قبل الجسد وهو في الحقيقة ليس في شكل ـ المرأة ـ الخارجي كما تضن هي .

بل في داخلها هناك في العمق ... (هناك يكمن التشوه الذي لايعالج بعمليات التجميل أبداً) ومالم تردم التشوه الداخلي فإن التشوه الخارجي لايمكن علاجه ، وهذا الجمال طريق لتغذية الاستهلاك من خلال مشاريع التسويق وزيادة القوة الشرائية بل و الغرق في الاستهلاك حتى يعبر الفرد عن ذاته بمنتجاته المستهلكة فيقوم بشراء واستهلاك منتجات تجعله ظن أن قيمتة الوجودية مرتبطة بهذه الأشياء التي يشتريها ، فهو بقدر مايملك بقدر مايكون موجوداً...!

حتى باتت الأشياء التي يملكها هي من تضفي عليه بعداً وجودياً.

148 ناشطات نسويات على مواقع التواصل يمارسن الحشد والتنسيق وحشد القصص والمظلومية ... والتأثير على الأجيال ...لمقاومة كما يعبرن به " النظام الأبوي الذكوري " و مقاومة مفاهيم مثل الاسرة و التربية و الإنجاب والتضحيات العائلية من أجل الأبناء أو الزوج ومقامة كل سلطة من الرجل على المرأة سواءً تأتي من الدين أو المجتمع أو الثقافة.

هذا الفراغ الوجودي يجعله يضيع تماماً في بحر الاستهلاك[149] وينسى أسئلة الوجود ، ولا يعرف ذلك إلا عند الاقتراب من الزائر الأخير (الموت) سواء بالمرض أو بالموت ذاته. والجادون وحدهم هم من ينشغلون بقضايا الوجود ويهتمون بها ولأن الموت هو بوابة العبور الكبرى فهم ـ وأقصد هؤلاء الامبالين بالموت ـ يجدون أنفسهم في حيرة كبيرة وارتباك عظيم ويقظة مفاجئة وقلق وجودي حاد والتحول الجذري اذا رزقهم الله النجاة من الموت ...

149 لا يقصد بالاستهلاك الشراء فقط بل بمفهومه الواسع كما هو عند بودريار مثلاً أي هو "عملية واسعة بكيفية تفاعل الإنسان مع الموارد ومع الأفكار والرموز لتشكيل هويته ومكانته في العالم " . هناك مفهوم أكثر في دليل مصطلحات هارفرد بزنس...

وعد الله (والقرآن)

يعد الله المؤمنين في القرآن في عدة مواضع وعداً لا ريبة فيه ولا شك حوله وهذا الوعد هو جوهر المسألة الوجودية لأنه مرتبط بالتصديق الذي ينعكس على هذا العالم الدنيوي (عالم الشهادة) ويوضح أمر العالم الأخروي (عالم الغيب) ومن خلال هذا الوعد الصادق يعيش الإنسان المؤمن (بمرجعية صلبة) و متسقاً مع ذاته ومتماسكاً في أفكاره . ولأن التصديق بهذا الوعد يحثنا على الصبر حتى يأتي هذا الوعد فإن الإنسان المسلم مالم يتسلح بالصبر فلا يمكن أن يكون مؤمناً حقاً و يقدم لنا القرآن أجمل المعاني لجزيل الصبر وثواب التصديق ووعد المؤمنين في العالم الآخر ، فهذه مجموعة من الآيات التي وعد الله بها المؤمنين في أكثر من موضع ، يقول الله عن ذلك :

- { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}.150
- {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ }151
- {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ }152

---

150 سورة النساء . آية ١٢٢

151 سورة المائدة . آية ٩

152 سورة التوبة . آية ٦٨

- {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}153
- {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }154
- {وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 155
- {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } 156
- { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }157
- {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ }158
- {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ }159
- {لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ} 160
- {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} 161

153 سورة يونس . آية ٤

154 سورة يونس . آية ٥٥

155 سورة الروم . آية ٦

156 سورة الروم آية ٦٠

157 سورة لقمان آية (٨ – ٩)

158 سورة لقمان . آية ٢٢

159 سورة فاطر . آية ٥

160 سورة الزمر . آية ٢٠

161 سورة غافر آية ٢٥

- {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ. نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}162
- {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ}163

إن وعد الله هو مايدفع المؤمن للتسليم لله تعالى والرضا بكل أحوال الحياة وظروفها والصبر عليها وعلى مشاكلها وعلى عجرها وبجرها ، إن وعد الله يبعث على التفاؤل داخل النفس والانشراح ونشره للآخرين من إخوانه المؤمنين فهم موعدون بما هو أجمل بكثير من هذا الشقاء الدنيوي وظنهم بالله ظن حسن ينبع عن قوة اليقين وبسعة كرم الله وعطاء الله على قدر الظن وشغفهم الكبير برؤية الله تبارك وتعالى كأعلى غاياتهم وأجمل أمانيهم وهو طموحهم الأجمل والأكمل والأكبر ، يقول أحد المتصوفه " لم أحبك وحدي لكنني ما أحببت إلا أنت " إن رؤية الله هي نعيم الأرواح و أعلى مراتب البهجة والسعادة والتكريم في العالم الآخر ، هناك يتجلى لذك رؤية الجمال المطلق المتسامي و الذي ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى و تشعر و أنت في حضرته بالنعيم المطلق والسعادة الدائمة و تنظر إليه وهو ينظر إليك وهذا واقسم بالله على أنه أعظم أماني

162 سورة غافر آية ٢٦

163 سورة الأحقاف آية ١٧

المؤمن الصادق و يصف ذلك الله بقول{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ*إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}164

وهذا الأمر يحتاج قبل كل شيء لإصلاح القلب الذي هو مكمن الإيمان العمل لأنه إن صلح صلح الجسد كله . والسعي نحو تطهيره من شوائب الشرك والوثنية وتنقيته لله بشكل خالص .

ولماذا القلب تحديدا وليس للعقل لأن القلب هو مصدر الرغبات والغايات والشهوات والحاجات والأمنيات وكل العواطف الجامحة ، ومقاومتها أحياناً في غاية الصعوبة، فقد يمارس المرء فعلاً مصدره القلب ثم يضفي عليه مشروعية عقلية .! وليس على مستوى البسطاء فقط بل حتى على مستوى مايمكن تسميتهم النخبه (الطبقة العالمية) حتى أن المناهج العلمية لم تعد تحكم وتضبط المؤلف ضبطاً موضوعياً ولا يمكنها ذلك وذلك لسبب بسيط أن المؤلف إن كان من أهل صناعة الكلام وصناعة الحجج له قدرة عالية تطويع المنهج وفق رغبات قلبه و على الإفلات قبضة الموضوعية و إضفاء موضوعية على أقواله وتطوير المنهج لذاته بشكل غاية في الدهاء والذكاء ويظهر

164 سورة القيامة آية ٢٢

للقارئ البسيط بأن أقوله قائمة على المنهجية والموضوعية وليست نابعة عن رغباته وهواه.!

و إن العودة للقلب هي عودة لاكتشاف المجهول في الإنسان والذي يكون محتجباً عن صاحبة هناك في هذا القلب تكمن العديد من الأمراض النفسية التي لا ينتبه لها صاحبها ويضن نفسه سالماً منها ،، ولا يتحقق التصديق والإيمان والعمل الصالح إلابعد أن يعود للقلب وهو يستوطنه الكبر والعجب والحسد والغل والشك والريبه والميل عن الحق وحب الجاه والمكانة والمال. وهناك تقاطع عميق في علم النفس مع أمراض القلوب في الإسلام و الذي يسميه يونغ الظل الذي يستوطن أغوار النفس .

وعلى سبيل المثال مفهوم النفاق في التراث يتشابه مع ذلك الظل (البرسونا) أو الأقنعة التي تسبب الفجوة بين الظاهر والباطن وهي الذي يرفضه الفرد أمام الناس و يمارسه بينه وبين ذاته و يحاول إزاحته عن نفسه إذا كان يسبب له النقد و المشاكل لانه لا يتناسب مع صورته المثالية أمام المجتمع وهو في الحقيقة يستوطنه في أعماق نفسه ويزيحه دائماً لمنطقة (الاشعور).

وهناك مفهوم الإسقاط عند يونغ الذي نرى عيوبنا في الآخرين ونهاجمهم بشدة لنتهرب من مواجهة حقيقتنا الداخلية وهذا يتقاطع عندي عندما يقوم أحدهم بأن ينصح

الناس بالبر وينسى نفسه فيطلب من الناس الفضيلة ويعمل الرذيلة حتى يجد المكانة الاجتماعية ويمدح بما ليس فيه ويتتبع عورات ومصائب ومثالب الناس بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ويزيد في نشر هذه الفضائح ويعمم المساوئ والمخازي .

الإسلام يحث الفرد على محاسبة النفس ، ومن الخطر أن نتجاهل الجانب المظلم في نفوسنا هو أقصر طريق للوقوع في قبضته. وهذا الظل يخفي الكثير من النزوات والأطماع والأفعال يسميها غوستاف يونغ (المنطقة المظلمة) وهي بشكل عام خاملة في الاوعي ،ورغم وجودها إلا أن الإنسان يحاول أن يخفيها ويخفي الكثير من الأشياء الكامنة هناك و التي قد لايعرفها الآخرون عنه وهو أيضاً قد لايعرفها عن نفسه، و أحياناً تحتاج أن تجلس مع ذاتك وتكتب عيوبك ومثالبك ومعاييك.

ومن الملاحظ بأنك عندما تكون صادقاً في التشخيص ومحاولة العلاج ستصل بإذن الله لذلك المراد لكن عندما تمارس ادعاءات مزيفه فلن تصل أبداً أبداً .

إن فهم المشكلة أهم طرق الحل فعندما تنكشف الذات للإنسان ويفهم عيوبها ومشاكلها يستطيع ان يعيد توجيها و قد يكون من أهم ما قد يفعله الإنسان في حياته بأكملها هو مقاومة هذا الظل الكامن في أغوار نفسه (محاسبة نفسه)

، لأنه منطقة الرغبات الجامحة والشهوات المنفلتة والجشع والتوحش والأنانية ، وهناك يكمن حب السيطرة والتسلط والتسويف وكل ماهو قبيح في الإنسان ، و هذا (الظل المربك إن سمح الإنسان أن يجعله يسيطر عليه ، فهو قادر على أن يسقطه في وحل المشاكل التي لا تخطر على ذهنة، ولكن كيف نقاوم هذا (الظل) وهل يمكن مقاومته دون فهم طبيعة البشر بشكل عام ، في العالم الإسلامي هناك مقاربة أخرى وهي معالجة القلب لأن هذا القلب هو أهم جهاز قد يوجه مشاعر وسلوك الإنسان.

(من الحارث المحاسبي لغوستاف يونغ)

في علم النفس الحديث كما ذكرنا انشغل علماء النفس كثيراً بالسلوك الإنساني والعقل والتفكير ودوافع اتخاذ القرارات داخل الإنسان ...التنبأ بما سيكون عليه من خلال تصرفاته وأفعاله ، وبحث العلماء في الوعي وفي الا وعي أيضاً وكانت اللغة بوابة كبرى لفهم السلوك وأشتغل فيها الكثير من العلماء سابقاً لكن منعطف اللسانيات الحديث حاول تفسيرها بشكل جلي كما اشتغل البعض بحركات الجسد وحاول يونغ وادلر وفرويد فهم شخصية الفرد وتفكيكها وفهم دوافعه وغاياته (رغم اختلاف الغايات بين الإسلام وعلماء النفس) فنبشوا في تلك الغرائز المكبوته في عمق الإنسان، ويمكن القول أن علم النفس هو سليل الفلسفة بشكل عام فكانت الفلسفة تريد دائماً أن تقول (أعرف نفسك) هكذا ببساطة ، ثم بحثت في الوجود و في عالم القيم كالخير والجمال والحق . لكن الحضارة الإسلامية عالجت شخصية الفرد من خلال القلب معالجة في غاية الذكاء و لها مقاربة هامة جداً في تحليل سلوك الفرد وتوجهاته وهذه المعالجة تبدأ بفهم الإنسان في الأصل .

وماذا يعني إصلاح القلب؟

إن إصلاح القلب تعني العناية بالباطن والجوهر الإنساني ، أي بمعالجة الإنسان نفسه من الداخل ، تحاول هذه المعالجة أن تكبح جماح الذات المنفلته وترويضها وتوجهها التوجيه الصحيح بمنهج نفسي ذاتي يقوم به الفرد تجاه ذاته ، من دون سلطة لأي أحد عليه ، وهذا مايسمى (بأمراض القلوب) ولهذا المرض عدة أطباء في الحضارة الإسلامية قاموا بالكتابة عنه مع مرجعة خاصة من القرآن والسنة الشريفة وكان من أهم رواد هذا الفن الحارث المحاسبي وابن حزم والغزالي ...إلخ . وغيرهم رحمهم الله جميعاً ، ويمكن أن نلاحظ أن عالم النفس السويسري غوستاف يونغ من أهم من بحثوا جوهر شخصية الفرد وكان شغله الشاغل البحث في مايسميه (الظل) هذا الظل مجموعة من الأفعال والأفكار والسلوك يرفضها الإنسان عندما تعرض عليه رفضاً تاماً، والتي هي في الحقيقة كامنة في داخل نفسه (أي أنه هذا الفرد يرفض سلوك وأفعال معينة وهي في الحقيقة جزء من شخصيته ، و فيه شيء من ذلك الذي يضمره ويرفضه ويكره أن يظهرللآخرين فيه، وهذه المقاربة نجدها بذكاء مفرط عند الحارث المحاسبي ومجموعة من فقهاء القلوب الذين بحثوا في شخصيه الإنسان بحثاً دقيقاً ونابهاً ، ولم يترك الحارث المحاسبي

العقل كما يضن البعض ، بل كان أول من كتب في مفهوم العقل بتحليل نابه ـ كما نعلم ـ ويصفه بقول " غريزة جعلها الله في الممتحنين من عباده أقام به على البالغين للحلم الحجة "165 وهو" غريزة يولد العبد بها ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول " 166 وهذان التعريفان النابهان نجد مقارباتهما في بعض مناهج اللسانيات الحديثة حيث يعتبر العقل غريزة إنسانية ، وهو منقذ للإنسان من خديعة العاطفة ويثني عليه بقول " ما تزين أحد بزينة كالعقل، ولا لبس ثوبًا أجمل من العلم، لأنه ما عرف الله إِلَا بالعقل ولا أطيع إلا بالعلم "167وهذا عند الكثير من العقلاء فالعقل محك النظر وهو أيضاً البصيرة والمعرفة عد المحاسبي ، لكن ماذا عن القلب وأثره في شخصية الإنسان وماهي تلك المقاربة بين المحاسبي وبين غوستاف يونغ في معالجة الذات من الداخل (القلب ـ محاسبة النفس ـ الظل) ..

يرى المحاسبي أن المرء يجب أن يتوافق ظاهرة مع باطنة لأن هذا الباطن مهما أخفي عن الناس إلا أنه مقدر عليه

165 العقل وفهم القرآن . الحارث المحاسبي 203

166 العقل وفهم القرآن . الحارث المحاسبي . 205

167 رسالة المسترشدين . الحارث المحاسبي ص 99

مع مرور الزمن أن يتجلى للناس ويظهر كما قال الشاعر زهير ابن أبي سلمى وهو من أًصدق شعراء العرب .

وَمَهما تَكُن عِندَ اِمرِئٍ مِن خَليقَةٍ

وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَمِ 168

وها يؤكد المحاسبي بأن " من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة ، ومن اجتهد في باطنه ورثه الله حسن معاملة ظاهره ومن حسن معاملته في ظاهره مع جهد باطنه ورثه الله الهداية إليه"169 وجل جهد الحارث المحاسبي هو في معالجة أمراض القلب أي الذات من الداخل وهذه المعالجة كمبدأ هي ذاتها التي يمارسها عالم النفس يونغ في أن التغيير الصادق لايكون إلا من الداخل ولا يتحقق إلا من إرادة ذاتية وقرار داخلي، ويصل الإنسان للصدق عندما يتوافق ظاهرة مع باطنة ، **و لابد** للفرد أن يفهم نفسه أولاً ثم يقوم بمعالجتها..

168 هذا البيت من معلقة شاعر العربية الكبير زهير بن أبي سلمى وهو سقف الشعر العربي .

169 حلية الأولياء و طبقات الأًفياء . ص 75

وهذا شرط ضروري للتغيير يقول لنا يونغ بأن الذات لايمكنها إلا فهم جزء ضئيل منها فقط "170 لأن من يسمى بالشخص السوي لا يمتلك سوى درجة محدودة من معرفة نفسة "171 وإذا كان ذلك كذلك فمن الصعب هنا أن نفهم أنفسنا فهماً عميقاً وصادقاً ونواجه أنفسنا مواجة صادقة ، و فهم تلك التقاطعات التي يشرتك فيها غالب البشر مثل حب النفس والانحيازات والنرجسية والأقنعة المتغيرة والحسد والرغبة وحب اثبات الوجود وشهوة الحرية وشهوة السلطة والعظمة ومحاكاة الآخرين والعدوانية...إلخ وهي حصيلة عشرات المؤلفات التي كتبت في تاريخ البشر لفهم ظاهرة الإنسان. والإنسان يفسر ذاته أولاً ثم ينتقل لتفسير هذا الوجود المحيط به ، أي يبدأ بالذات وفق رؤيته ووجهة نظره ثم ينطلق من تلك الذات لفهم كل مايحيط به (الوجود) ووفق يونغ يجب أن تعرف الجانب المظلم من شخصيتك " فظل المرء يحتوي على جميع الخصال التي يحاول أن يكبتها وينكرها في نفسه فهذا الظل يعمل في

170 في بحثه في شخصية الإنسان يرى أن ذلك التوتر المسمى بالأرق الذي يمنع الإنسان من الراحة والنوم ويجعله في تفكير دائم وقلق مستمر و لايفارقة في نهاره وليله ، يعتبره قوة تدفعنا إلى التقدم ، للبحث ، للعمل ، لأن نكون مستيقضين على الدوام، ولكن إذا كانت السعادة مرتبطة أرتباط وثيق بالطمئنينة والأرق أبعد مايكون عن الطمئنينة فكيكف تجتمع تك الأفكار المنتناقضة في ذات واحدة دون أن تعاني من فصام الشخصية .! وأظن أننا عندما نطلب من إنسان عادي أن لا ينام قلبه ويبقى يعمل على الدوام فإن هذه صفه خاصة بالأنبياء وليس لعامة البشر الآخرين ومن الصعب أن " تنام عيني ولا ينام قلبي "170 أو بمعنى آخر ليس من السهل ذلك أن أكون بهذه الحذاقة والذكاء والنباهه بستمرار ، وهذا الفعل هو شعور لايمكن أن يجلب السعادة فإن القلق يعني التفكير والهم من المستقبل أوالخوف من الماضي ، ولايعني القلق زيادة الإنتاج بل يعني توتر فحسب هذا كل مافيه الأمر .

171 التنقيب في أغوار النفس ص ١٢

العقل الباطن ويقول يونغ : (إن هذا الظل له كثافة وهي تعتمد على عمق مستوى الكبت وعدد الخصال التي يخفيها "172 إن هذا الظل ينشط لحظات التوتر ولحظات القلق يصف يونق تكشف الأقنعة بأن المرء عندما يزداد في العمر يتسرب ذلك الظل وتخف عنه الأقنعة ويظهر كما هو تماماً ،وهذا ما نلاحظه من ميل كبار السن في قذف الحقيقة في وجوه الآخرين دون اعتبار لما ينتج عن ذلك من آلام نفسه وردات فعل وهذا يبين أنهم سئموا من ارتداء الأقنعة التي مارسوها داخل المجتمع لأن ماكان في جوهرهم يختلف عن ماهو في ظاهرهم وأن هذه الأفكار الكامنة في الظل انفجرت تماماً أي أنهم قرروا أن يعبر عن أنفسهم بصدق وينطلق ذلك الظل دون اكتراث لما يحدث، وهنا بحث طويل في هذا وكلام كثير يمكن أن يقال ... لكن المهم في ماسبق هو أن ندرك حجم أهمية ذلك التطابق بين الظل والأنا التي في علم النفس أو بين القلب والمظهر كما هو في الإسلام وصحيح أن المرجعيتان تختلفان تماماً (المرجعية الإسلامية ومرجعية العلوم الإنسانية في الغرب) لكن هذا يؤكد أن التطابق بين المظهر والجوهر هو من أهم الأشياء الباعثة على الطمأنينة النفسية بشكل عام .

172 قوانين الطبيعة البشرية . روبرت غرين

تأملات في " سفسطة الخنادق "173

في الخنادق لا يوجد ملحدون ... الجميع يتخلى عن رأيه وفلسفته ليؤمن بقوة عليا عند الشعور بالاقتراب من الموت ... بعد تعدد آراء الفلاسفة في العصر اليوناني وتشعب أفكارهم خرج لنا مجموعة من البشر وهم أشبه مايكونون (بمجتمعات التواصل الحديثة) يعانون من خوار فكري وعقلي فهم يقولون الشيء ونقيضه ويمدحون الكذب و الصدق في نفس الوقت ويمجدون الفضيلة والرذيلة معاً ويزيفون الحقائق لغايات في نفوسهم أحياناً ،، تكون أحياناً لمصالح مادية وذرائعية ، و في أحيان أخرى لحاجات نفسية قد لاتكون ظاهرة ، ونجدهم ينشرون النسبية في القيم فلا شيء حقيقي ولا شيء واقعي وكل شيء يمكن أن يكون شيء آخر غير ذلك الذي نعرف ..! وكانت تسمى هذه الثلة في العصر اليوناني (السفسطائيون) كان هذا الزيف الفكري له نتائج مأساوية في عصر اليونان فكان

173 سفسطة جدل بلا قيمة يقدم فيه التناقضات بلا خجل ، واما الخندق المكان الأكثر جدية هناك ينتهي الترف الفكري تماماً

هذا الفكر (ادعاء) وجعيع بلا طحين لا أكثر ولا أقل ، لا يبني معرفة ولا يشيد فهماً ولا يقول حقاً ولا ينتهج عنه علماً... و لابد من خروج رجل أكثر حكمة وتقعلاً ليضبط هذا الجعيع الفكري ويعيد توجيه أصحابه وفق منهجية جادة وفهم عميق ، وكان سلاحة الوحيد في ذلك هو السؤال فيسأل عدة أسئلة فيجيب هذا السفسطائي المهرول على تلك الأسئلة لأنه مشغول بالكلام أكثر مما هو مشغول بالفهم ، وتكون هذه الأجوبة فاضحة لتناقضاته أمام نفسه وكان هذا العفريت المسمى سقراط يخرج الحقيقة من فم السفسطائي عنوه أي " كان سقراط يولد الأفكار في أذهان محاوريه، مثلما كانت أمه تولد النساء الحوامل"174. سار الفكر على هذا حتى وصلنا لفيلسوف آخر قرر أن يكون هذا العقل وفق مقولات و مبادئ عقلية ضرورية ينطلق منها (العقل) حتى يصل للحقيقة كما يرى ولكي يكون هذا التفكير منهجياً ومنضبطاً و أشبه بقانون عقلاني يحكم التفكير الإنساني ويمنع العقل من الزلل والخطأ وكان أرسطو تلميذ أفلاطون .! 175ومع دخول المعارف والعلوم للحضارة الإسلامية كان لهذا المنهج (المنطق) أثر كبير في الثقافة

174 دروس في الفلسفة والفكر الإسلامي . محمد عابد الجابري . ص 29 . يقصد الجابري هنا أن ام سقراط كانت مهنتها توليد الحوامل وكان يمارس ذلك سقراط فلسفياً مع السفسطائيون .

175 أثبت أبن تيمية مع الفيلسوف اليهودي أن مقولات أرسطوا تنتهي هي كذلك للميتافيزيقا وليست بريئة وقدم مقاربه عبقرية بين المنطق اليوناني والنحوالعربي... .

الإسلامية حتى قال عنه الغزالي " من لا يعرف المنطق فلا ثقة لنا بعلمة "176... كان قانون العقلانية يوحي لنا بأنه يقول الحق والحق فيه على مرور الزمن،، ومع تجارب العلماء والمفكرين والفلاسفة فقد هوجم المنطق اليوناني من ابن تميمة رحمة الله وفرانسيس بيكون مع الأرغون الجديد وأثبت لنا كورت غودل أن المنطق لايمكن إصلاحه... لعلل جسام فيه ... هذا القانون العقلي تغيب عنه أشياء كثيرة وأن العقل واللغة ذاتها في غاية التعقيد ، هذا المنطق الذي كان البشري ضنون بأنه سوف يعالج خوارهم الفكري ويصوب مفاهيمهم وتصوراتهم،... ويتضح أن اللغة لغز غائر، وتفكيك شفراتها في غاية الصعوبة والتعقيد و الأهمية وإن الحجج العقلانية توظف توظيف عاطفي والمقدمات تكون هي النتائج غالباً ، أي أن مشاعر الأشخاص (قلوبهم) هي الغول المهيمن على سلوكم العقلي الخفي وبه يوظفون اللغة بدهاء مراوغ ، ولابد أن ندرك هذه الحقيقة البشرية **أي أن القلب هو المهيمن على العقل** ولا يعني هذا أن الإنسان لايتاح له أن يكون عقلانياً ، أو أن الموضوعية في العلوم تتلاشى هذا غير صحيح لكن العلوم الطبيعة تكون الموضوعية فيه ضرورية أما العلوم الإنسانية فهناك صعوبة جداً في قول

176

ذلك ، وهذا القول السابق لايعني أن العقلانية مستحيلة ... لكن يمكن توضيح المسألة بأن الإنسان يحصل على عقلانية بنسبة معينة أو بدرجات بسيطة متفاوتة سأفترض أن هناك شخصاً تكون عقلانيته ٦٠٪ وهناك شخصاً آخر لا تتجاوز عقلانيته ٢٠٪ ولابد أن تلاحظ أن البشر إن تعاملت معهم بعقلانية صلبة لن يقابلوك كما تضن بصدر رحب ، ويباشروك بالمودة والحب. لأن العقل صارم و الناس من طين كما يقول ابن الرومي يجرحهم الشوك الصغير ويجبرهم لطف الله ، ومشاعرهم فوق عقولهم ، بل سيخلقون ضدك العداء الذي لم يكن في ذهنك أن تتخيله عندما تقاومهم حتى لوكنت على الحق وفعلك فظ لانفضوا من حولك ، لأن أسلوب المعاملة اللطيف هو سر جذب القلوب، والفظاظة (الغلظة والقسوة) هي سبب التفرق والنفور، والعاطفة المفرطة تصلح في التشاعر مع البشر لكنها لاتصلح في اتخاذ القرارت الشخصية فالعقل والتفكر السليم يساعدك في عدم السقوط ويقاوم المشاعر الزائفة أحياناً ، والحق أن المشاعر موقعها يكون في الشعر والأدب والفنون وكل هذه الجوانب الشاعرية و لكنها لاتصلح في كل جوانب الحياة لان الافراط في الاعقلانية يعني الهاوية فالغضب مثلاً هو هيمنة المشاعر على العقل !. فعندما يسلم المرء نفسه للمشاعر كالرغبة والحاجة والشهوة والحسد والطمع والحب والكره وتكون كل تلك

المشاعر هي الموجه له فسينتهي به الأمر لمساوئ لم تخطر في ذهنه ، كما أن الإنسان له إنحيازاته العقلية ، وله برادايم (نموذج معرفي) وهو كالنظارة للعقل عند الإنسان ، فهو يفكر من خلاله ولايستطيع التفكير خارج هذا البردايم إلا أن يرزقه الله بصيرة نافذة وعقلاً سديداً ، و الإنتماء أيضاً لجماعة تشبهه تشعره بالطمأنينة والسكينة والهدوء وتقترب من أفكاره ويشعر فيها بالأمن أثناء تواجده داخلها ويتشارك الأفكار والآراء والمعتقدات ذاتها ويضيق من الجماعة التي تخالفه في كل أقواله وآرائه وهي مجبولة في البشر عامة فلن تجد أحداً مهما جعجع على طريقة الفيلسوف نيتشه بقول (اخرج من القطيع .!)إلا ويبحث عن هذا الإنتماء ، صغر شأنه أم كبر ، و هذا الادعاء النيتشوي كبرياء غير موضوعي يخدع البعض فالإنسان كائن تحكمه حتميات التواصل ومالم يتواصل مع الآخرين فإنه يهلك تماماً ، فكل تلك التجارب النفسية والحديثة تثبت حاجة الإنسان الماسة للانضمام لجماعة أياَ كانت هذه الجماعة ، وهذا الإنخراط بين الجماهير ينزع شيئاً فشيئاً عن الفرد فرادته وعبقريته وذكاؤه ويحتاج لحالة توازين ضرورية بين الفردانية المتطرفة والانخراط لدرجة الذوبان والتماهي، وهذا هو الموقف الوسط الذي

ينتج عن حضارة الحوار (قدرة الفرد على التواصل دون أن يصاب بإحادية فكرية ...)[177]

وعندما نتعامل مع أحدهم لابد أن نسأل أنفسنا هذا السؤال هل تلك الأقوال والنصائح والآراء التي أقولها تخفي خلفها ـ احادية فكرية ـ و سلطه مضمره، وشهوة للسيطرة على الآخرين بطريقة غير مباشرة ورغبة في الاقناع .. وعندما نختلف مع أحدهم هل يكون هذا الإختلاف نابعاً من رغبة صادقة في حضارية الحوار والتسليم بحقيقة الأختلاف أم أن لها نوايا مضمرة وغير ظاهرة ..! و من الضروري أن لا يغيب عنا تلك الحاجة الدفينة في أغوار النفس من حب اهتمام الآخرين بنا وهذه الحاجة النفسية لا تختلف كثيراً عن حاجاتنا البايلوجية فنحن نفعل الكثير من أجل الآخرين وفي مايعرف عند بعض علماء الشرعية من (حب الرئاسة والتصدر ومغالبة الأقران وحب الثناء وشهوة المديح) وهذه الاحادية الفكرية تنتج حوار احادي أيضاً (حوار من طرف) وهذا المحاور يغرق أثناء الكلام في توهج " الأنا " والذاتية المفرطة لانه لايسمع سوى صوته هو فقط .

وكل هذا يبين كم أن الإنسان رغم مايظنه واعٍ تجاه نفسه إلا أنه يجهلها تماماً، إن هذا الإعجاب من الآخرين لأي

177 قدم الشيخ عبدالله بن حميد وصالح الحصين رحمه الله نموذجين معاصرين في غاية الحضارة التواصلية الراقية بمرجعية تراثية وإسلامية رصينة .

سبب يشبع حاجاتنا النفسية ويشعرنا بتلك القيمة الكبيرة لذواتنا داخل المجتمع وهذا الأمر هو أيضاً متفاوت بين البشر فهناك من يكون موغلاً في هذا السلوك حتى يبدو عليه بعض التصرفات الحمقاء ، ويسميه بعض علماء النفس غياب المعنى أو الغاية من الوجود... وقد يوغل الفرد في هذا السلوك ويشتط بعيداً جداً حتى يصل به الأمر للإنتحار، لأن المنتحر مثلاً فاقد للمعنى وهو يريد أن يقول لقد كنت هنا ولم يقدرني أحداً وجودي وآلامي بينكم، وها أنذا أجازف بحياتي من أجل أن تتألموا على فراقي وتعرفون أن الاأكتراثية تجاهي كانت سبباً كافياً لأن أغادر الحياة ، إن فكرة الأحادية الفكرية تنفي تماماً كل حوار حضاري داخل المجتمع وهذا النفي ينفي تمايز الأفراد عن بعضهم البعض ويعيشون ليس كما خلقهم الله مختلفين بل متطابقين في سلوكهم وأفكارهم وتصوراتهم تماماً هذا يجعل الفرد لايشعر بقيمة لما يقول وما يريد أن يقول والتواضح الفكري ينشأ بيئة تنتج حضارة تواصل يكون الهدف المشترك بلوغ الحقيقة أو حل مشكلة أو على الأقل تفهم وفهم آراء الطرف الآخر ...

ونحن نجد أن البشر عامة شديدو الفهم والشعور بتلك الشخصيات اللطيفة والبسيطة ، دون غيرهم، لأنهم

يقرؤون في ظواهرهم ما تخفيه مشاعرهم الداخلية الصادقة وتتطابق جواهرهم و ظواهرهم ، وكما يقول الأخطل

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما

جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ومهما أخفينا مشاعرنا بأقنعة خارجية وكل أفعال التصنع لابد أن يفهمها الناس تماماً ، فلايمكن إلا أن تغيب عن الآخرون ولابد أن نعالج الداخل ونطهر هذا الداخل دائماً (وهو القلب) حتى يكون كل مافي الخارج جميلاً ورائعاً ولعل السلوك الذي يجعل الإنسان يهبط للقاع هو السلوك الحيواني وأقصد به سلوك عالم الفقريات وهذا السلوك يقوم علي الحاجة للسكن والجنس والتواصل والطعام والسلطة والصراع من أجل الجنس "الإناث" وكل تلك الأفعال الحيوانية التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، تجعل الإنسان يحبط لمنزلة الحيوان اذا كان كل همة وغايته في الحياة هذه الأشياء فقط ، حتى تتحول علاقات البشر مع بعضهم بعلاقات ذرائعية محضة لتلبية هذه الأغراض وبتواصل براغماتي مادي .

ولهذا فرق علماء الكبار بين مستويات اللغة و بين التواصل فالتواصل يكون غالباً لحاجات جسدية وبايلوجية وفي كثير

من الأحيان للمتعة للجنس للسكن وحماية...إلخ أما اللغة فلها جوانب أخرى ومستويات أعلى كالشعر والأدب وغيرها من مستويات الجمال في اللغة ، بهذا الشكل كما يقول تشومسكي يبين أننا لانستخدم من اللغة سوى جزء ضئيل فقط وهو ما نعبر به عن أنفسنا أثناء التواصل و هو أقل من واحد بالمئة فقط من استخدامنا للغة والبقية يكون بين الإنسان وذاته أي أن ٩٩٪ من استخدامنا اللغوي هو تفكير باطني تماماً وهذا هو أعلى مستويات التفكير باللغة وفي اللغة أيضاً.

لكن المؤسف هو أن يكون ٩٩٪ من تفكيرنا الباطني ليس بين الإنسان وتلك الأفكار العليا التي يفكر فيها النخبه بل تكون منخرطة في جوهر العلاقات وليس بين الإنسان وذاته بل بين الإنسان وبين الآخرين أي أن يأخذ الأخرون الحصة الكبرى من تفكيرنا الذاتي وهنا سوف نعاني من استلاب واغتراب عن ذواتنا يفقدنا ثقتنا في أنفسنا ولايمكن لنا أن لا نفكر في الآخرين لأنهم جزء من **حياتنا اليومية لكن الأمثل هو الانشغال بالأفكار وليس بالأفراد وهنا تنبع لذة التأمل العقلي و التي تستحق العناية والإهتمام وأن لاننظر للحياة من ثقبها الضيق فقط بل أن نجعل أمام أعيننا تلك الرؤية البانورامية الواسعة للغاية التي رزقنا الله بها ونحن على هذه الأرض .**

وماينطبق على الآخرين ينطبق علينا فنحن نسعى دائماً للرزق والخير ونريد أن نحقق مانطمع له ولاشك أن التنافس ظاهر بين الناس في الكثير من الأمور فإن حملنا الآخرين على هذا المحمل وعودنا أنفسنا على هذا أليس هذا يجعلنا نتقبل ردات أفعالهم وتفهمها بشكل أكبر ، وحملهم على العذر في سلوكياتهم وليس على اللوم والمحاسبة الدائمة ، ولهذا أقول ذلك مذكراً نفسي وللقارئ فأنا أسقط أحياناً في اللوم لكن محاولة تجاهل الأحداث والااكتراثية يريحنا إن كان فيها أذى لنا ، ولنخرج من طاحونة التفكير الدائري لابد أن نقبل خلق الله كما هم بصفاتهم وعيوبهم وحسناتهم وأفكارهم وتصوراتهم وأن نسلم بحقيقة الاختلاف بينهم ، وهذا حال كل البشر فكل إنسان في هذه الحياة مختلف عن الآخر و أنت لاتعرف سوى جزء محدد وبسيط منه وماخفي عليك عنه أشياء كثيرة لم يقدر لك معرفتها عنه ، هذا ماتعلمته من البشر، ففي أحد المرات كنت جالساً مع مجموعة من الأصدقاء وكان ظني يشعرني بأنني أكثر الناس حزناً وضجراً بين الجالسين وذلك لوفاة أخي منذ مدة ، وكان قلبي يعتصر ألماً وأحاول أن أتغلب على مشاعر الحزن بالنسيان والتجاهل والتسليم لله دائماً وأبداً وفي أثناء الحديث والتسامر مع الأصدقاء ظهر لي أن أحدهم يعاني من أعاقة ابنه التي تجعله يقضي أكثر أيام الأسبوع في رعايته والقيام

بشؤونه في المشفى ، وهنا صديق آخر أباه مصاب بسكر في الدم والغرغرينا تلتهم أطرافه وفي كل وقت يبترون جزءاً من جسده ... والآخر لديه عملية جراحية بعد عدة أسابيع ليتبرع بإحدى كليتيه لأخته التي أصيبت بفشل كلوي... والآخر يداوم بشكل يومي لعلاج ابنه في مصحة عقلية ...إلخ و كنت أقول لنفسي، ياسبحان الله كم شخصاً غيري يعاني في هذه الحياة من كبدها وهمها وغمها وقلقها الذي لا ينتهي ، وكم شخص يحمل من الهموم والآلام ما لا يخطر في أذهاننا و من المآسي والأحزان ما يندى له الجبين .

ومن ينظر للبشر بنظرة الشفقة ولا أقصد التعالي بل فهم للمحدودية البشرية يجعلك هذا تتجاوز الأخطاء وتخفف التوقعات ويجعلك تتقبلهم كما هم ويشعرك بسلام داخلي عميق يقول أحدهم :" كن لطيفاً لأن كل شخص تقابله يقاتل بشراسة في معركة الحياة "178 وعلى النقيض عندما ننظر للبشر كأنداد وأعداء في ميدان المنافسة في الحياة كما يقول هوبز " الإنسان ذئب لأخيه الإنسان "[179] فإن ذلك يخلق فيك القلق والأرق والجلل والوجل .

178 تنسب : للاهوتي جون واتسون ١٨٩٧م ويقال بأنه قالها في عيد ميلاده .

179 فلسفة العنف. إلزا دورلين .. ص ٤٠٦ دار الساقي

وهنا يتضح لنا دائماً أن البشر بعضهم لبعض فتنة وأن مواطن اجتماعهم يغلب عليه الفساد والفتن والشهوات أو التمايزات العرقية والطبيقة ولابد أن نصبر ونتجنب محاكمة الآخرين بشكل دائم يقوالله تعالى: {وجلعنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون}[180] وقد قرأ هذه الآية أحد الفقهاء بعد خروجه من المسجد ورأى (فقيها آخر يعرفه وقد غرته الدنيا وأنشغل بها وفتن بملذاتها) فقال لنفسه بعد أن رأى هذا الفقيه المغتر بحاله والناس تحيط به وتعجب بعلمه و ماله وذلك الوهج يحيط به فقال بعد ذكر الآية ... " بل نصبر يارب " وهذا مايجب أن تقوله إذا أخذت الفتن بأحدهم وصار معجباً بفعله أشد العجب والغرور (بل نصبر يارب) وليس المهم في هذا قراءة الشر في كل شي بل مايجب علينا فعله هو أن نقرأ الخير في كل شيء... وأن نحمل الآخرين على محمل الشفقه ، وهذا هو الأسلم والأفضل.

يقول الحارث المحاسبي " واعلم وأيقن أن الدنيا كلها : كثيرها وقليلها ، حلوها وممرها أولها وآخرها وكل شي من أمرها ، بلوى من الله تعالى للعب واختبار وبلواها وإن كثرت وتشعبت واختلفت ، هو مجموع كله في خلتين : في الشكر والصبر . فإما أن يشكر على نعمة ، أو يصبر على

180 الآية ٢٠ سورة الفرقان

مصيبة "181 و المحاسبي يعلم ماذا يفعل الناس من تأثير كبير على سلوك الفرد ومالهم من قوة في أفكاره وطبائعه فيقول " إن أكثر مابلي به العبد من أهل الدنيا : الناس ... وأفتن الناس لك وأكثرهم لشغلك : إنما هو بمعارفك منهم ... و اشغل معارفك لك وأكثرهم عليك فتنة : من أنت بين ظهرانيهم . ينظرون إليك وتنظر إليهم ويكلمنك وتكلمهم ...فأرجع في صبرك إلى الله واستعن به وانقطع إليه واستأنس بذكره وأقلل من الخلطاء ما استطعت واترك القليل أيضاً تسلم "182 والقرآن يبين هذا الإبتلاء في عدة آيات يقول الله فيه :

قال تعالى: {... ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض }183

وقال تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } 184

181 آداب النفوس . الحارث المحاسبي ص ٥٤

182 نفس المصدر السابق آية ٥٥

183 سورة محمد . آية ٤

184 الأنعام آية ١٦٥

وقال{ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا}185

وقال (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)186

يوقل تعالى : { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}187

والإنسان بشكل عام مبتلى بضرورة العلاقات في كل جانب من جوانب الحياة ولا تقوم حاجة الإنسان إلا بوجود الآخر ، كما أن البعض لاتقوم حاجاته إلا بك أيضاً ..وليس من الضرورة أن نقوم بمحاولة تعديل سلوك الآخرين أو تغيير قناعاتهم إذا كان ينتج عن هذا فساد أعظم ، فقد تمسكوا بهذه الأفكار من سنين وتغييرها بالإجبار محاولة فاشلة.. حتى وإن كانوا على خطأ ستنتهي غالباً بالفشل فلا يمكن لإنسان أن يتغير على وجه الأرض إلا من الداخل أي قناعة داخلية ، و السبب في ذلك أن الأفكار التي تقنعنا هي الأفكار التي تعجبنا في الحقيقة وليس العكس ، و لأن الإنسان لديه تحيزات معرفية ملازمة له ولاتفارقه فإن قرر أن يتواضع ويخفف من غلواء نفسه ويحاول أن يفهم

185 سورة الفرقان آية ٢٠

186 سورة محمد آية ٣١

187 سورة الكهف آية ٧

فسيتغير تجاه الكثير من القضايا أما من قرر أن يسلم نفسه للتحيزات المعرفية والاحادية الفكرية ويطمئن لذلك فلا سبيل لتغييره وكل مايحدث معه هي زيادة في الكلام دون حاجة ، وأظن الاستقامة للفرد وإصلاح حاله تؤثر في الآخرين فيحاكيها البعض دون أن تنطق لهم بحرف واحد ، وهذا مايجعل الإنسان يفهم لماذا يتحدث الحكماء والبلغاء والفقهاء والنبهاء عن فضيلة الصمت ، نعم الصمت فيه الحكمة بل يمكن القول أن أجمل أنواع البلاغة هي بلاغة الصمت.

والعاقل لاينشغل بالناس ولا يهتم بهم كثيراً لأن" مدحهم إياه إن كان بحق وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه العجب ، فأفسد بذلك فضائله ، و إن كان بباطل فبلغه فسره فقد صار مسروراً بالكذب ، وهذا نقص شديد "188 وهنا يدفعنا ابن حزم بعدم المبالاة بكلام الناس واستعمال المبالاة بكلام الخالق لأن من الناس أصناف كثيرة وغريبة ومحيرة جداً فمنهم " من لادين له فلا يعمل للآخرة ، وفي الناس من أهل الشر من لايريد الخير ولا الأمن ولا الحق ، ومن الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته ... وفي الناس من لايريد المال ويؤثر عدمه على وجوده ككثير من الأنبياء ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة ...ومن الناس من يؤثر

188 آداب النفوس . ابن حزم ٨١

الجهل على العلم كأكثر من ترى من العامة ..."189 وإذا كان هذا حالهم لماذا ننشغل بهم ، وكان لابن حزم أصدقاء فارقوه عن الدنيا وكان يأمل أن يراهم في المنام ولكنه لم يتاح له ذلك يصف هذا الموقف بقول : " طال تعجبي في الموت وذلك أني صحبت أقواماً صحبة الروح للجسد من صدق المودة فلما ماتوا رأيت بعضهم في النوم ولم أر بعضهم وقد كنت عاهدت بعضهم في الحياة على التزاور في المنام بعد الموت فلم أراه في النوم بعد أن تقدمني إلى الآخرة فلا أدري أنسي أم شغل "190 هذا الوجدان عند ابن حزم يبين كم تحن الروح وتشتاق لمن فارقت في هذه الحياة ، وهذا حال الحياة فهي التغيير الدائم من حال إلى حال ومن شيء إلى شي والانشغال بمصير الآخرين خطأ أما من نحن مسؤولون عنه فيكفي أن تقدم له ما أنت مسؤول عنهم فيه أمام الله وغير ذلك كما تقول العرب (اترك الحبل على الغارب واتركهم أحراراً إن كان لهم الوعي الكامل في تصرفاتهم) ومهما تكن علاقتك بهم إلا أنهم (ودائع الله) لأننا عندما نضن بأننا نتملك الآخرين يتسرب لنا شعور بخلودهم في حياتنا ومفهوم التملك مفهوم خطير بيرتبط بفكرة فاسدة هي الخلود أي أن تكون الأشياء

189 نفس المصدر ٧٧

190 نفس المصدر ١٠٢

التي أتت بسببك جزء من ممتلكاتك كالولد والحفيد ، إن مفهوم الملكية للأرواح هو خطأ فادح في فهم الحياة . لأنك إن ظننت أن الأرواح التي تحيط بك من عائلتك مثلاً يشابهون لتلك الممتلكات ـ الساعة أو القلم أو السيارة ـ أي جزء من ملكيتك فأنت مخطئ تماماً، وأولى درجات الوعي في هذا الجانب أن تدرك فكرة مفادها أن هذه الأرواح ودائع الله قد تخطف منك في أي لحظة وليس لك حق في تملكها ولو رمزيا ، والتمرين على فقدانها في أي لحظة يحصنك من الانهيار النفسي والهزيمة والإحباط وهنا تدرك أن الحياة ألم من أولها لآخرها وبكاء دائم من أولها لآخرها وهي مفطورة على " الكبد " هذا مايقوله الله خالقها ومدبرها ومنشؤها ، و الهروب من الألم محال فلماذا الخوف من الألم إن كان مصيرياً إننا بهذا نهرب منه كما يهرب الرجل من ظله الذي لافكاك له عنه بل إن توطين نفسه على الألم يساعدة في ترويض نفسه وروحه ولابد أن نعي أن زيف الملهيات المحيطة بنا لا تعطينا حقيقة الحياة ولابد وأن نتجاوز مرحلة ـ الطفولة ـ وهي تلك المرحلة التي يكون فيها الطفل معلق بالآخرين ومشغول بهم فالطفل يضمن أن السلوك السيء يلفت الإنتباه والمبالغة في ردود الفعل يجبرك على مساعدته ولا يتحسن سلوكه إلا من خلال الاهتمام به ويكون مبدعاً في تصنع ذلك ... وفي الرغبة الجامحة للبروز والتصدر ويكون الطفل عاطفي

جداً وضعيف جداً وقد يفعل مايؤذي نفسه فقط ليحصل على حب الآخرين ، وعندما ينضج الإنسان يجعل كل مايقال عنه ومايفكر فيه الناس خلف ظهرة ولا يهتم ولا ينشغل ولا يلتفت لهم ، بل يفعل مايعتقد بأنه مهم وضروري وواجب ولازم عليه وهذا يكفي. وينشغل في رسالته التي سوف يقدمها في هذه الحياة ويسعى لتحقيقها ، وهي الشيء الجيد و الدافع له في هذه الحياة و أن يجعل حقيقة الموت نصب عينية لأن هذا يحثه على الإنجاز والعمل و إدراك ضيق الوقت، ولأن الإنسان الكائن الوحيد الذي يعي حقيقة وحتمية الموت ويريد أن يبقي بعده أثراً يتجاوز عمره بكثير .

الرحيل الأخير

الاقتراب والتأمل في الموت يزيل سفاهة الطباع وخفه العقل ويرفع الإنسان عن المماحكات التي بلا معنى ، ويبعد عن الإنسان خلق الهزل والاستهتار والاستخفاف و المشاحنة مع الآخرين، ويجعله أكثر هدوءاً وسمواً ولا يبالي تجاة قضايا كثيرة ليس لها أهمية، وليس لها به علاقة ، هذا يحدث معي شخصياً فعندما أبقى وحيداً فإنني أتخيل الموت وأحاول أن أحصل على أكبر قدر ممكن من نصوص التراث عن تلك اللحظة الهامة، لحظة الإحتضار وذلك الشعورالذي يشعر به كل المحتضرين، ومع هذا التقدم العلمي في كل مجالات الحياة، فإن العلم والتجارب الإنسانية والفذلكة الفكرية الفلسفية لاتقدم شيئاً يذكر ولا علماً يشفي الغليل في شأن الموت...ولا يجيب عن سؤال ماذا بعد الموت في ميدان العلوم الطبيعية كما تفعل الأديان الإبراهيمية والإسلام خاصة .. والعلوم تصاب أمام الموت بحالة من الخرص لا أكثر، ولا تقدم ما يسد حاجتنا في فهم هذا الأمر المربك،

و يخيل لي أحياناً أنه سيأتيني الموت على مقعد (والله أعلم) لأن أكثر ما يمضي بي الوقت أكون جالساً للقراءة والكتابة لمشروع معين أو البحث عن مسألة محددة وأياَ

كانت لحظة النهاية وبعيداً عن (الزمان والمكان) هذا لايهم كثيراً إن كان حضوره رحمه من الله و بقدر ماتهم تلك الأحداث التي تتبع هذا الحدث ، وماذا سيحصل لحظتها بالضبط .

و يخيل لي أن ماسوف يراه الميت في تلك اللحظة هو أن أحد الملائكة المخولين لقبض الروح يأخذ اشارة الأمر من الذات الإلهيه، ويبدأ في عمله فوراً، وتحل لحظة الحقيقة191 ... في هذه اللحظة أرى إن كنت من أهل الخير (ونسأل الله ذلك) ...تتنزل ملائكة الرحمة بيض الوجوه أمام مد البصر ويكون ملك الموت في هيئة طيبة ويعاونه ملائكة الرحمة ولهم أكفان وحنوط من الجنة وتخاطبني الملائكة بقول: (أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ... وتبشرني بأن لا أخاف مما هو قادم ولا احزن على ما فات، ويزيد شوقي و اشتاقي إلى الله تعالى ، وهنا تخرج روحي (أنشودة الخلود) لعالمها الخالد والدائم بإذن الله.

ويخيل إلي إن كنت من المقصرين (معاذ الله) ينظر الموت إلي نظرة لم أراها مثلها ولم أعرفها من قبل، في تلك اللحظة تحديداً تنفجر في داخلي كل مشاعر الرعب

191 و قد يضن البعض أن الكهول لا يخافون الموت لأنهم كما يقال : ليس (أصعب من الموت أكثر من أنتظار الموت ...) لكنني أضن أن الموت يخاف منه الكهول أكثر من الشباب لأنهم اعتادوا الحياة... والعادة سجن .

والقلق و أشعر بالخوف والإرتباك شعوراً لم يحدث مثله ولم أعرفه في حياتي ، وفي هذه اللحظة الصعبة أطلب النجدة وأتمنى أن يكون هناك مسعفاً أو منقذاً لي وأريد من الجميع أن يشعرون بما أشعر به الآن وفوراً، ويدركون ما أنا فيه ، وما أعاني من أمر جلل، و ما يحدث معي الآن ... (أي في تلك اللحظة) أنا أمام مصيري ، أنا فقط ، لحظتها سأشاهد الحقيقة وينكشف عني الحجب وأرى كل شيء بوضوح أفضل من أي يوم سابق وهذا مايقوله القرآن في قوله تعالى :

{ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ }[192]

يخطر في ذهني أفكار مثل ، كنت منذ زمن أحيد الموت[193] وأحاول نسيانه وهاهي لحظة الحقيقة أتت ، وأتت فجأة بشكل مباغت وبدون مقدمات .! لم أنجز كل شيء، وليس في وسعي تأخيره لثواني حتى .! وها هو الرجاء والارتباك وطلب الرحمة والمغفرة والعفو و التوبة تجتمع في لحظة محددة ، في هذه اللحظة التي أرى فيها روحي تخرج بصعوبة وسرعة من كل أجزاء جسدي بدءاً من أطرافي

192 صورة ق . آية ٢٢

193 يقول الله في محاولة الإنسان تحييد الموت عنه ،، (...وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ) [سورة ق, الآية 19)

صعوداً لعنقي وأنا لحظتها أشعر بالإختناق وكأن صخرة تضغط على صدري والحشرجة المؤلمة تلفض النسمات الآخيرة ، يخيل لي أن صدري لحظتها ينقبض بشكل غريب وتخرج منه آخر زفرات الحياة ، وشعور الخذلان يتملكني من كل من هم حولي كيف لايشعرون بي ! ولا يعرفون ما اعانيه وما أنا فيه ..! وأشعر تجاههم بالخيانة والخذلان العظيمين ، وحده الله تعالى يعرف ما أعاني في هذه اللحظة الصعبة... في هذه اللحظة أدرك بأنه كان يجب علي سباقاً أن أكون بجوار الله بشكل دائماً وأبداً وليس بجوارهم، ومعه وليس معهم وفي كنفه وليس في كنفهم ... أشعر حينها أنني ولدت وحيداً وكان يفترض علي أن أعيش وحيداً وها أناذا أفارق الحياة وحيداً كما جئت وحيداً ... أدرك لحظتها أنني مفارق هذه الحياة لامحالة وينتهي عندها الشك باليقين ولا أمل من النجاة هنا وفي هذه اللحظة تتجلى لي الحقيقة المطلقة ويكشفها الله لي و أشاهد حياتي من أوليها لأخرها في لحظة محددة كل شيء يظهر جليا أمامي منذ طفولتي حتى عمري الحالي .! هناك أحداث كثيرة نسيتها وهاهي تتجلى أمامي، لاشيء يختفي ولا شيء يذهب كل شيء مدون في ذاكرة اللوح المحفوظ ... وكأنني كنت في حلم في هذه الحياة والآن أفقت من الحلم وبدأت الحياة الحقيقية .. هنا أشاهد ملائكة الرحمة بيض الوجوه

وكأن وجوههم الشمس[194] وملائكة العذاب سود الوجوه ، كلاهما أمامي ممددي الأجنحة في أفق سرمدي عظيم لم أرى مثلة في حياتي من قبل، وأدرك لحظتها أن هذا الكشف الجديد للحقيقة هو العالم الحق الذي كان يحدثنا عنه الرسول محمد ﷺ و الأنبياء من قبل ، و هؤلاء ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وأن كل ماكان يأتي من آيات القرآن تصف هذا المشهد كانت تقول لنا الحقيقة وتنبنها ليل نهار ونحن غافلون عنها إن هذا مايحدثنا عنه القرآن ذاته في قوله تعالى:

{ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}

ويقول تعالى : { لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ }

الآن كُشِفَ الغطاء الذي كان يحجب عني الرؤية ، .. رؤية الحقيقة كاملة .. الحقيقة التي كان يقول الأنبياء .. ويطلبها الفلاسفة ويجعجعون بالبحث عنها ..(البحث عن الحقيقة) بعضهم كان صادقاً وبعضهم كان يمارس إدعاءً.

194 هناك حديث صحيح يصف حال الملائكة وقت قبض الروح رواه البراء بن عازب ()وهو صحيح اخرجه الامام احمد ٢٧٧/٤ و ٢٨٨ و ٢٩٧ رغم ان ابن حزم اعله .

الآن يتضح أمامي كل الحقيقة .. يقول على رضي الله عنه "الناس نيام فإذا ماتوا استيقضوا "195... نعم نحن في هذا اللحظات نستيقظ من نوم عميق ونفيق على صحوة الحقيقة ... هذه الأفكار لاتفارق مخيلتي لأنني أحاول أن أشعر بما يشعر به من يفارق الحياة فعندما أدفع احد أقرب الأشخاص إلى قلبي ، كأخوتي مثلاً الذين فقدتهم منذ فترة قريبة... أدفعهم لقعر القبر .. وأوسد رووٴسهم بالطين، وأحجبهم عن ضوء الشمس باللحد و أحثي عليهم التراب، فإنني أضع نفسي في مكانهم وأتخيل أنني أعيش ما هم فيه الآن . وأنني في موقفهم ، ومن هنا أشعر بأولائك الذين يضعوني في القبر ويحثون التراب على وجهي ويغلقون نوافذ الضوء باللحد ، وأدخل في ظلمة القبر فأسمع كل ما يحيط بي، أسمع دعاءهم وهم يرفعون أيديهم للسماء راجين الله لي المغفرة و الرحمة والعفو. وأقول لحظتها وأنا لست متحققاً في جسدي بل أملك وعي مفارق لجسدي يحيط بكل تلك الأشياءوالأحداث حولي ، وعي لايمكنني وصفه الآن ، إلا أنه وعي لم أعرف مثله أبداً ... كم هم أوفياء فدعاهم يمطرني بالرجاء والرحمة والمغفرة فلم أعد أستطيع الدعاء لنفسي لحظتها وقد توقف عملي للأبد ، هذا كان متاح لي وأنا على قيد الحياة وليس الآن، إن في هذا الحال الصعب

195

والموقف الجلل والأرواح حولي متوهجة بالحزن والدموع التي تنهمر بلا توقف والقلوب ترتهش وتضطرب من هول الموت.! ورغم قلة اعمالي ورجائي الكبير في الله تعالى، إلا انني اصاب بالخوف والذعر من أغلاق أبواب السماء أمام أعمالي .! وأن لا ترتفع لحظتها إلى الله ، هذا أًصعب موقف قد يحدث لمن فارق الحياة ، لأن الاعمال الصالحة للعبد الصالح لا ترفع إلا عندما تكون طاهراً من حقوق العباد وخالية من الدَّين... فإذا كان هذا يصدق على الصالحون فماذا عساه أن يحدث لي وأنا دون ذلك بكثير ، أليست أطول آية في القرآن هي الدين ...!

ما أحمق الذين يسرقون عباد الله ويستهترون بحقوقهم ويدعون الإيمان بالله .! كيف يقابلون الله .! وكيف يستهينون بهذه اللحظة الحرجة المهلكة ... التي بسبب أستخفافك بحقوق العباد قد تحجب عنك الجنة وتفتح لك أبواب النار، ويجعل الله بينك وبين أعمالك الصالحة متاريس وسدود تمنع تلك الأعمال من الصعود... إن الدين أمر عظيم جداً ، وليس بالأمر الهين السهل الممتع الذي تروجه البنوك وشركات التقسيط وتغريك به ليلاً ونهاراً ،و عندما لاتكون مديوناً ! يبحثون عنك في كل مكان. بل وينكرون عليك الناس رفضك لعروض البنوك والشركات .! يحدث عندما نجد أحدهم يرفض عروض البنوك التي

تغريه بالقروض (هل رفضت القرض.! معقول !.. هل أنت عاقل ترفض قرض ...) حتى يشعروك لحظتها بخزي في التأخر عن التدين .!.

هذا هو الحال مع البنوك التي قد يكون خيارات البنوك أسهل عند حال الوفاة فإن القرض يسقط عنك ويذهب كل دينك لمجرد الوفاة ، لكننا لايجب أن ننسى أن حقوق العباد ليست كذلك . وليست مما يستهان به .! يخيل لي وان في عالم البرزخ أن صاحب مغسلة قبل خمسة عشر عاماً قلت له سأكمل لك ماتبقى من حسابك وكان مبلغاً زهيداً (ريالان) ... ولكنني نسيت ولم افعل ذلك .! وللأسف النسيان لم يشفع لي .. وكم أرجو لحظتها أن من يعرف هذا الرجل الذي يطلبني هذا المبلغ الزهيد يقوم بسداده عني من أبنائي أو أخوتي أو أقاربي . لكن للأسف أنا لا أستطيع أبلاغهم وهم لايستطيعون سماعي ! إن ما أملكه لحظتها من أعمال قليله جداً لاأريد ان ينقص منها شيئ ، فأنا هنا في أمس الحاجة لها .! وليس هذا كل شيء، هناك الخباز قبل ثلاثة أعوام أخذت منه كيس خبز ولم أسدده .! نسيت أيضاً وهذا أحد عمال الحي وعدته أن أعطيه مبلغاً يسيراً بعد تنظيف مدخل المنزل لكنني لم أفعل .! نسيت ولم ينسى وصاحب الحق لا ينسى ، يالطيف ! لاشيء يتلاشى من ذاكرة القدر.! إن حقوق العباد عند الله لا تضيع، وأعمالي

لن ترفع إلى الله وأنا لم أسدد ديون العباد، وليس هناك مخرج من ذلك ...هذا مايخيل لي لحظتها ...اسأل الله العفو وأن يعينني على قضاء حقوق العباد قبل الموت .

هذه الأفكار تجول في ذهني في كل لحظة ككابوس يعيش داخل خيالي .! حتى أتوجس من نسيان فلساً واحداً قد أنساه لأحدهم ، وأسأل نفسي دائماً عندما أتورط في أمر لماذا أدخل في كل هذه الدين .! هل هو استهزاءً بحقوق العباد .! و كل هذا الإستثمارات التي أسعى لتحقيقها هل لتزيد ثروتي وليقال عني في نهاية هذا الطريق بأنني رجل ثري .! غني .! تاجر ! وأكون ذا حظوة عند الناس وصاحب جاه ومال ومنصب .! هل لألبي رغبات جسدي وشهواته الزائله واصرف عليه من حقوق العباد التي لا املكها أصلاً، لماذا لا أرضى باليسير وأعف نفسي عن حياة الزيف والنفاق الاجتماعي وأعيش بصدق حياة عزة وكفاف وصيانة نفسي عن حقوق العباد. على الأقل هذا التعفف يرفع منزلتي في الدارين الدنيا والآخره،! أليس الله يقول عن المتعففين عن طلب الناس والحاجة لهم .

{ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف }196 فيظن هذا الجاهل المشغول بحياة الآخرين ، أنهم اغنياء من التعفف

196 البقرة آية ١٧٣

والتعفف غناءً للروح وعزة للنفس ، أليس يقول الشاعر الحكيم

اطعت مطامعي فستعبدتني

ولو أني قنعت لكنت حراً...

نعم عندما تكون عبداً للاشياء (الاستهلاكية ...) وعبداً لشهوات نفسك (وهج شهرة حظوه مكانه) وتسعى ليثنى عليك بما ليس فيك فإن هذا المرض النفسي يقودك إلى عبادة الشهوة وليس إلى عبادة الله فأنت هنا فقير للإستهلاك لأن قيمتك ليست فيك بل في ما تظن بأنك سوف تمتلك .! ، فعندما تمتلك تتحقق قيمتك (كما تظن)وعندما لا تمتلك لاتتحقق قيمتك وهذا مؤسف .! فقد تكون فقير روحياً وثري مادياً وهذا اسوء أنواع الفقر .! إن الثروة الحقيقية هي الثروة الروحية ولا سعادة قد تتحقق إلا بها .

ولا أظن أنه هناك روحاً ترتجي الحرية النفسية وهي مكبلة بحقوق الناس .! كان من ثقافات الأمم السابقة إن الشخص الذي يدمن الدين ويعجز عن سداده فإنه يتم استعباده من قبل الآخرين حتى يسدد دينه بجسده ويدفع ثمناً باهضاً وهي حريته ، فيتحول أو يحول من حر إلى عبد لان العبد لايتحمل مسؤلية نفسه وأما الحر فهو لايقبل على نفسه الإهانة والفاقة والذل ، وهذا لا يعني أن الإنسان قادر على

البقاء طيلة حياته بلا دين فهذا الرسول وهو أشرف الخلق مات ودرعه مرهون عند يهودي ولكن المهم أن يكون المؤمن في غاية الحذر من حقوق عباد الله ومراعاتها في الدنيا ليسلم عذاب الآخره ، و الحل الذي أرتضيه لنفسي هو أن لا أقدم على الدين مالم أعرف مسبقاً كيف أقوم بسداده . ولا أدخل في دين بسبب رغبة أو شهوة لاستهلك منتج معين أو شيء ليس من ضرورات الحياة، و عندما أطلب أحدهم مبلغ معين، فلابد ان يكون عندي مايوازي هذا المبلغ أو يزيد كأرض أو أسهم أو عقار او ممتلكات أخرى ولابد ان أكتب بالخط العريض في دفتر ديوني (هذا له مبلغ كذا ... أخذته بتاريخ كذا .... وسداده سيكون بتاريخ كذا ... أو ببيع الأرض التي في المكان الفلاني في أقرب وقت والقيام بسداده في حال أنني فارغت الحياة ...) . إن هذا يجعلني أعيش بطمأنينة وليس بقلق فإذا قدر الله علي أن أغيب عن هذا الوجود في لحظة مفآجئة، و لم أحسب حسابه فإن هذا السلوك في التهيئة للموت ، يساعدني ولا يجعلني في موقف القلق والتوتر ، وأستطيع من خلاله تطهير روحي من حقوق العباد التي على كاهلي ، لان الموت يشبه الهدية التي تأتي صدفة بدون مقدمات وبلا سابق انذار ، صحيح أن الهدية تأتي محمله بالأشياء الجميلة، لكنها في جانب المصادفه تتطابق مع الموت على

أيه حال وهم يشتركون في المباغته التي لا يتوقعها أحد
إن هذه الأفكار لاتغادرني ولاتتركني ولاتريد أن تتركني...

غرفة الإفاقة

منذ أعوام مررت بتجربة (المرض) وقد غيرت فيني أشياء كثيرة جداً ، وأعطتني رؤية مختلفة للحياة ، ففي أحد المستشفيات عندما دخلت لإجراء عملية وكان يلزم من ذلك تخديري بشكل كامل، وبعد الإمضاء على ورقة التخدير ،وبعدها بلحظات سمعت خطوات أحد أطباء التخدير المبتسمين وهو يطلب مني نطق الشهادتين ثم يضع كمام الأكسجين بشكل سريع على أنفي وفمي وفي ثواني غرقت في نوم عميق... إنه نوم التخدير الكامل ...

وبعد انجاز العملية كان لابد من نقلي لغرفة الإفاقة كما يحدث مع كل المرضى الذين يعانون بعد سكرة البنج ، تلك الغرفة التي يفترض بك أن تفيق منها شيئاً فشيئاً و أن تبقى فيها حتى يتلاشى هذا المخدر منك ،، وفي هذه اللحظة عرفت ماهو الوعي على حقيقته أكثر من ما عرفته من خلال تعاريف موسوعة بلا كويل عن الوعي ... كان ذلك من خلال تجربة حية وليس من خلال الموسوعات أو المعاجم كما هو حال معجم أكسفورد وغيره المليء بالتعاريف ..

أفقت شيئاً فشيئاً و شعرت بحقيقة الوعي الذي يتحدث عنه الحكماء والفلاسفة و الفقهاء وكأني لأول مرة أفهمه ،، شعرت كما لم أشعر به من قبل وكأنني لأول مرة أدرك

حقيقة كيف يكون الإنسان واعياً بنفسه وبالعالم المحيط به وأن يكون هذا الوعي شيء والجسد شيء آخر تماماً ..!

نعم كنت أعي أين أنا وأعي كل من يحيط بي كنت أدرك السرير الأبيض الذي أنا عليه ولماذا يفعلون بي هذا ، وأسمع همس حديثهم وقهقهة ضحكاتهم ، وأسمع أصوات أسرة المرضى وهي تتحرك، وصفير كفرات السرير وأسمع كلمات لممراضات بعيداً عني بعضها أفهمها وبعضها لا أفهمها ، وأشعر بالممرضات حولي وهم يمدون شراشف السرير على جسدي و منشغلين بحالتي، و يتحدثون حولي و صرير أقلامهم تكتب مايجب عليهم كتابته على تلك الأوراق و على ذلك اللوح البلاستيكي ، وفي لحظات شعرت بأنهم توقفوا عن دفع السرير للأمام وأدركت بأنني كنت أتحرك و شعرت بأنني في غرفة الإفاقة والآن في مكان ثابت ساكن مستقر...

وبعد دقائق تحركت رموش عيناي وبدأت شيئاً فشيئاً ترتفع للأعلى تشرق لها أضواء المشفى و ديمومة الحياة تنبعث حولي **ولكنني مع كل ذلك لا استطيع تحريك أي شي من جسدي ... إنه معطل تماماً .**

رئيتهم وسمعتهم يتحدثونني عني ، يتركونني لفترات متفرقة ثم يعودون ليسألونني حتى يتأكدون من أنني أعي مايقولوه لي ، وأفهم كلماتهم ومعاني مايرديون قوله ،

يسألون ليعلمون هل تأثير المخدر (البنج) فارقني أم لا ... **وكنت لا أستطيع الإجابة عن تلك الأسأله، لكني كنت أفهم جيداً مايقولوه ، ووعيي حاضراً بقوه..**

إلا أنني مقيد بهذا الجسد الثقيل جداً والبطيئ جداً ، **إن وعيي أسرع بكثير من استجابات جسدي** ، كان لساني ثقيلاً وعندما أحاول الكلام وهذا يشبه رفع صخرة ثقيلة من مكانها ومحاولة تحريكها من موقعها ، عندما يريد مني أحدهم أن أجيب عن سؤال محدد ، كان رأسي مجهزاً للأمام فقط ولا أستطيع تحريكة، و يدي في تلك اللحظة تشعرني بأنها ليست جزء من جسدي بل وبعيدة جداً عني وأعطاء الأوامر لها بالحركة شيء يشبه المستحيل في تلك اللحظة ، أريد أن أعبر عن نفسي لحظتها وأقول لهم بماذا أشعر وبأنني أفهم ما يقولوه وأتفاعل معهم ، لكنني لا أستطيع وكنت أفهم تلك الأسئلة التي تقال لي حق الفهم .

هذا الوعي لم أشعر به في حياتي من قبل وهو أنني عندما خرجت من التخدير الكامل أدركت كم أن هذا الجسد شيء والوعي شيء آخر تماماً ، وأضن أن هذا ما سوف أشعر به ويشعر به كل من تفارق روحة جسدة ، أي أن هناك وعي يجعله يدرك كل مايحيط به ، إن هذا الخيال الذي أعيشه أحياناً يجب أن لايفارق الإنسان الذي لم تسعفه الحياة للتجربة .

إن شعوره بهذا الوعي المفارق للجسد والحتمي لابد أن يكون دافعاً جاداً ليجعله أكثر تقديراً لكل شيء ، الوقت المال العلاقات الحب الدين المسؤولية ... و مايجب أن ينجز ومالا يجب أن ينشغل به ، و يتلذذ بتأمل جمال الحياة التي وهبة الله له ويتأمل هذا الوجود العجيب والغريب والمدعش بكل تفاصيله وهذا يجعله يرى كل شيء وكأنه يرى لأخر مره في حياته وحتى علاقاته سيتجاوز الكثير من السفاهات والحماقات التي يصدرها البعض تجاهه، في كثير من الأحيان عندما أكون في مكان معين أطرح على نفسي هذا السؤال .

من سيكون هنا بعد مئة عام من الآن ..؟

لا أظن أحد ممن أعرف على الأرجح سيبقى لهذا الوقت ، لا أنا ولا أولائك الذين يشغلون عقلي ..! وهذا يجعلني أفكر بعمق في الحياة التي تشبه السير الجماعي لهوة الموت تلك الهوة الكبيرة التي تلتهم الجميع ، فرغم وعينا بالسير لإتجاه هذه الهوة إلا أنه لايهتم بها الكثير . والغريب بعد أيام من حادثة موت لا يكترث كثيراً من الأحياء بالأموات، مهما كان الحزن في داخليهم تجاه ذلك المتوفي إلا أنه لابد أن تنساهم الحياة وينساهم أهلوهم. إلا العمل الصالح الذي أتركه بعدي أو دعاء محب لي أو علم تركته خلفي ، و عندما أفارق الحياة تكون الحياة ذاتها مستمرة للأمام دون

أن تلقي لي بالاً بعد أن فارقتها. لن يتوقف شيء عن أداء عمله ، ستسير كل الأمور على مايرام ، وسيرجع البشر لعلاقاتهم المعتادة وفي نهاية المطاف علاقتك بعامة الناس سوف ينهيها الموت.. ليس أنا فقط هذا يحدث مع كل البشر الذين فارقوا الحياة مثلي ... إن هذا التأمل في الموت وتخيل ماذا يسحدث بعد موتي وأفتراض حدوث ذلك يجعلني أرغب في دخول دائرة الحكمة والبقاء فيها وتجنب أشياء كثير لا قيمة لها في الحياة و تتملكني رغبة كبيرة في قضاء وقتي مع الموتى في مكتبتي أكثر بكثير من قضاء وقتي مع الأحياء وعندما أكتب عنهم و أنتقدهم فهم لا يردون ويجعلونني أكتب ما أريد، عالم الأموت هذا يجعلني أدرك أن الحياة التي أعيشها الآن في غاية الأهمية صحيح أنها قصيرة رغم ظني بأنها طويلة .. وهي سهلة مهما كنت أضن بأنها في غاية الصعوبة ... وجميلة بالإيمان والتفاؤل مهما كنت أضن بأنها قبيحة .. وكل يوم تعيشه فهو هدية من الله تبارك وتعالى لك ، وكل هذا يدعوني لممارسة الحياة بجدية والعمل لما بعد الموت بأكثر جدية ، وأن تكون الإبتسامة المشرقة هي أجمل هدية تقدمها لمن تعرف ولمن لاتعرف في هذه الحياة ..

هناك من يعانون منها ولايفهمونها حق الفهم ، يأخذونها بجدية وينسون أن الحياة المطلقة شيء أختص به الله لنفسه

فقط وليس لغيرة من الخلق ،، وهذا يجعلني أشفق عليهم أحياناً لأنهم يعيشون الحياة بصراع وليس بكفاح وبقلقل وليس بطمأنينة وبخوف وليس بشجاعة وبجهل وليس بمعرفة ، وينتج عن ذلك سوء فهم لحقيقة الحياة ...

وهذا يجعل أفعال الشر بعد التأمل فيها في غاية التفاهة والسذاجة (لأن الشر تافه عند الحكماء وجميل عند الأغبياء) والشر غالباً يرتبط بالجهل والحمق في أحيان أخرى ،، و الجهل وثنية كما يقول الحكماء وهذا لايعني أن نتعاون معهم بل أن ندرك أن الجهل والأنانية والغباء سبب جوهري في مايفعل الحمقى والمجرمين فلم يكن سقراط عاجزاً أو زرادشت او ابن حزم او ابن رشد او غيرهم أن يكون أحد منهم شريراً وهم ذروة الذكاء الفلسفي والفكري و لم يعجزهم أن يوظفوا ذكائهم في حياتهم لخداع الناس والحيلة وفي تلبية رغباتهم وشهواتهم ، لكنهم أختاروا أن يكونوا من سدنة أفكار التاريخ يقولون الحكمة نحتاً على جبين الزمن فيعيشون في كل عصر ، ويتركون الحمق والجهل لأهل الجهل والحمق .

سايكلوجية (طرد الهم)

أظن أن قلق الموت وكره الحياة يحث الآخرين لتسلية أنفسهم عن التفكير فيه فعندما يفكر الإنسان في الماضي يصاب بالحزن وعندما يفكر بالمستقبل يصاب (بالهم) وهذا الهم يحاول البعض طردة من تفكره بشتى الوسائل والطرق وقد وضع ابن حزم[197] أصبعه على الجرح حيث يعتبر أن الناس ينشغلون بطرد الهم ، هذا الهم الذي يصيبهم في بعض الأمور بالأحباط و الحزن والهم من الموت، ويشعرون بالألم ويرددون فكرة رائجة تقول إذا كان الموت هو نهاية الطريق وهو ينهي كل شيء فما فائدة البداية في كل هذه الأمور أصلاً.![198] إن هذا القول بعد التأمل فيه هو من الإسراف البشري في الترفيه والتسوق ومحاولة نسيان الواقع، و يبين أن كل تلك الأفعال دافعها الحقيقي هو الهروب من مواجهة الحقيقة الكبرى (الموت) ويمكن في مسؤلية الحياة على الأرض ويمكن أن نستعين بأبن حزم

197 فقيه وفيلسوف وعالم أندلسي كان كثير التأليف والتصنيف وكأن من أهم علماء المسلمين

198 في الإسلام هناك فقه العمل وهو فقه يساعد المسلم العامل على عملة ويكون في موقف الصائم القائم لمجرد أن يخلص النية لله تبارك وتعالى بل ويكون في منزلة (المجاهد) يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (من خرج على نفسه يكفها فهو في سبيل الله ....)

الذي يعتبر أن (طرد الهم) تشترك فيه الكثير من الأمم والشعوب يقول : "تطلبْتُ غرضًا يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه، فلم أجده إلا واحدًا، وهو طرد الهم، ... رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتبايُن هممهم وإراداتهم، لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم، ... فَطَرْدُ الهَمِّ مَذْهَبٌ قد اتفقت الأمم كلها على ألا يعمدوا بسعيهم شيئًا سواه..."[199] لقد فهم بريجنسكي[200] ذلك بشكل براغماتي نعفي ولا أخلاقي فمارس مع الحكومة الأمريكية مايمكن تسميته (رضاعة التسلية) غايته مع الحكومة الأمريكية لليسيطر على عقول البشر، و هو مصطلح سكة زبغنيو بريجنسكي[201] ويعتبر أحد كبار منظري النظام العالمي الجديد وهو يعني رضاعة الإلهاء[202] وكل هذا التواصل الشبكي الممتع والألعاب والفنون ونجوم السينماء والتسلية (والدين الكروي الجديد) أي كرة القدم عندما تتحول لعقيدة ... وكل تلك المجالات المسلية والمليئة بالمغريات التي تُغْرِقُ الإنسان فيها فيذهب عمره دون أن يشعر بذلك و تطمس كينونة الإنسان تماماً وتقضي عليها وتجعله لايستطيع

199 الأخلاق والسير في مداواة النفوس . أبن حزم الظاهري . دار الآفاق الجديدة . بيروت ص ١٤

200 ترجمة مهمه

201 وهو مفكر استراتيجي ومستشار للأمن القومي لدى الرئيس الأميركي جيمي كارتر .

202 هكذا يصفه مصطفى حجازي

التفكير في قضايا الوجود ولا تحثه على ذلك بل تجعل عقله مشغولاً تماماً بأحداث متشابهه وتثير ضجة في عقله ومفرقعات فكرية لاقيمة لها ، وكأن هذا الإنشغال العقلي في عالم التسلية والترفيه هي أهم أشغال الذهن بشكل عام ، وهي سعادته المطلقة ولا تتحقق كينونته إلا بها ، ويكفي أن تلاحظ سلوك مشجع متعصب لهذه اللعبة وهو يحول نتائج المباريات وأحداثها لأفكار عقدية (مطلقة) حتمية المصير ... هذا الإنشغال والتشتيت (لإنسان اليوم) يجعله أكثر راحة ويساعده في نسيان الموت هكذا هي إستراتيجية رضاعة التسلية التي لم تعد سراً أًصلاً ، والإنسان يغرق في أفكار لا قيمة لها وأستهلاك مالا يحتاج بالضرورة ، لقد كانت الوثنية سابقاً أن يصنع الإنسان إلهه بيده لكن الوثنية المعاصرة أن يعبد الإنسان ما تصنع الآلة (شركات الإنتاج) وأن يكون الإستهلاك الأعمى وثنية جديدة تدعمها شركات عابرة للقارات سواءً أستهلاك المنتجات إلى الأستهلاك الجسدي، حتى بات الرفاه المادي هي الوسيلة الوحيدة لكرامة الإنسان المعاصر وهذا الأمر زاد من تمركز الإنسان حول نفسه في تحقيق الحاجات المادية لهذا الجسد ، وليس في محاولة فهمها من الداخل ،بات تحقيق الرغبات و تأليهه الملذاته هي أهم القضايا الإنسان الحداثي المعاصر ، بل بات عبداً لهذه الأشياء ، ولا يقبل المساس بها أو حتى الحديث عنها ، تخيل أن تنتقد شركة

آبل في هيمنتها على المستهلكين ، وقوة سطوتهم في جمع كل هذه البيانات وتوجيه الخطاب الميدلوجي وفي تلك المعلومات التي تجمعها عنهم وتوظفها توظيف مادي .!
إن من يقاوم نقدك اليوم هم عملاء آبل ذاتها الذين يتزاحمون عند أبواب متاجرها وينامون على الطرقات ليفوزوا بأجهزتها الجديدة .!

إن القلق والخوف (متمكن في إنسان الحداثة المعاصر) ولا يكاد يتركه وكأن هذا القلق حتمي عليه ، وهو بدوره يمارس هذا الإدمان على متابعة الأخبار المثيرة والقلقة بشكل شره وكأنه مجبور على فعل ذلك وكأحد الواجبات اليومية التي لابد أن يؤديها ، وهذا السلوك لا يجعله يشعر بالأستقرار بل و يبعد عنه الإطمئنان والسكينه والهدوء، إن هذا التوتر الدائم والخوف من المستقبل مصدره الإعلام الرأسمالي و الإخبارية التي لاتترك شيء وشأنه وتقتات على قلق الناس وخوفهم ،، وأخبار مثل قضايا قتل أو سرقة أو حروب أو جرائم إلخ هي من أهم الأخبار التي تقتات وتعيش عليها هذه القنوات لكنها للأسف تخلق في الإنسان المتابع اليأس والإحباط والهموم ، ونسي هذا المستهلك أن هناك عشرات الأحداث المأساوية لايعرف عنها شيئاً وهناك عشرات الأشياء الجميلة لا تقال له وهناك الكثير من الأخبار الغريبه لم يسمعها ولا يعرف عنها شيء

، وكل هذه الأشياء المقلقه هي طعام قنوات الأخبار ومواقع التواصل الاجتماعي حتى يعيش هذا الفرد في (متابعة دائمة و قلق دائم وغضب مستمره لهذه الأحداث) وهذا الجمود أمام الشاشة هي الغاية الأخيرة التي تجني من خلفها الشركات المتوحشة الأرباح .. بل و يتملكه العالم الافتراضي ويعيش في أحداث اليوم مستلب من الماضي والمستقبل ليس لأنه يعالج مشاكل الماضي أو يخطط للمستقبل بل ليقدر عليه أن يكون مستلباً بلا وعي منه، والغضب والتوتر يسيطر عليه لا لشيء إلا لأنه يفتقد قيمته الوجودية وكينونته في هذه الحياة.. لن نتحدث عن ارقام الإنتحار في سن الشباب اليوم... يكفي أن تبحث عنها لتصاب بالحزن ...

إن هذا الشاب (المحبط) يسترب إليه الإحباط عندما يشعر بأنه ليس سوى ـ وحدة عددية ـ مثل كتاب واحد شجرة واحدة من بين ملايين البشر حوله أو عبارة عن آله بايلوجية تتحرك برتم يومي محدد .

وهذا يعني شيء واحد أن العودة للذات العميقة غير متحقق عند (هذا الشاب المحبط) يعيش بلا بعد وجودي، ولم يشغل نفسه بالتفكير بجدية في الغاية من وجوده. إن الأشياء التي يستهلكها هي من تشكل عقله وثقافته وتجعله يذوب في أفق الإستلاك المادي بجموح وكل مالا ينتهي للمال فلا

حقيقة له عنده .! وهنا يكون فاقد الشيء لايعطيه ، فكيف يفكر في أفكار لا يعرف عنها شيئاً ...

أنه يعيش فراغ داخلي عجيب يعتقد بأنه يسيطر على هذه الأشياء وهي في الحقيقة من تسيطر عليه تماماً... إن هيمنة هذا الخطاب الإعلامي الحديث يخرج من شركات عابرة للقارات... و التي تمارس الغلبة على العالم بأسرة، إنها تخلق تفكير هذا المستهلك الشرهه التابع والعبد لهذه المنتجات للأبد .

أليست هذه هي لغة الرأسمالية العالمية التي يعيش في عالمها الإنسان المعاصر مستهلكاً منذ ولادته حتى موته و تضطرة هذه الشركات للإستهلاك المستمر لمنتجاتها لأنها تنتج ماهو محدداً سلفاً مدة استخدام هذا المنتج ووقت تلفه ونهايته ، إنني أكتب الآن كلماتي هذه بجهاز آبل وأعرف يقيناً أن الشركة المصنعة عازمة على إنتاج تحديثات تجعل من هذا الجهاز مع مرور الوقت عبئاً ثقيلاً في الاستجابة وبطيئاً في السرعة وكأنه جهاز متهالك للغاية ، و كل هذا الركض في الإستهلاك ينتج بشراً موجهي الأفكار والأذواق و الخيارات والألوان وأحياناً حتى الأفكار ، وهنا يمكن توقع سلوكهم بسوله بالغة ويمكن فهم أفعالهم ودوافعهم ورغباتهم من خلال محركات البحث و من خلال

شركات التواصل الحديثة التي لها قدرة على معرفة المستخدمين وتوجهاتهم أكثر مما يعرفوه عن أنفسهم .

وهنا يسهل توجيهم وتحديد أفكارهم ، كما يتم الاستفادة من بعض أساتذة الجامعات في التخصصات النفسية والإدراكية وبعضهم قليلوا الأمانة العلمية وينهارون أمام إغراء المال فيتم توظيفهم كذلك للسيطرة على هذا المستهلك الأعمى المسكين و المكبل بقيود العبودية الحديثة (عبودية الإستهلاك التقني) والذي يفقد شيئاً فشيئاً من خلال هذا الإدمان الاستهلاكي كينونته ولايستطيع أن يسأل نفسه أسئلة الوجود ... لماذا أنا هنا .؟ و ماهي الحياة ..؟ وماذا يجب علي أن أفعل ..؟ وماهو العالم الآخر ..؟ وهذه الأسئلة جميعها تحتاج ذات مفكرة ولو بقدر قليل ، و لفرد يعيد التأمل الباطني ويحاول فهم العالم الخارجي ، يبحث في نفسه ، ويدخل قلعة روحه ، ويزور حدائقها و يعيد الغوص في أعماق محيطاتها ويفتش في مناطق الظل هناك ، ويعالجها ، وأن يفهم الغاية من الحياة ... وأن يدرك أن البشر مثل اللوحات الفنية فيها القبيح والجميل لكنها تبقى في نهاية المطاف لوحة فنية أبدعها الخالق ، وهذه اللوحة الفنية تخفي خلفها الكثير من التفاصيل التي لاتعرفها ، قال أحد النقاد عن لصوص اللوحات الشهيرة الذين يقلدون الجيوكندا مثلاً " دائماً ينسى هذا المقلد شيء منه"

..."هؤلاء هم البشر، مهما قلّدوا بعضهم ونمّطت الشركات عقولهم، سيبقى هناك شيءٌ يميز كل فردٍ عن الآخرين رغماً عن أنوفهم..."

شقاء الوعي

هل يمكن القول بأن المعرفة شقاء .؟! أو الوعي المفرط ألم؟ وهل الوعي أحياناً يرتبط بالقلق والتوتر والهم وضيق الصدر ؟ وعندما يزيد هذا القلق لماذا يهرب البعض من هذا الوعي لتعاطي المخدرات، هل لينسى ذلك الشقاء وذلك الوعي ... ورغم تلك المعرفة المسبقة بأضرار المخدرات إلا أنهم يأخذون طريهم لها للدخول في حالة من النيرفانا التي تعطيهم السعادة و البهجة و الضحك ! هل هي حيلة منه للسيطرة على هذا الوعي و كبح جماحة ؟ .

هذا السلوك يفعله أكثر الناس هشاشة وضعفاً على وجه الكرة الأرضية لأن الوعي عند الأقوياء يقاوم بوعي مضاد وأفكار العقل المقلقه تقاوم بأفكار صلبه لها قدرة على تفتيت هذا القلق، وإعادة برمجة الوعي برمجة فكرية حتى يتسق مع الواقع في هدوء وسلام وسكينة وهذه طريقة

الحكماء والعقلاء وليس بتتبع لذة الدوبامين والهروب من هذا الوعي بالتعاطي .

وغالباً يمارس ذلك من يكون عقله فارغاً من الأفكار الصلبة لمواجهة هذا النوع من شقاء الوعي ، وهذا لايعاني أن الوعي بالوجود لايفارقنا أو لم يعطينا (الله تعالى) فرصة لأن نرتاح منه ولو لساعات وهو نوع من غياب الوعي لايخلوا من لذة ومتعة يومية رغم أننا لا نهتم به ولا نلقي له بالاً رغم مايقوله عن أهميته الأطباء والعلماء وهو(جنة النوم) نعم النوم هو أهم مايحصل عليه إنسان بعد يوم عمل شاق ومرهق ومقلق ، وهو أجمل مكآفأة يفوز بها الإنسان بعد أن يرهق عقلة بالتفكير ، والتفكير في التفكير ذاتها كما هو حالة جهابذة العقول ، و لابن حزم مقاربة نابه في السعادة والنوم بقوله " اذا نام المرء خرج عن الدنيا ونسي كل سرور وكل حزن فلو رتب نفسه في يقظته على ذلك ـ أيضاً ـ لسعد السعادة التامة "203 وأما عالم النفس اريش فروم فيأتي بمقاربه هي الأخرى رائعة وجميلة ليميز بين حالة النوم واليقضة ففي النوم " يتحرر الإنسان من مهمة بذل مجهود للبقاء على قيد الحياة ...لقد أنتقل إلى جوهره ويمكنه الآن أن يصوغ رسائل لنفسه يقوم بتأليفها وتمثيلها وتنفيذ الخطط التي تمكنه من التعبير عن رغباته

203 ص ٨٥

...نصبح أكثر يقضة في نومنا مما نفعل في يقظتنا "204
يعتبر فروم النوم حالة من الخلاص الروحي من أعباء قلق السعي للبقاء على قيد الحياة فنحن إن سلمنا مما يسميه (التأهب الحاد) أو الأرق فإن النوم يكون أكثر يقظة لنا في نومنا منه في أحلام اليقظة التي تؤكد على الكسل العقلي وهنا يقصد باليقظة (وعي الفرد بالوجود متخلصاً من تأثير هذا العالم الصناعي عليه وعلي أفكاره) وفروم معه حق في أننا في النوم نكون على حقيقتنا تماماً متحررين من الآخرين ... فالنوم هروب من الوعي بالعالم الخارجي ودخول إلى وعي بالعالم الداخلي ، و النوم يغيب الوجود عنا لسعات فيجعلنا نعيش عالم آخر بكل مافيه من أحلام وخيال وأفكار سواءً كانت قبيحة أم جميلة ، سعيدة أم شقية هادئة أم صاخبة لكننا في نهاية المطاف سنعبر عن أنفسنا أًصدق تعبير .

و عندما أسند ظهري على فراشي فإنني إمارس فن النوم و أحاول أن أنام بهدوء وسكينة وكأنني قطرة من حبات المطر تسقط على سطح المحيط وتذوب فيه تماماً، وهو نموذج للموت الذي يُغيب كل هذا الصخب الخارجي عنا وهو سكينة صادقة للروح ، وله ارتباط وثيق بالسعادة والشقاء والفرح والسرور والصحة والعافية فهو جزء

204204 فن الوجود أريك فروم ص 66

لايتجزء من أهمية صحة الإنسان وسعادته ولذا أحاول أن أشطب عن ذاكرتي كل فكرة تخطر في بالي قبل النوم فلست مثل الشافعي مثلاً يفكر في مسائل فقيهة عند النوم وعندمنا تخطر في ذهنة مسألة يفز من نومه مستيقظاً ليشعل السراج وينهمك في الكتابة على النمرة والمحبرة ليدون أفكاره حتى لاتغيب عن ذهنه، وليس هذا في وسعي فأنا عندما أسلم نفسي للسرير أقرر فعلاً أن أغيب تماماً عن الوجود وأحاول أن يحدث لي مايحدث لقطرة المطر وهي تسقط من السماء لتذوب على سطح المحيط وتندمج فيه تماماً وتتلاشى بين ذراته .

ويصح لنا أن نقول بأن النوم هو ملاذ للمرهقين وجنة المتعبين وسعادة المهمومين ، وهو مخدع النسيان من هموم الحياة وأحداثها .. ولو لساعات معدودات... أنه هروبهم الجاد من هذه الحياة فهو ينسيهم كل شي أو على الأقل يخفف عنهم كل شيء ،، وإن جاز القول بأنه يحجب عنهم لساعات قلق الحياة المتسارع وأحداثها المتلاحقة والتي لا تكل ولا تمل وكأنهم في دوامة تدور بهم دون أن تخف سرعتها .

إن الإنسان المعاصر يتمدد الأرق فيه وينتابه القلق بعد جنون الثورة الصناعية والثورة التكنلوجية والثورات المتلاحقة وهي جميعها نتاج للحداثة، حتى بات الإنسان

اليوم لايعرف النهار من الليل وصار ضوء الليل أحياناً لايختلف عن ضوء النهار داخل المدينة وبات معرفة المساء كما كان أسلافنا يعرفونها من السكينة وجمال السرج وقلة الإضاءات شبه مستحيلة ، و عندما لانسعد بالنوم ويتحول نهارنا لليل وليلنا لنهار فإن سلوكنا يوحي بأننا لانريد ان ننام لا ليل ولا نهار .

وأكاد أقول أن من يعرفون فن النوم هم قلة القلة في هذه الحياة وهي تجربة لذيذه لمن اتقنها فعلاً لأنه يعني غياب الوعي الذي يشكل حقيقة أدراكنا لهذا العالم إن غياب هذا الوعي لساعات يعني أن الوجود الخارجي ليس له وجود وقت نومنا ، أي أننا في لحظتها في عداد الموتى لساعات محددة ويصف القرآن النوم وشببهه بالموت بوصف في غاية الجمال . يقول الله تعالى :

{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (42) الزمر

إن النوم وفاة بهذا المعنى يصفه الله فيقول: { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } الأنعام ٦٠

لكن رحلة الموت (موت النوم) قد لاتنتهي للحياة بل قد تنتهي للموت الفعلي وتنتقل من موت النوم للموت الحقيقي يقول الله عنها

{فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}الزمر ٤٢

وهذا التأمل له معنى في غاية الأهمية هو أن اليوم الذي تصحو فيه ويلامس شروق الشمس جبينك فهو من أعظم عطايا الله لك فأنت الأن لست من عداد الأشخاص الذين عانوا من الأحتضار وأنتهى بهم المطاف لمفارقة الحياة في ليلة الأمس ، أنت اليوم تعيش حياة جديدة ويوم جديد وكوب القهوة الذي ترتشفة هذا الصباح لابد أن يكون مختلطاً بالتفاؤل والسعادة والأمل والإبتسامة وليس بالقلق والضجر والتوتر والضنك ... لأنك لست ممن اختاره ملك الموت في هذا المساء ونزل عليه لينفذ أمره الله فيه وينقلك من عالم الأرض لعالم السماء بل لاتزال لديك فرصة العيش وممارسة الحياة يقوله تعالى :﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾]السجدة ١١

ماذا بعد هذا

عند التأمل في حال ماتقدمه الحضارات من منتجات فكرية للعالم فيمكن أن يقال بأن الحضارة اليونانية حضارة الفلسفة وكل من كتب بعد اليونان لايفعل أكثر من التكرار رغم كثرة الأفكار في هذا الباب ولم يخرج الفلاسفة فعلاً عن عبائة أفلاطون وأرسطو حتى اليوم بستثناء الفلسفة الإسلامية التي لاتعاني من تلك الثنائية الحادة (العالم المادي والعالم المثالي) وأن الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة الفقة لأن الفقة امتياز إسلامي خاص وكما أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير أستنشاق أول أكسيد الكربون في الهواء المحيط به فإن المسلم كذلك لايستطيع أن يفكر بلا مرجيعة فقهية يفهم الفقه من خلالها العالم وهذا الفقه هو (فهم) الدين على الوجه الصحيح ، و الأمة لا تأول أو تفكر أو تتفلسف إلا من خلال (فقه الدين وفهم الغاية من الحياة) وهو الواحة الفكرية العربية في فهم القرآن وفهم السنة وفهم الواقع ، وأقتراح الحلول في تدبير شؤن الناس ومن خلال الفقه تنشأ حضارة الاختلاف وليس الخلاف، أي أن الفقه يعني الفهم وإذا فقهت شيئاً يعني بأنك قد أحط به من كل جوانبه تقريباً ... وللآخرين حق الفهم الذي يختلف عن فهمك ... والحكم الأخير هي اللغة

ودلالاتها .. وأخيراً الحضارة الغربية الحالية هي حضارة العلم الطبيعي المجرد فإن هذه القسمة عادلة تقريباً ، 205 نعم الفقه هو فهم واقع النص والدين والوجود القائم ، وفهم ماقبل الموت ومابعده وهو قائم على الإختلاف وليس الخلاف والصراع كما هو حال طوائف المسيحية وكما ينتشر بين الفقهاء (تعلم الخلاف يتسع صدرك) ويقول عمر للمسلمين بعد أن تقسمت مجالسهم (أفيضو مجالسكم بينكم) وعلي رضي الله عنه كان أعلم الفقهاء بالدين وكان مجاهداً بعقله وسيفه ضد الباطل طيلة حياته حتى مات شهيداً وكان له في الفقه شأوً بعيداً فهو في أكثر من موضع يوضح حقيقة أختلاف العقول في التدبر والفهم والإستنباط . والفقيه له اتساع في الرأي وأفق واسع في تدبير في مصالح الناس، وليس كما يفهم السذج من اللناس بأنه يكون حائلاً بين الناس والله كما يفعل القس المسيحي .! بل يقول رأيه إن طلب منه وهو يعلم أن الفتوى معلمه وليست ملزمة لمن يفهم أبجديات الفتاوي الإسلامية ، ومن أهم غاياته تحقيق العبودية لله تعالى وإقامة القسط في الأرض وتوظيف مقاصد الشريعة لإقامة العدل والبحث في المصالح المرسلة لتحقيق الغايات والأهداف للنهظة والنمو وإعمار الإنسان روحاً وعقلاً وهذا هو حال الفقهاء غالباً

205 طرح هذا التقسيم الرائع المفكر محمد عابد الجابري وهو لم يبتعد عن الصواب فيه . نقلته بتصرف وليس نقلاً حرفياً ..

في كل عصر وهم يعالجون صدع الأمة ويوحدون صفها أما الأخطار والأشرار ، أما المتعالمون الذين يخلقون التشاحن والتطرف وأحادية الفكر و الإقتتال بين المسلمين وقدموا الإسلام في أسوء صورة فرفع شكوانا إلى الله تعالى...

والفقه هو عقل الأمة الإسلامية لأنها يمنعها من الجموح الفاسد في أستغلال الناس بعضهم بعضاً بغير وجه حق ويحاول إقامة القسط (العدل بينهم بالحق) وهذا المنع لايكون بالسوط والعصا وليس عند الفقهاء غالباً سلطة والفقيه ليس قاضياً ، لكن فهمهم للنصوص تبين للعامة أن الفعل الفاسد يبقى فاسداً وأن عمله كل الناس والفعل الخير والصالح يبقى صالحاً ولو هجرة كل الناس لأنهم ببساطة يقولون الحق دون أكتراث ، من خلال أفق واحد وهو إفق النبوة المحمدية ، فإذا كان الإسلام من عند الله و الدين من عند الله والدنيا من صنع الله فلابد أن تكون رؤية المسلم للدين والدنيا والآخرة في أفق واحد وأن يدرك أنه لابد أن تتوافقان ولا تتعارضان في الأهداف والغايات والمصالح.
يقول تعالى هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } البقرة (29) ويقول { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} الملك (15) .

لهذا يكون الفهم ـ تجاه الدنيا والآخرة ـ واضحاً ومتماسكاً ولايعاني المسلم من ثنائية الرازي العقل والنص (الوحي) الفلسفة اليونانية العالم المثالي والعالم الواقعي ولا من ثنائية المعرفة العقلانية والتجريبية ، بل أن الفقه يقوم على النص والعقل والتجربة والحس وكل مايمكن من زيادة معارف الإنسان ... وكل هذه وأكثر ويمكن أن يكون العقل البياني والبرهاني والعرفاني في نص واحد ومتماسك ولا ضير في هذا ومصادر المعرفة في الإسلام هي كالآتي .

1. الوحي
2. العقل
3. التجربة

فالمعرفة في الحضارة الفقيه الإسلامية توضح ماقبل الموت ومابعد الموت ، ولا يعاني المسلم من قلق ولغز مابعد الموت .! وهنا يمكن أن يعيش الإنسان المسلم حياة مطمئنة ساكنة، و جوهرها الإيمان والتسليم وتحقيق السعادة ، وكذلك العمل لايكون **عملاً فقط بل يتحول هذا العمل لعبادة فيكون من خلال الرؤية الفقهية أن كل هد مبذول لكسب الرزق الحلال أو عمارة الأرض أو نفع**

الناس إلى ثواب يعادل العبادة وشرط ذلك أن يقترن بالنية الصالحة والعمل الصالح و هنا يكون السعي للدنيا هو سعي أيضاً للآخرة مع رعاية الضوابط ...سواءً كان مهندساً أو خبازاً أو طبيباً ...إلخ كل هؤلاء يمارسون عبادة أثناء أداء أعمالهم وكأنهم في مكان الصائم القائم وهذا ماليس في الديانات الأخرى ولا الفلسفات الأخرى أبداً والشرط الأساسي لذلك هو (اخلاص النية لله تعالى وأحتساب الأجر عنده)وهل هذا شرط صعب .! لا أظن ذلك . لمن يبحث عن الخير يجب أن يكون دافع العمل هو فعل الخير لنفسه ولمن هم تحت مسؤليته وليس عملاً فاسداً محمل بالفساد وينتج فساداً ، يقول الرسول (إنْ كان خرج يسعى على ولدِه صغارًا فهو في سبيلِ اللهِ وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيلِ اللهِ وإنْ كان خرج يسعى على نفسِه يعفُّها فهو في سبيلِ اللهِ وإنْ كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيلِ الشيطانِ.)[206] تأمل هذا في كل شيء تفعله هل هو لله وهل كان من أجل الله وفي سبيل الله أم للشهرة والمكانة والمنافسه والغلبة والرياء والنفاق والكذب .! وهل ماتفعله هو من أجل الحصول فقط على المال وتحصيل الثروة وتضخم الذات ..! وتحقيق أهداف شهوانية فقط، إن هذا

206 التخريج : أخرجه الطبراني (282)

لايعني أن تحقيق عمل التجارة يمنع المؤمن من العمل الصالح فهذا الرسول يقول {نِعمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالحِ }207 وهذا هو جوهر المراد وغايته (عمل صالح و إنسان صالح) لكن المهم هو مسائلة الذات عن الغاية التي تقف خلف توفير المال...

207 أخرجه البخاري في ((الأدب المفرد)) (299)،

وقفت متأملاً بصمت عميق جداً قول مؤرخ الحضارات الأمريكي ولي دورانت في وصفحة لحال البشر السابق ووضع الإنسان المعاصر عندما قال: " إنَّ الأمل هو الحال الطبيعية للبشر ، وحتى للفلاسفة. وقد نشأت الديانات الكبرى وازدهرت بناءً على حاجة الإنسان إلى الشعور بالإيمان في قيمة وجوده وقدره، فالحضارات العظيمة قامت عادةً على هذه الديانات الموحية، وعندما يبدأ إيمان كهذا بالوهن بعد أن قدم الدعم للإنسان على مدى قرون، تُختزل الحياة إلى مجرّد مسألة وجود بيولوجي مضحيّةً بالكرامة التي يمنحها القدر ، وتصبح مجرد فاصل زمني غريب بين ولادة سخيفة وموت مهلك . وباختزاله إلى مجرد كائن مجهري لا قيمة له من منظور العلم، يخسر الفرد المطلع الإيمان بنفسه وبعرقه وبمشاريعه التي نفذها بعزيمة وبأس عظيمين الإيمان الذي جعله يومًا محلّ إعجاب بذاته وبقدراته، وإذا اختفى الإيمان غاب الأمل وحلّ الشك واليأس. هذا هو التشخيص الجوهري لزماننا. فهو ليس مجرد حرب عام 1914 التي أودت بنا إلى التشاؤم وليست عن الكساد خلال السنوات الأخيرة، بل علينا التعامل هنا مع شيء أعمق بكثير من مجرد التخفيض

المؤقت لثرواتنا، أو حتى موت 26 مليون رجل، فما هو فارغ ليس بيوتنا أو خزائن دولنا الاقتصادي . بل «قلوبنا» "208 هذا القول لدورانت كان مقدمة لكتابة في معنى الحياة وهي عبارة عن رسائل قدمها للعديد من الفلاسفة والمفكرين والعلماء ورجال الدين وكل هؤلاء واكثر... رغبة منه في فهم الحياة من وجهة نظرهم ويمكنك ببساطة أن تلاحظ أن معنى الحياة يتلاشى تماماً من تلك العقول التي تعتبر الإنسان مادة بايلوجية نتيجة للتطور الداروينى فقط ، وأن الموت يشبه النوم الطويل لا أكثر .! وهنا يكون الامعنى هو الغالب على هذه الرؤية وقد لاحظتها بشكل واضح وجلي في هذا النص المهم عندما كنت أقرأ ردود علماء وفلاسفة وسياسيون ومفكرون إلخ على رسائل ولي دورانت عن معنى الحياة ... ويكتب ولي دورانت قولاً يشخص فيها هذا الزمن " لطالما كان الدين أعمق من الفلسفة فرفض تجذير سعادة الإنسان في الأرض ، ولم يعلق الآمال على الحياة الدنيا الفانية " 209 لقد كان البشر يفهمون ذلك قبل ولي دورانت لكن دورانت كشف ذلك وفق رأيه في ميادين الفكر الغربي ، و لاتحتاج الكثير من الجهد لتكشف عن خلل تلك الأفكار الغربية التي تجعل كل

208 معنى الحياة ولي دورانت ص ١٣

209 عن معنى الحياة . ولي دورانت . ص ٣١

أهتمامها بالواقع المادي فقط وتفرغ القيم الأخلاقية والإيمانية والجمالية من (الذات الإلهية) هنا ستفهم كم هي هشة وضعيفة تلك القيم والأفكار عندما ينزع منها الإيمان بالله ، فالأخلاق لاتستقيم بعيداً عن الإيمان بالله كما يعبر عن ذلك الكثير من الفلاسفة وكذلك كل مفاهيم الغاية من هذه الحياة تنتهي لعبث لامبرر وحياة لا معنى لها وقلق لاسعادة فيه ، وكل ذلك لا يسعادنا على فهم أنفسنا بل يحثنا على نسيان أنفسنا تماماً في أفق الإستهلاك فقط .

إن الإيمان يعلم الفرد أن يتواضع لأخيه الإنسان ، وكيف ينشأ الإنسان لنفسه الأمن والترابط والحب والعلاقات مالم يتنازل الإنسان عن تلك الفردانية المطلقة والتمركز حول الذات ليتعاون مع الآخرين المحيطين به الذين يرتبطون معه ويتقاطعون معه في مصالح كثيرة ويضع يده بأيديهم وينطلقون في التشييد والبناء سواءً كان فكرياً أو مادياً .

بل إن ضرورة التواصل الإنساني هو أمر حتمي في بقاء النوع الإنساني، فإن قرر الإنسان أن يعيش على الطريقة السارترية (الآخر هو الجحيم) فإن هذا يفضي به للعيش على طريقة روبنسن كروز معزولاً ومنعزلاً ومنقطعاً عن البشر، فالتواصل الجيد هو بذرة الحضارة بين البشر هذا ما يقوله لنا التاريخ الإنساني وهذا ما يجب أن يفهمه واقع البشر اليوم بعد أن تضخمت الذاتية فيهم وزادت (نعرة

فردانيتهم بشكل مقيت وساذج حتى تحولت لأنانية) وتكون أهمية العمل هو في فكرة (أعمار الأرض التي أستخلف فيها الله الإنسان وهو مؤتمن عليها) ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية الإسلامية الإيمانية لاتجعل الإنسان يعبث بالطبيعة وينهي عشرات الأميال من الغابات لزيادة الأرباح ويتلف أطنان من المواد الطبيعة بسبب تكرار إنتاج الإستهلاك ولزيادة الأرباح جشعاً وفساداً وينتج قنبة هيدروجينية تدمر الأرض خمسة عشر مرة وتنهي عشرات الأنواع من الكائنات دون أكتراث كما يفكر العقل الامبريالي الفاسد ..! إن الدّافع نحو تدمير الأشياء المحيطة بنا للسيطرة عليها كما شرع لذلك شيخ الحداثة ديكارت نابع من الجشع والسيطرة وشهوة السلطة . وسلطة المعرفة أيضاً . وهذه العدوانية تجاة كل شيء في هذه الحياة لها نزعة عدمية واضحة وقد نفهم ذلك في قول ثاناتوس عندما قال " إمّا أن يُوجّهَ ــ هذا العداء ـ نحو الدّاخل ساعيًا إلى تدميري، مثل الانتحار الذي يُعدّ حالة نموذجيّة، وإمّا أن يُوجّهَ نحو الخارج بسبب وجود قوى مقاومة تحوّله ليصير الظاهرة التي نسمّيها ‘عدوانيّة’)210 إن هذه النزعة التدميرية العدوانية ضد كل هذا الوجود التي تخرج من رحم العدم لها أسباب كثيرة لكن أهمها هو غياب

210 تأملات في فلسفة الموت مختارات من محاضرة ديميتريس ليانتينيس في مدرسة الصحة العسكرية سنه ١٩٩٧م

الإيمان والتسليم والتصديق بعالم آخر يتحقق فيه العدل والحق ، و سنجد على مر الأزمان نتائج تشبه نتائج د. جستون بارت في فطرية الإيمان وهو عالم تخصصه علم الإدراك قام بتجميع أشهر الأبحاث العلمية التجريبية لمدة تزيد عن عشرين عاماً كتب مقدمة لطيفة يقول فيها **" بغض النظر عن الثقافة ودون الحاجة إلى التلقين أو الإملاء القسري ، فإن الأطفال يكبرون مع نزعة للبحث عن معنى ومغزى وفهم محيطهم، وبمنحهم المجال لذلك فإن عقولهم تتطور وتنمو بشكل طبيعي، ويوصلهم هذا البحث في النهاية إلى الإيمان بعالم مصمم بدقة100٪ وبشكل هادف، وأن صانعاً ذكياً يقف وراء هذا التصميم ويقودهم إلى افتراض أن هذا الصانع المقصود مطلق القدرة واسع العلم والمعرفة واسع الإدراك وسرمدي الخلود"211 وكما قال أحدهم لم أبحث عن الله لأن الله موجود بل كان يجب أن أبحث عن نفسي لأجد الله ...**

211 فطرية الإيمان . المقدمة . د جستون باريت

شهوة الخلود من الصورة إلى السرير الطبي

كان سعي الإنسان منذ قديم الزمن لتجسيد دهشته بجمال الطبيعة التي تحيط به ومحاولة تقليدها ، وهذا هو بداية الإنسان نحو ممارسة الفن بشكل عام ،لكن الأعمق في نظرة الفن هو هذا الشعور الغائر في نفس الإنسان من أعترابة عن هذا العالم الدنيوي. أي أن هناك عالماً مفارقاً لعالمه الذي يعيش فيه ، لقد تملك الإنسان شهوة الخلود للأرض وقرر تحنيط الجسد كأقصى مايمكنه فعله، في وقت لم يكن بإستطاعة الإنسان أن يفهم الكثير عن بايلوجيا الإنسان وتكوين الجسد وتركيبة الفيزيائي والأحيائي، وهذا (التحنيط) يعني أن يتمكن الإنسان ولو بقدر قليل من تحقيق الخلود لهذا الجسد وإبقائه أكبر قدر ممكن أمام مرئى الجميع وهانحن نلاحظ محنطات الحضارات السابقة أمام أعيننا متناثرة في متاحف العالم ومن أشهرها الحضارة المصرية القدية.

لكن أدوات التحنط لم يكن بوسعها الإحتفاظ بحقيقة الشكل و إبقاء ملامح الجمال، و لم يؤدي ذلك لما يحتاجة الإنسان من شهوة تجسيد خلود الجسد مع الإحتفاظ بالجمال فيه كما يجب وانتهت هذه المحاولات للفشل . وكان هناك

طريق آخر لتجسيد الخلود قرر الإنسان أن يسلكه وهو النحت ، و الذي تفننت فيه الحضارات السابقة ووصل ذروته مع الحضارة اليونانية التي لم تترك شيء يمكن تجسيده من تفاصيل الجسد إلا وفعلته ، و هذا المفهوم لتجسيد الصور من خلال النحت والرسم على الكهوف بلغ ذروته مع النحت تحديداً في زمن الحضارة اليونانية وآخر محطاتها مع الحضارة الغربية الحديثة في عصر النهضة 212 وكأن الغاية من كل ذلك هو في فعل الخلود السرمدي لجماليات الجسد الفاني والمتناهي ...و في آخر شهوة الخلود وبعد هيمنة فنون عصر النهضة ومالحقة من مدارس فنية إنفجر عصر جديد سيغير الكثير من واقع حياة البشر وهو عصر الصورة الفوتوغرافية مع الفرنسي لويس داغير ... والذي وصلت بنا اليوم ذروته وهو في تطور متسارع ومتلاحق حتى باتت الصورة حاضرة في كل لحظات حياتنا وهي المهيمنة على واقع حياة البشر اليوم ، وهنا يمكن القول بأن الصورة تسرب إلينا شعور الخلود الزائف والمراوغ ونحن لا نشعر ولاندرك هذا ، **إن الصورة التي تراها الآن ما هي إلا ماضي وهذا الماضي لم يعد له وجود عيني حقيقي وواقعي ، و الحياة في حقيقتها هي الديمومة والحركة المستمرة بلا توقف ،**

212 يقصد بالصورة ها مفهومها الواسع وهو مايشمل الرسم والنحت والتصوير الفوتوغرافي في مابعد ...

ولايمكن أن تتوقف أبداً وكل شيء يقدم لك ويقول بأن الزمن توقف (وهذا طبع الصورة) فإن هذا وهم وزيف و تجميد الحركة وإيقاف الزمن محال ، وهذا يعني أن الصورة تسرب لنا الشعور بالخلود المطلق وهذا ماليس له حقيقة ، إن معارك المصريين القدامة مع فكرة الخلود تتجدد بين أظهرنا في كل وقت وبأشكال وأدوات تختلف و فكرة الخلود التي تنتشر في الفنون وخصوصاً في التماثيل والتصوير بشكل عام و تحمل ذوقاً جمالياً فاتناً يتجسد في الصورة بأعلى إمكاناتها مع إبراز التفاصيل والمشاعر الإنسانية ، كما هو الحال مع المدرسة الرومانسية، إنها تسرب لدواخلنا شعور مزيف بأننا خالدونا من خلال صورنا ، أو على الأقل تشعرنا بهذا الشعور، وتقدم لنا أجساد غادرت هذه الحياة منذ زمن وكأنهم بيننا اليوم بشكل مباشر .و هل الصورة تقف عند هذا الحد أم أن تأثيرها في مفهوم الخلود للإرض ينتشر لما هو أبعد منها بكثير .؟ إن الصور اليوم هي من تكيف فهمنا للحياة وكأن فكرة الخلود و الصورة متلازمان في عقولنا .

نحن ندرك حقيقة التغير والحركة وهذا يعني أن الزمان والمكان متغيران وبهذا يكون الجسد متغير كذلك وهذه الصورة لا تكون حقيقة إلا في تلك اللحظة التي تم التقاطها

فيها فقط 213، وليس بعدها ولا قبلها وهذا التمسك الشديد بالتصوير ورواجه اليوم بين كل البشر يعني ، أن الإنسان في داخله رغبة جامعة للشعور بالخلود في أعماقة وهذا الشعور نابع من ذات الروح وليس في الأشكال والأجساد والصور ، لأن الروح من الله وهي خالدة أما الجسد فهو في طريقة للهرم والموت وأخيراً للتحلل والتلاشي ... والمؤسف أن هذه الحقيقة الكلية لاتقدم في مناهج التعليم ولا تقال للأطباء أيضاً الذي يمارسون مهنة صيانة الجسد ، وهذا الشعور يصفه أحد الأطباء بقول " لم يكن في كتبنا الدراسية شيء عن الشيخوخة أو الوهن في أواخر العمر أو عن الاحتضار . لم تكن هناك تفاصيل عن هذه المرحلة ، وكيف يمر الناس بخبرة نهاية الحياة وكيف تؤثر في الذين من حولهم ! كل هذا يبدو خارجاً عن موضوع الاهتمام كان الهدف من تدريس الطب ، كما كنا نفهمه ، وكما كان يفهمه أساتذتنا هو تعليمنا كيف ننقذ حياة الناس ، وليس كيف نعتني بنهايتهم"214 ويمكن أن نفهم أيضاً ذلك السرير الطبي (من خلال فكرة الخلود أيضاً) و الذي يشعرنا هو أيضاً بمحاولة تمديد الحياة وإبعاد الموت أو

213 إن الصورة تخلق المشهد الذي يناسبها فتغيير العدسات يعني تغيير ابعاد الوجه والشكل والهيئة وتغيير الكاميرا يعني تغيير قدرتها على تحسس وزيادة تسرب الضوء للسنسور وتغيير الزاوية يعني تغيير منظر وشكل المشهد وقد تخفي حقيقة المشهد في تلك اللحظة وتقلبة رأساً على عقب بل وتحدد الأحكام على المشهد الذي تقدمة من قبل المتلقين .

214 لأن الإنسان فان .. أتول غواندي ص 11

تأخير قدومه ، وهي نابعة كذلك من فكرة الخلود أو أكسير الحياة.

المؤسف أن هذه (العناية لإطالة عمر الجسد) لاتحدث بالتساوي مع الطبقات الفقيرة التي تتوق هي كذلك لفكرة الخلود أو على الأقل للبقاء أكبر قدر ممن على قيد الحياة، لأن فقرها يمنعها من الإستفادة من هذه الخدمات الطبيعة الوفيره والمتقدمة للمرضى الذين يتمتعون بمستوى أعلى عن غيرهم ، فالكثير من هاؤلاء الفقراء يتم **معاملتهم بإستراتيجية القتل الرحيم** ، لأن أجسادهم وفق رؤية العقل الرأسمالي عبء على المشافي، يقول في ذلك الطبيب أتول غواندي "أوكلت إلي مهمة أن أقطع عن لازاروف جهاز التنفس الاصطناعي والذي كان يبقيه حياً . راجعت أولا محقنة المورفين للتأكد من أنها تنقط باستمرار حتى لا يعاني لازاروف من ضيق انقطاع التنفس . انحنيت قريبا منه وقلت له معتمدا على احتمال أن يسمعني ، إنني سأسحب أنبوب التنفس من فمه سعل مرتين حينما سحبت الأنبوب وفتح عينيه برهة قصيرة ثم أغلقهما، ثم أصبح تنفسه عسيراً عليه ثم توقف ووضعت سماعة الطبيب على صدره وسمعت دقات قلبه تخفت حتى التلاشي "215 هذا هو ألم أن تكون سبباً في نهاية حياة أحدهم ، وبهذه الطريقة

215 لأن الإنسان فان .. أتول غواندي ص ١٦

تتعامل مع الموت وكأنه أجراء وظيفي روتيني، أو ينتابك شعور بأن الموت للآخرين وليس لك ويعني الآخرين ولا يعنيك.! والأخطر من كل هذا هو شعور الامبالاة تجاه الموت ، ويخيل للبعض بأنه يشبه النوم الطويل ..

نحن جميعنا نحمل معطف الطبيب الذي يظن أن الموت يعني الآخرين ولا يعنيه كما قال الطبيب أتول " حتى وإن كنت أرى أناسا في عمري يواجهون الموت.. كان الفرق بيني وبينهم أنني ألبس معطف الطبيب . وهم يلبسون الزي الخاص بالمرضي ، ولم أكن أتصور الأمر من وجهتهم تصورا واضحا ، بأن أكون أنا الذي يواجه الموت ... لم يكن ذلك بأنني فكرت أنني سأواجه الموت يوما ما "216 وقد تكون هذه المؤسساتية لها دور كبير في خلق هذا الوهم في السيطرة على الموت والتعامل معه بطريقة مؤسساتية صرفة وإجراءات محدده ، وهي تبدأ منذ الولادة وليس من الموت فيشهد لك الآخرون بأنك تولد في اللحظة الفلانية والوقت الفلاني ويشهد لك الآخرون بأنك دخلت مراحل التعليم ويشهد لك الآخرون بأنك أخذت جرعات التطعيم ويشهد لك الآخرون بأنك تجاوزت مراحل التعليم مرحلة بمرلحة و لا يتحقق انتقالك للمرحلة الأخرى أو لترقيك في سلم وظيفي أو إثبات مهاراتك ومعارفك في أي أمر إلا

216 لأن الإنسان فان .. أتول غواندي 17

بشهادة هاؤلاء الآخرون.! حتى تأتي الشهادة الأخيرة وهي أن يشهد لك الآخرون بأنك مت (شهادة الوفاة) وهذه الشهادة الوحيدة التي لن تراها ولن يقدر لك رؤيتها ... كل هذه الشهادات قد تكون ضرورية إلا شهادتين أنت في الحقيقة لست بحاجة لها و سيتحقق لك الأمر بها أو بدونيها وهي لحظة ميلادك ولحظة وفاتك .!(شهادة ميلادك وشهادة وفاتك) فسواء قبل العالم بمجيئك لهذا العالم أم لم يقبل، شهد أم لم يشهد، فإن حضورك فيه حتمي، وخوض تجربة الحياة نافذ سواء قبل الأخرون بذلك أم لم يقبلوا به .! وكذلك موتك فتلك اللحظة التي شاء الله فيها بأن تأخذ الروح متاعها وترحل عن الجسد للأبد ، ولست في حاجة لطبيب يحرر شهادة الوفاة، لأنك لن تراها ، وهذه الشهادة تعني من هم أحياء فقط ، أما الأموات فإن هذه الشهادة لاتعنيهم وإن كانت بأسمائهم، وتأتي شهادة الوفاة عندما تتوقف جميع الوظائف الحيوية مثل توقف التنفس وضربات القلب ، وتتغير العينين وجفاف القرنية وليونة المقلتين ، وتعطل المنبهات الكهربائية ، وتتيبس الأطراف والجسد ويدب فيه الاصفرار وارتشاح المحابس العضلية كما يقول الأطباء ... ولا أضن أن مريضاً اليوم سواءً كان في شرق الأرض أو غربها خائف من الدفن قبل الوفاة لخطأ في تشخيص الوفاة ، لأن تشخيص الموت سابقاً كان يجعل بعض الثقافات تدفن البعض أحياء ضناً منهم بأنهم

فارقوا الحياة ..! بل إن بعض الثقافات كآنت تؤخر الموت أربعة أيام حتى يبدأ الجسد بالتعفن ليقطعوا الشك باليقين ... و في الطب المعاصر تغير كل هذا و التأكد من حتمية الموت اليوم أوضح من أي وقت مضى .

وعلى أية حال فإن الميت ذاته لايهمه سوى الحياة أو البقاء على قيد الحياة وحالة الإسعاف والإنقاذ هي غايته الأولى في لحظاته الأخيرة ، طبعاً هناك أُنَاس لهم من الشجاعة مايجعلهم يواجهون الموت ولا يدبرون عنه ورغم كل هذه البطولة التي تقال عنهم إلا أن أهوال الموت مربكة وليس كما يصورها البعض ـ نوم طويل ـ وهذه التجربة مربكة وصعبة جداً فيخاف من الموت ويخدعة الأمل ـ الأمل بطول الحياة ـ وخديعة الأمل هي الخطر الأكبر والأعظم ، لأنه أمل زائف ومخادع ، ولهذا فالإنسان المؤمن لا يستهين بحتمية الموت ولا يواسي نفسه تكرار أفكار الأمل وطول العمر ، بل يعي تدهوره ويؤمن بنهاية رحيلة ـ لأننا جنائز مؤجلة ـ وأن يضع كما يقول المثل الشعبي (قدم في القبر) أي أن يضع نفسه من سكان العالم الآخر ، ويعمل في الدنيا ويتهيأ لذلك يقول الله تعالى :

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۝ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى] النجم:38-41[،

ويقول تعالى :

يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ أي: عامل، إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ] الانشقاق:6

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ :الآية وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.
(التوبة (105 :السورة ورقم الآية

كلمة أخيرة في فن الحياة .

إن الموت لايلغي حقيقة أن يكون الإنسان سعيداً بل يمكن له أن يسعد في الدارين وهذه هي غاية الغايات، والسعادة هي آفق ممتد سرمدي من الإيمان والكفاح ، وينجح غالباً من يكون في حقل خصب ينبت التفاؤل والإيمان والأمل ، يقول لنا علماء النفس أن جوهر (سعادة الإنسان) تكمن

في طريقة التفكير وفي عالم الفرد الداخلي ، وأن يركز تفكيره في حاضره أي في هذه اللحظة الآنية التي يعيش فيها (الآن) ، فهي اللحظة التي يجب أن يفكر فيها فقط فالحاضر هو جوهر السعادة ،،، ولمجرد أن يعود الإنسان للماضي ويفتش في ذاكرته يدب فيه الحزن و يبدأ فيه الشقاء وتتملكه التعاسة ويفقد الأمل وينتشر فيه الإحباط ، وعندما يفكر في المستقبل ينتابه القلق ويزيد فيه التوتر والخوف ويتملكه الذعر من ضياع الفرص وينشغل بمقارنه الأقران ، فلا يفارقه الهم والقلق ولا يستقر له حال ،، وإن كان صحيحاً مايقوله لنا علماء النفس فهل يوجد إنسان لايستطيع التفكير في الماضي أو استشراف المستقبل؟ بالطبع لا.؟

لكن الحكمة هنا هي أن نوظف العقل ليسيطر على المشاعر ما أستطعنا لذلك سبيلاً فهذا رأي الحكماء (لأن الإنسان الذي تسيطر عواطفه على عقله لا يسير في الطريق الصحيح لأن العواطف والمشاعر تقودانه غالباً للخطأ) فالمشاعر عند التضخم تستعبد العقل وتوجهه دائماً توجيه خاطئ والمكان الوحيد الجيد لتفريغ المشاعر هو الإيمان و الحب و الفن ..

عندما تهيمن علينا المشاعر فنكتب الشعر والقصص والخواطر ونمارس هواية نحبها في وقت فراغنا ويكون لها غاية فحياتنا تكون كصورة جميلة نحن من نختار الإطار المناسب. هناك في هذه الهواية نمارس عواطفنا بامتياز وفي الإيمان نجد الخلاص ، وفي التسليم لأقدار الله نجد الطمأنينة الدائمة والسلام العميق ، و نستطيع أن

نستنطق أرواحنا ونعبر عن مشاعرنا ونتذوق الجمال وننشر الجمال ونخفف قبح هذا العالم ، المهم أن يكون في كل مانفعل غاية تسعدنا في دنيانا وآخرتنا وأن لاتضيع أعمارنا في مالا يستحق حتى عندما نكون بين يدي الله ويشاهد أعمالنا رسول الله والمؤمنون وكل من نعرفهم ونحبهم تكون مشرفه (وترفع الرأس) يقول لنا الله:{وَقُلِ اعمَلوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُم وَرَسولُهُ وَالمُؤمِنونَ وَستُرَدّونَ إِلىٰ عٰلِمِ الغَيبِ وَالشَّهٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلونَ} التوبة/105 .

هذه قصة الحياة باختصار هي أننا كائنات مؤقتة الخلود ، و عندما نخلق فنحن في طريقنا للموت أيضاً وفي مابينهما (الولادة والموت) تجربة الحياة وهذه التجربة هي من تحدد مصيرنا الأبدي بعد الموت ولهذا يجب أن ننطلق في أفق الحياة ونتذكر أن كل يوم نعيشه هو (هدية) جديدة من الله و لا يجب أن نغرق في أحزان الماضي لأن هذا مناف أصلاً لحقيقة الإيمان وجوهر الإسلام يقول الله تعالى **{: إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)10(**

النجوى كما يقول غالب المفسرين هو حديث النفس وكوابيس الأفكار التي تشغل عقولنا وأذهاننا ..! هنا الشيطان يرسل لك أفكاراً فاسدة مقلقه حتى يتلاشى من قلبك التوكل والتسليم لله ..

يكفي أن نخطط للمستقبل ونتجاهل آلام الماضي ، ونأخذ بسنن الحياة و نسلم بحقيقة كدر الحياة ومآسيها فالأرواح

الهشة هي تلك التي لم تتعرض لآلام الحياة ومآسيها ، هناك في الآلام والمأسي نجد الأنبياء والأبطال والأذكياء والعباقرة وكل من نحت أسمه على جبين التاريخ لقد كانوا يصارعون ويصبرون ويواجهون و يقاومون لقد كانوا يحولون الحزن لتفائل ويسيطرون على الهم بالإيمان ويتجاوزون التوتر بالشجاعة ويواجهون الألم بالقوة والصبر ، متجاهلين كل ما يثبط من عزائمهم ويقلل من قدراتهم وإمكاناتهم ... وفي كل ذلك المعنى الكبير جداً تكون حياتنا في عمق جوهرها (لله) منذ الولاة حتى الموت فنحن كما تقول كتب التراث اغنياء به وفقراء بدونه ، نؤمن به و نحبه ونعمل من أجله ، وهنا تكون الحياة بكاملها ليست أكثر من (إيمان وحب وكفاح) ....

النهاية